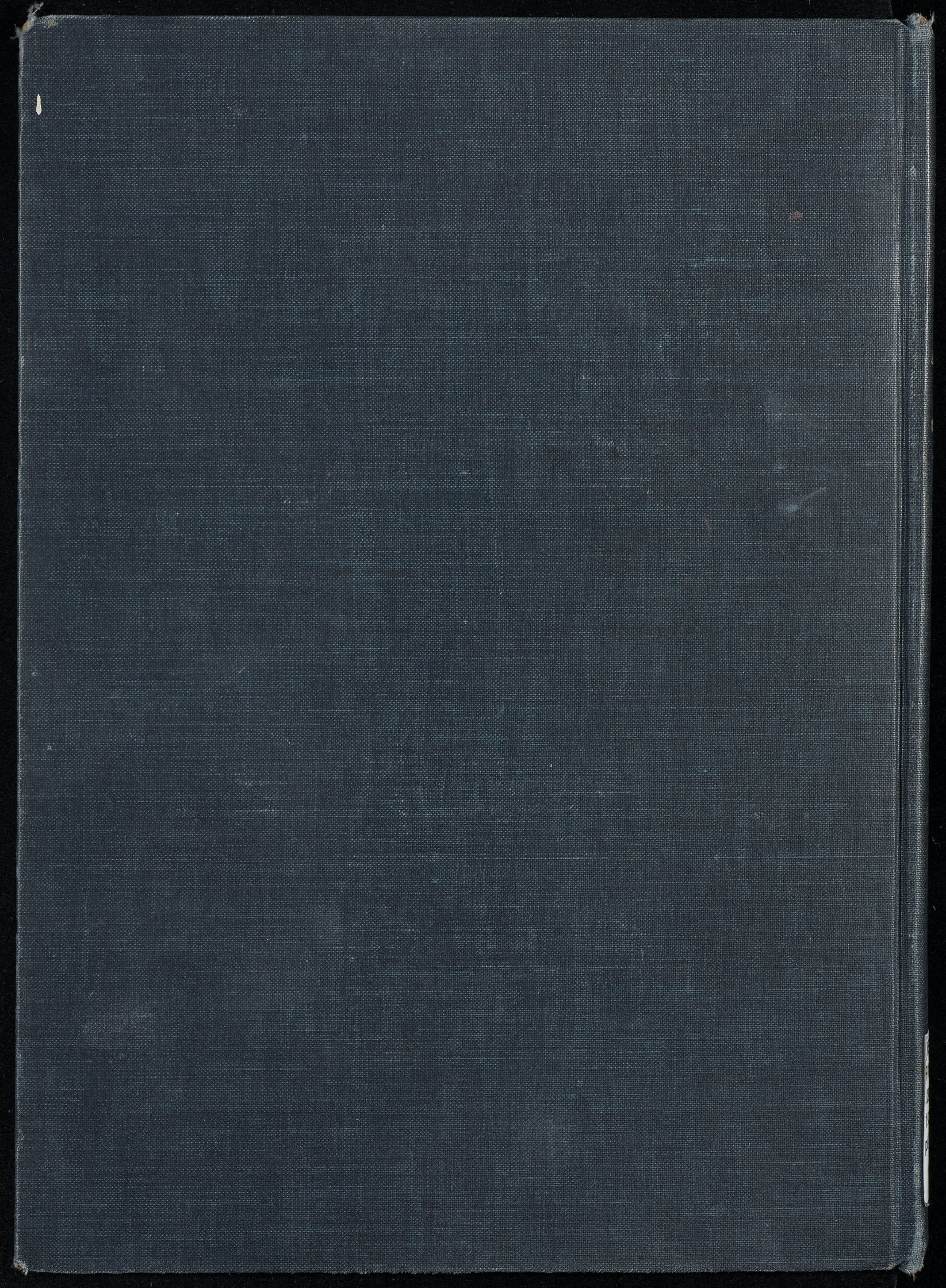
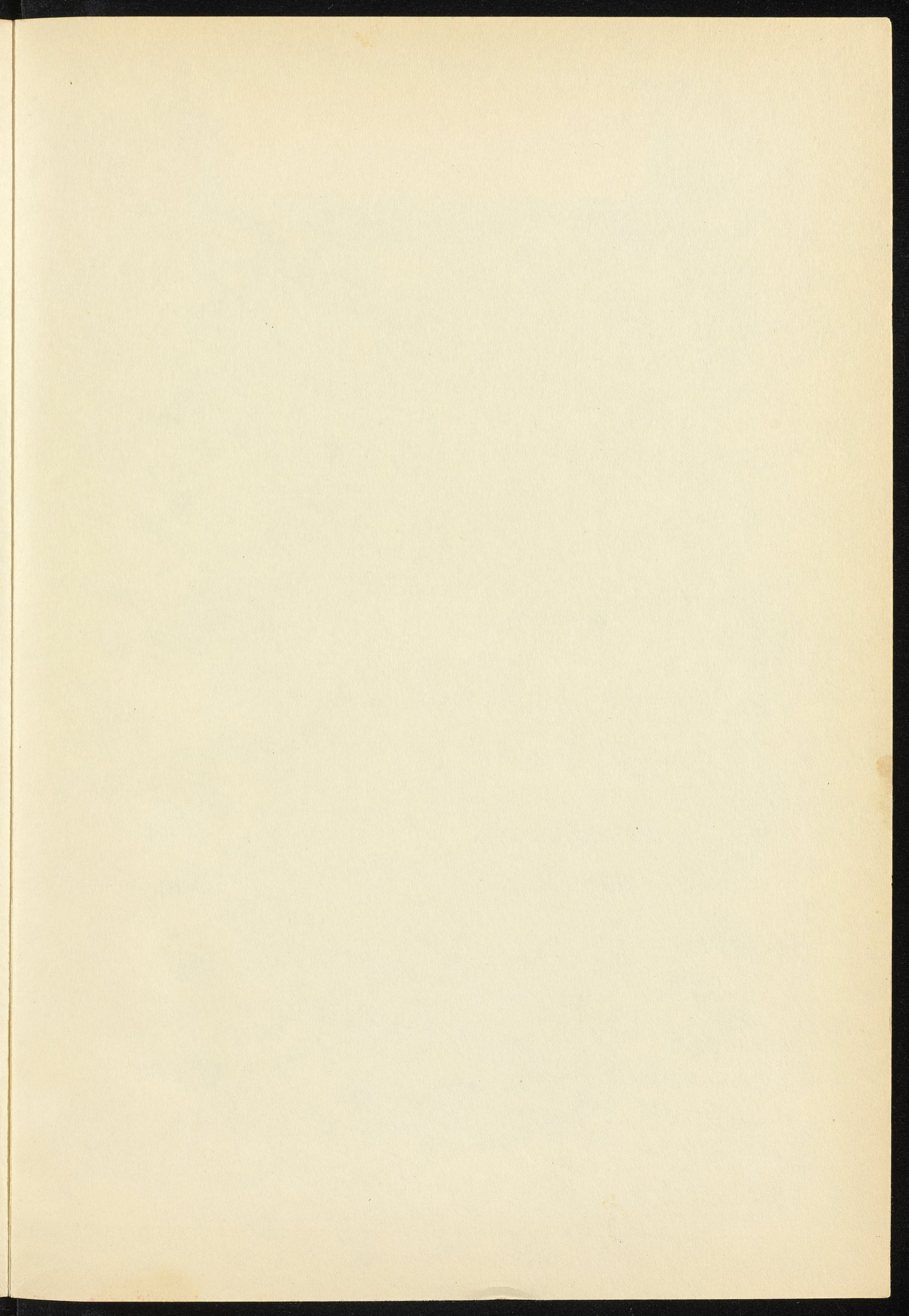
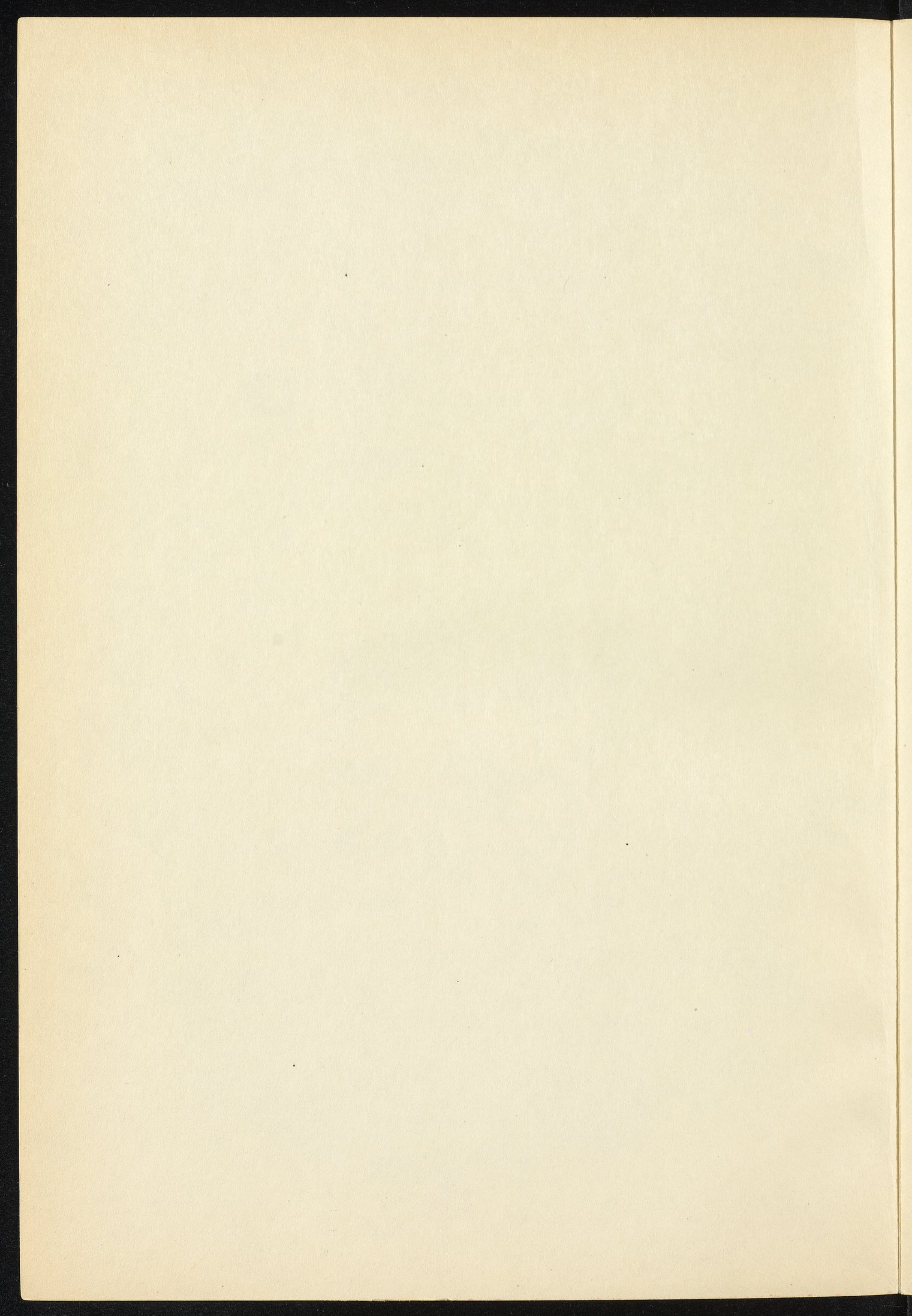
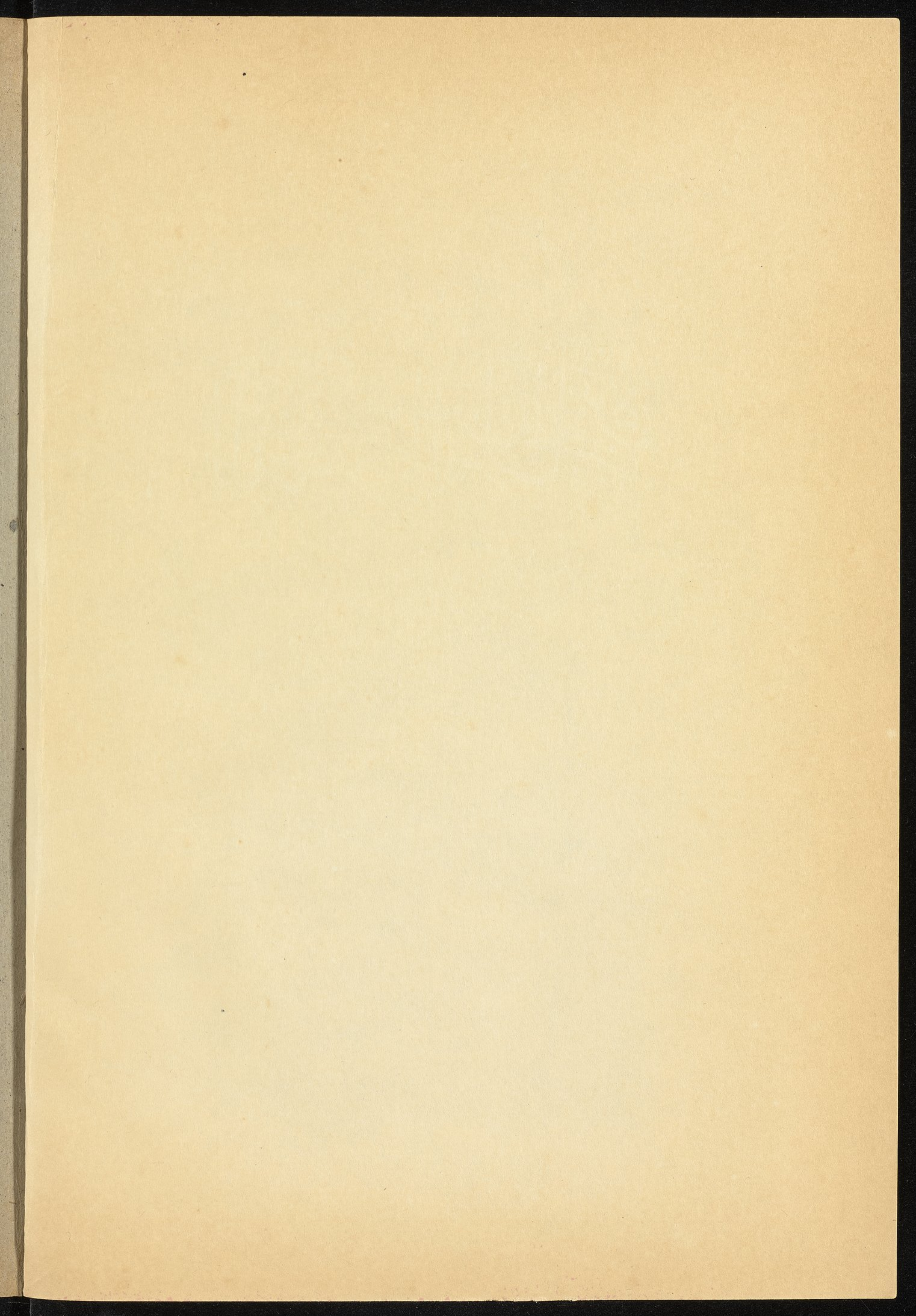








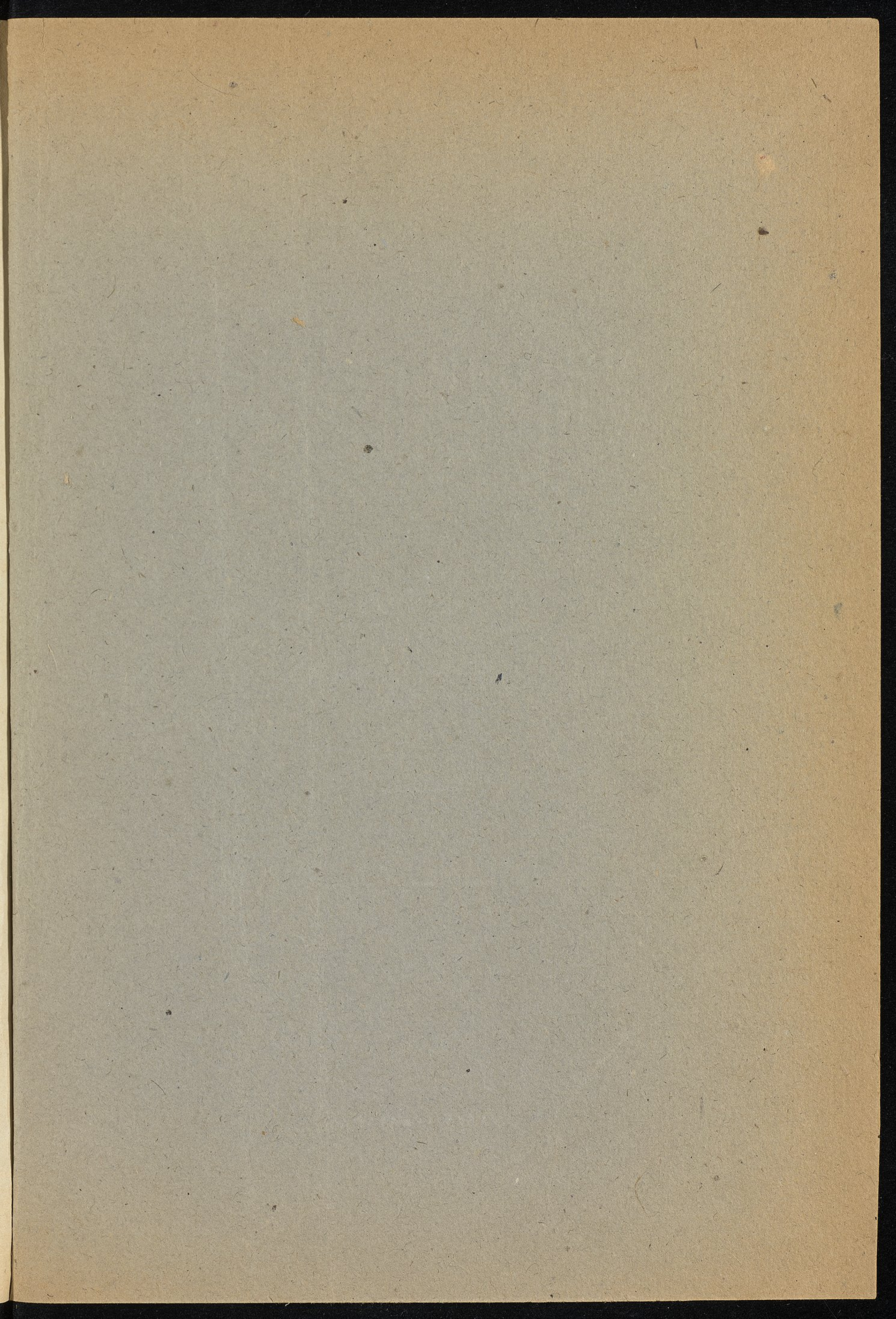
الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة

تأليف

أبي الحسن علي بن بسام الشنتريني
المتوفى سنة ٥٤٢ هـ

القسم الرابع — المجلد الأول

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م



جامعة فؤاد الأول
كلية الآداب
مطبوع رقم ٢٦

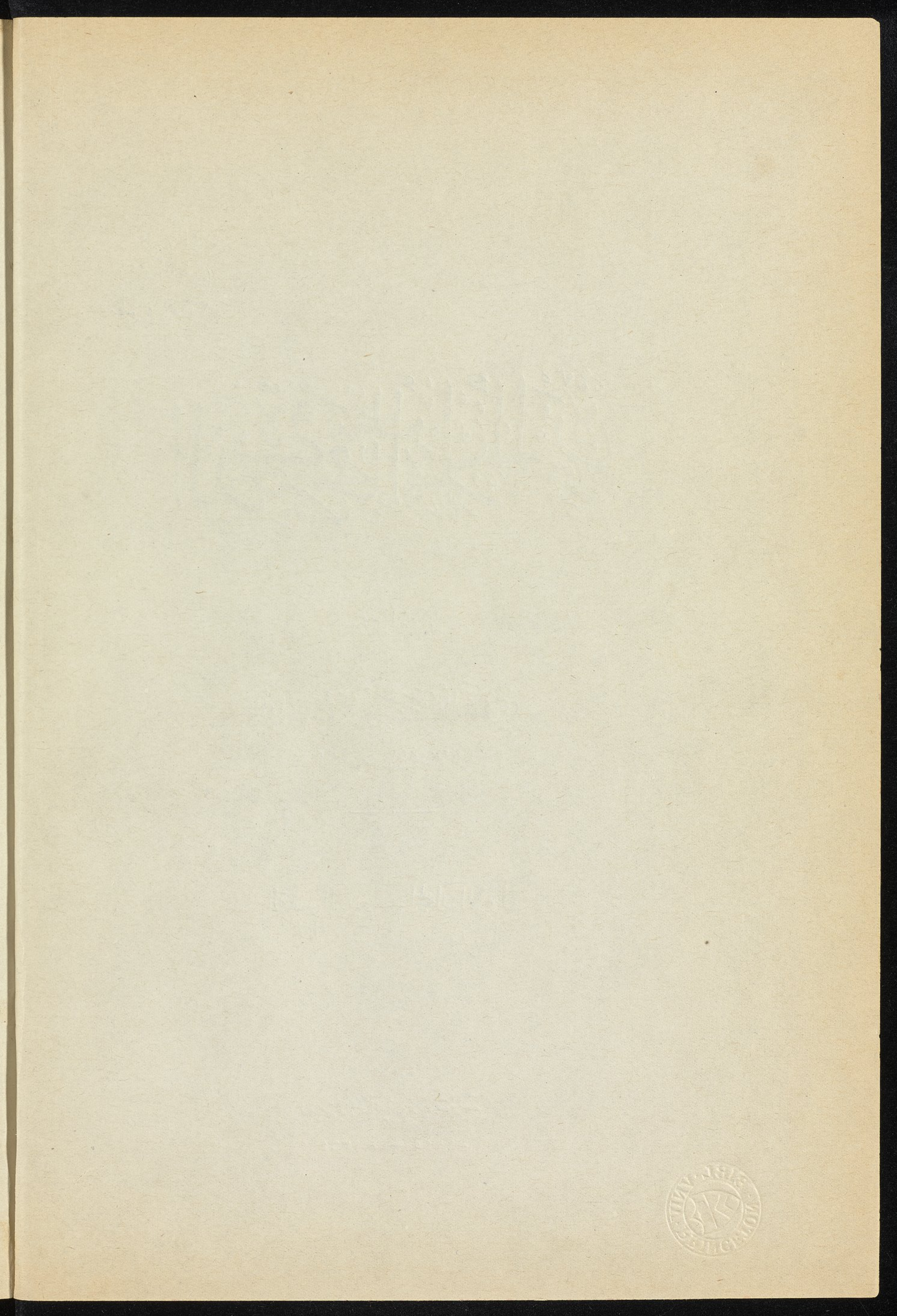
الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة

تأليف

أبي الحسن علي بن بسام الشنتريني
المتوفى سنة ٥٤٢ هـ

القسم الرابع — المجلد الأول

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م



بسم الله الرحمن الرحيم

أخرجنا فى ذى الحجة ١٣٦١ (ديسمبر ١٩٤٢) المجلد الثانى من القسم الأول من كتاب «الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة»، ووعدنا القارئ أن نكافئ طول انتظاره هذا المجلد الثانى بالمسارعة إلى إخراج المجلد الثالث. ولكن العوائق التى عوّقت نشر المجلد السابق عوّقت نشر هذا المجلد على كره منا، وضيق بإخلاف الوعد، واستحياء من الأدباء الذين انتظروا نشر هذا الكتاب واستعجلوه وسألونا مرات عنه.

وسيعجب القارئ حين يسارع إلى المجلد الذى طال تنظّره فلا يجده المجلد الأول من القسم الثانى على الترتيب المألوف والنسق المعروف، ولكن يجد المجلد الأول من القسم الرابع. والذى أخرجَنا عن النسَق أنا ننتظر من القسمين الثانى والثالث نُسَخاً فى دور الكتب الأوربية نرجو أن نظفر بها بعد أن تضع الحرب أوزارها، وتعود الصلات بين الأمم سيرتها. فما استحسنا أن نُقدِم على نشر هذين القسمين دون أن نستعين بتلك النسخ ونقرنها إلى النسخ التى بين أيدينا. وأما القسم الرابع من الكتاب فلا نعرف منه على وجه الأرض إلّا النسخة التى بأيدينا(*). فرأينا أن نفرغ منها إلى أن يتيسر استقصاء نسخ القسمين الآخرين.

(*) وهى نسخة الرباط التى أسلفنا وصفها فى مقدمة الكتاب.

وقد اضطرّنا اليأس من الظفر بنسخة أخرى إلى أن نعتمد على النسخة الوحيدة التى عندنا ، على صعوبة خطها ، وكثرة تحريفها . ولم يكن لنا مَعدًى عن أن نخرج من هذه النسخة كتابا صحيحاً جهد الطاقة . وزاد الأمر مشقة أن مشاركة الكتب الأخرى فى نصوص هذا القسم من كتاب الذخيرة قليلة ، فما أمدّتنا الكتب الأخرى حين فزعنا إليها لتصحيح نصّ أو إكماله إلّا فى الندرة .

وقد صححنا الكتاب ، وقوّمنا عوجه إلّا فى جمل لم نجزم بالصواب فيها فدللنا عليها فى الحاشية ، وانتظرنا بها معونة القراء .

ونعرض هنا أمثلة من التحريف الذى أدركناه وعرفنا الصواب فيه ليكون القارئ على علم بما لقينا فى تصحيح النسخة . ورد فى ص ٨٦ بيت أبى الفضل فى النسخة على هذه الصورة :

إذا البدر جــلا وجهه البر نوره   لخده طلى فوق وجنته خال

فصححناه :

إذا البدرُ جلّى وجنةَ البرِّ نورُه   فجونُ الطُّلى من فوق وجنته خالُ

وكُتب فى ص ١٠٧ فى الحديث عن ضعف الشعراء وتكلفهم « يهيمون بما لا ورق له من أسمائهم » وصوابها « يهيمون بما لا وَدْقَ له من سمائهم » .

وكذلك فى ٢١٦ كتب بيت الحصرى هكذا :

سريت وخليت السرى لصاحبتى فهذا الهوى يصبى وهذا الهوى يبضى

والصواب فيما رأينا، أن يكتب البيت :

سريتُ وخليتُ الهوى لك صاحبى فهذا الهوى يُصبى وهذا السرى يُنضى

هذا إلى إهمال الناسخ فى رسم الكلمات وفى مسائل النقط إهمالا لا تكاد تخلو منه صفحة من الكتاب . فكلمة (جاد) يكتبها (داد) و(أمس) يكتبها (أنس) و(بزّنى ثروتى) يثبتها (ترنى ترونى) و(خُداريّا) بجعلها (حواريا) إلى غير ذلك من أنواع التصحيف والتحريف اللذين نبهنا إلى قليل منها فى حاشية الكتاب وأضربنا عن ذكر الكثير .

***

وهذا هو المجلد الأول من القسم الرابع . وهو القسم الذى جعله المؤلف لمن طرأ على الجزيرة الأندلسية : « من هاجر إليها من تلك الآفاق ، وطرأ عليها من شعراء الشام والعراق ، ممن تبحبح فى ذراها ، وتسربل نعماها ، ونجم فى أفلاكها ، وخيم فى ظلال أملاكها » . وأثبتَ فى آخره « طرفا من كلام أهل المشرق وإن كانوا لم يطرأوا على هذا الأفق ؛ حذو أبى منصور الثعالبى . فإنه ذكر فى يتيمته نفراً من أهل الأندلس » .

وقد صححه وقام على طبعه مع إشرافى الأساتذة عبد العزيز محمد الأهوانى وعبد القادر القط ، ومحمد عبده عزام .

ونحن ندعو أدباء العربية أن يمدونا بما عندهم من نسخ الكتاب

أو نصوص فى كتب أخرى تعين على تصحيحه لنخرج الكتاب على الوجه الأكمل . ونشكر للعلامة السيد عبد الحى الكتّانى بما تفضل فأهدى إلينا نسخة قيمة من القسم الثانى من هذا الكتاب .

وإنا لنرجو أن ييسر لنا نشر المجلدات الأخرى قريباً ، على الوجه الذى نبتغيه لهذا الكتاب القيم . والله المستعان ؟

عبد الوهاب عزام
عميد كلية الآداب

القاهرة فى { ١٩ رمضان سنة ١٣٦٤ هـ
٢٧ أغسطس سنة ١٩٤٥ م }

بسم الله الرحمن الرحيم

صلّى الله على سيّدنا محمدٍ وآلِهِ وصحبه وسلّم تسليما .

***

ذِكرُ الكُتّابِ الوزراء ، والأعيانِ الأُدباء الشعراء ، الوافدينَ على جزيرةِ الأندلس ، والطّارئينَ عليها ، من أوّلِ المائةِ الخامسةِ من الهجرةِ إلى وقتنا هذا الذى هو سنة اثنين وخَمْسمائة ، واجتلابُ ما بلغنى من نَوادرِ أَخبارِهم ، وشواردِ أشعارِهم ، مع ما يتعلّقُ بها ، ويُذكَر بسَبَبِها .

***

قال علىُّ بنُ بسّام : قد استوفيتُ فى ثلاثةِ الأقسامِ ، جُملةً مما انتهى إلىَّ من محاسنِ النّثرِ والنّظام ، لمن نشأ بالجزيرةِ من الأعيانِ الأعْلام ، من أوّلِ تاريخِ هذا المجْموعِ إلى وَقْتنا . ولنُعقِبْ ذلكَ بحْولِ الله وتأييده بذكْرِ مَنْ هاجرَ إليها مِنْ تلكَ الآفاق ، وطرأ عليها مِنْ شُعراء الشّامِ والعِراق ، ممّنْ تبحْبَح ذَراها ، وتَسَرْبل نُعماها ، ونجم فى أفلاكِها ، وخيّمَ فى ظِلالِ أمْلاكِها . ولمْ آتِ بهذه الفِرْقةِ مِنْ أربابِ هذا الفنِّ الذى أنا فى إقامةِ أَوَدِه ، مُتعزّزاً من ذِلّة ، ولا مُستكثِرًا من قِلّة ، ولا لأنّى لم أجِدْ مِنْ أعيانِ وُزرائنا وكُتّابِنا مَنْ هُوَ أبعدُ غاية ، ولا أبْهَرُ آية ، ولكنّهم أسْنَدُوا إلى أعْلامِها ، وتَرَدّدوا بَيْنَ حَميمِها وجمامِها ، فصاروا مِنْ أهلِها بالوِفادَةِ عليْها ، وخَلْعِ أوطانِهمْ إليها ؛ معَ أنَّ هذهِ الطّائفةَ لمْ يَسْمُ إلاّ بالأندلسِ ذِكرُهم ، ولا طارَ إلاّ بمدْحِ مُلوكنا شعرُهم ؛ وكم فى شُعرائنا ممّن عاصَرَنى ولم أسمَعْ بذِكرِه ، ولا وقعَ إلىَّ شىء

من شِعْره ، ولعلّه كان أخلقَ بأن يُذكر ، وأحقَّ بأن تُتلَى آياتُه وتُسطَر ، لـكنْ يبلغُ المرءُ جهدَه ، والإحاطةُ للهِ وحدَه .

وقد أثبتُّ أيضاً آخرَ هـذا القسم طرَفاً مِنْ كلامِ أهلِ المشرق ، وإن كانوا لم يَطرأوا على هذا الأفق ، حَذْوَ أبى منصورِ الثّعالبى ؛ فإنّه ذكرَ فى يتيمتِه ٥ نفراً من أهْلِ الأندلُس فعارضتُه أو ناقضتُه ، والأَدَبُ مَيْدانٌ يليقُ به المِتاح ، ويستَحْسَنُ فيه الجِماح .

فَصْلٌ فى ذكرِ الأديبِ اللُّغَوِىِّ أبى العَلاء صاعدِ بن الحسنِ البغدادىّ ، وإثباتِ جُملةٍ من نظمِه ونثرِه ، معَ ما يتعلّقُ مِن الأخبارِ السُّلطانيةِ بذكرِه .

١٠ هوَ صاعـدُ بنُ الحسنِ بنِ عيسى ، البغدادىُّ تُربةً ، والطبرىُّ أصلاً ، والرَّبَعىُّ نَسَباً ؛ ينتمى فى ربيعةِ الفرَس ، وكان طلَعَ عَلَى آفاقِ الجزيرةِ فى أيّامِ المنصورِ محمدِ بن أبى عامرٍ نجماً مِن المشرقِ غرَّب ، ولساناً عن العرَبِ أَغْرَب . أبدَهُ مَنْ رأى وسَمِع ، وأذكَى مَنْ طارَ ووَقَع . فأرادَ المنصورُ أن يُعَفِّىَ به آثارَ أبى علىٍّ البغدادىِّ الوافدِ عَلَى بنى أميّةَ قبلَه ، وهزَّه لذلك فألفَى ١٥ سيفَه كَهَاما ، وسحابَه جَهاما ؛ مِنْ رجُلٍ يتكلَّمُ بملءِ فيه ، ولا يُوثَق عَلَى ما يَذرُه وما يأتيه .

وقد أجرَى[1] ابنُ حيّان ذِكرَه فقال : ولمّا دخل قُرطبةَ دَعَوهُ بالجُملة

(١) فى الأصل : « أخبرنى » وهو خطأ .

عَن العلمِ باللغة ، وأبعدوه عَن الثقةِ فى علمِه وعقلِه ودينِه ، ولذلك ما رَضِيَه أحدٌ مِنْ أهْلها أيامَ دُخولِه إليها ، ولا رَأوْه أهْلاً للأخذِ عنهُ ولا للاقتداء به ، وغرَّقوا كتابَه المترجَمَ بالفصوص ، فها هو إلى اليومِ فى نَهَرِهم يَغوص .

وقد أتيتُ أنا بلُمَعٍ مِنْ أعاجيبِه ، وأوردتُ غرائبَ من أكاذيبِه ، وتخلّلتْ أثناءَ ذلكَ جُملةٌ من نظمِه ونَثرِه ، ممَّا يشهدُ عَلَى ثبوت قدمِه وشُهرةِ تقدُّمِه . ٥

فُصول مِنْ نثرِه فِى أَوْصافٍ شتَّى

اتَّصل أوَّلَ دُخوله الأندلسَ بالوزيرِ عبد اللهِ بنِ مَسْلمة . فلمَّا نُـكِبَ استعطفَ له الوزيرَ أبا جعفرِ بنَ الدُّبِّ ليشفعَ له عندَ الخليفةِ سُليمانَ ، وخاطَبهُ فى ذلكَ بعدَّةِ رَسائل ، فكانت رُقًى لم تنفَع ، ووسائلَ لم تَنجَع .

١٠ | ٣٢ مِنها فصلٌ يقولُ فيه : لمّا جمعَ اللهُ طوائفَ الفضلِ عليك ، وأذلَقَ بكَ الألْسُن ، وأرْهَفَ فيكَ الخواطِر ، ورفْرَفَ عليكَ طَيْرُ الآمال ، ونُفضتْ إليكَ علائقُ الرِّحال ، لم أجِدْ لابنِ مَسْلمة حينَ عضَّهُ الثِّقاف ، وضاقَ به الخِناق ، وانقطع به الرَّجاء ، وكبا بهِ الدَّهر ، ملجأً غيرَك . فعطْفَكَ على والهٍ نبَّهـه النَّحسُ مِنْ سِنةِ السَّعد ، وأيقظَتْه الآفاتُ من رقْدةِ الغَفلة ، ورَشَقَتْه سِهامُ الزَّمانِ بصُنوفِ الامتهان ، حتى لَقَّبَ المنِيَّــة أُمنيَّة ، وسمَّى الموتَ فَوْتا . ومَنْ ١٥ لم يكتُبْ له الدَّهرُ سِجِلّا ، ولا عَقَد له أمانًا ، ولا أشهدَ عَلَى نفسِه ثِقَةً ، فليكنْ مِنْه على حَذر ، ومِنْ نَبوتهِ عَلَى يقينِ الخَبر . وليعلَمْ أنَّ اصطناعَ المعروفِ يكافِئُ المرءَ فى سَمْعِه وبَصَرِه ، ويلقاه فى طريقِه ، ويَحولُ بينه وبينَ مُحاربه ، ويُجازيه فى أهلِه وولدِه ، ويصحبُه فى اغترابِه عن بَلَدِه .

٢٠ وفى فصْلٍ مِنْهـا : لحَنانَكَ عليهِ وعليَّ فيه ، واذكُرْ تعلُّقَ الآمالِ به وتعلُّقَ

أمّلِه بِك ، وحاجَةَ الرُّؤَساء إلَيْـهِ وحاجَتَه إليك . وحشدتُ لكَ القَوْل ، واللهُ تعـالَى خلقَ الدُّنيا بحرْفين ، وإنَّ الـكلمةَ لترقأُ الدَّمَ ، والرُّقْيةَ لتُخرِجُ الحيَّةَ مِنْ مَكمَنِها ، فإن خِبْتُ من طِلَابك نَثْرا قلتُ نِظاما — قال :

يا أحمدَ بنَ سعيدٍ العلَمَ الذى ... أوْفى[1] فلِلحدَثانِ عنه زَلِيلُ

٥ أخذَ العِقابُ من ابنِ مَسْلمةَ الذى ... حَكَمَ القضاءُ به وغالَتْ غُولُ

لم تبقَ غيرُ حُشاشةٍ إنْ أدْرِكتْ ... خَلَصَتْ وإنْ أسْلمتَ فهْوَ قتيلُ

بيدَيْكَ بعدَ اللهِ فَكٌّ إسارِه ... وعليكَ فى استنقاذِه التعويلُ

فارحَمْ أنينَ أبى بنَاتٍ لم يُصِبْ ... لِدُموعهنَّ عَلَى الخُدُودِ مَسِيلُ

أسفَ الفراخِ على كفيلٍ كاسبٍ ... أوْدَى فليسَ لهنَّ بعْدُ كَفيلُ

١٠ فاجْعلْه فى يُمْنَى يدَيْكَ فإنَّهَا ... سُورٌ تَحُوطُ المُستَجيرَ وغِيلُ

ما ذَنْبُــهُ إلا الزَّمانُ فإنَّه ... رِخْوُ اليدَيْنِ بمَنْ يُحِبُّ مَلُولُ

كالمرأةِ الوَرْهاءِ تنقُضُ غزْلَهـا ... والشاةِ تَمْــلأُ قَعْبَها وتُمِيلُ

ولهُ من أُخرَى إلى مُجاهدٍ يَصِفُ ظهورَه على خَيْرَانَ وأسْرَهُ لجماعةٍ من الصَّقْلَب :

١٥ كتابى وأنا مُستطارٌ فرَحا ، ومستوفِزٌ[2] مرَحا ، بالغادى والرَّائحِ علىّ مِنَ البَشائرِ التى تُسْمِعُ الصُّمَّ ، وتُنْطقُ البُكْمَ ، بعَدوٍّ نجَا بعـد ما ظنَّ أنْ ليسَ ناجيا ، وخُنزوانىٍّ أقبلَ فى صِفادِه عانيا ، صُنعاً من اللهِ أسألُه ضارعاً أنْ يجعلَه عِندَكَ راسيا ، وعليكَ مُخيِّما . فإنَّ الذى آوِى إليهِ من تطوُّلكَ يُبْدِى وُلوعا ويُغْرِى بالنِّزاعِ إليكَ ، والنُّزوعِ نحوَكَ . [ومـ]ـمّا أنشدَنيهِ باليمنِ أبو الغزوّر

(١) فى الأصل : « أوق » . (٢) فى الأصل : « مستوفر » .

الأعرابىُّ لنفسه وقد حجَّ ابنُه فقالَ يذكُرُ شوقَه إليه :

أَلَا ليتَ لى عينانِ[1] تطَّلعانِ ... على النَّأْيِ أحيانًا وتَنصرِفانِ

فإنْ كانَ خيراً سرَّنى وعرفتُه ... وإن كانَ شرًّا ظلّتا تكِفانِ

ولمّا أتتْنى إحدى خرائِطِك الجزيلة ، وتبادَرتْ التباشيرُ باحتلالِ المركَب ، كادَ الفرَحُ يقضِى علىَّ ، وينزِعُ التَّماسُكَ من يدىَّ . ولولا أنّى ثبْتُ النَّحيرَة ، ومُحصَدُ المَريرَة ، لكنتُ كأمِّ أبى مَزْيدٍ إذ بعَثَ إليه[2] يحيَى بنُ خالدٍ غُلامًا ، فقال لها : يا أُمَّه ! وهبَ لى يحيَى « غُ » قالت : وما « غُ » ؟ قالَ « لا » قالت : وما « لا » ؟ قالَ : « مْ »[3] وطَبَقَ الميمَ على شفتيْه ، فضرَطت ، فقال : الحمدُ لله ، لولا تقطيعُ الحروفِ لخريتِ . فحضَرنى إذاً عندَ وُرودِ المالِ ما كتبتُ به :

أتتكَ الخريطةُ والمركَبُ ... كما اقترنَ السَّعدُ والكوكبُ

فقالوا مَنْ الواهِبُ المستقِلُّ ... عقائلَ يَعيا بها الحُسَّبُ

فقلتُ[4] فتَى أصْفَرِىُّ النِّجارِ ... يَرُوعُ به المشْرِقَ المغرِبُ

يُحكِّكُ أسيافَه بالرَّدَى ... كما حُكَّ بالهانىءِ الأجْرَبُ

فلَوْلَا شجاعتُه ما نجا ... ولكنَّه حُوَّلٌ قلّبُ

بَصيرٌ بتوسيعِ سُبْلِ الفرارِ ... إذا ضاقَ بالمُرهَقِ المَهْرَبُ

ومنها :

هَناكَ أبا الجيشِ مَنْ جيشُه ... أُسارَى كأنَّهمُ الرَّبْرَبُ

يَرِقُّ[5] عليها السِّنانُ الحَقودُ ... ويرحمُها الصّارمُ المُغْضَبُ

(١) كذا فى الأصل وهى لغة .
(٢) فى الأصل : « إليها » .
(٣) لا توجد بالأصل والسياق يقتضيها .
(٤) فى الأصل : فقالت .
(٥) فى الأصل : « يروق » .

وهُمْ يخضبُونَ صُدُورَ القَنَا وأنْمُلهم بَضَّةٌ تخْضَبُ
ولَمْ أرَ مِنْ قبْلهمْ فارساً يَليقُ به الحَلْىُ والمُذْهَبُ
فإنْ شِئتَ أن يَركبوا يَركبوا وإنْ شئتَ أنْ يُركبوا يُركبوا

ينظرُ هذا بناظرٍ مُريب ، إلى قولِ حَبيب[1] :

٥ قد جاءنا الرَّشأُ الذى أهديتَه خِرْقاً ولو شئْنا لقُلنْا المركبُ

ومن أناشيد الثّعالبىّ فى معناه :

ونساء لمطمئِنٍّ مُقيمٍ ورِجالٌ إنْ كانتْ الأسْفارُ

|٣٣

وقولُه « يرقّ[2] عليها السّنان » البيت ... كقولِ بعضِ أهلِ العَصر .

لعلّكَ يوماً ذاكرى فى مُلمَّةٍ يلين بها قلْبُ الأسيرِ على القِدِّ

١٠ وأرَاهُ قلبَ قول أبى الطَّيب :

وغَيْظٍ عَلَى الأيّام كالنّار فى الحَشَى ولكنّهُ غيظُ الأسيرِ على القِدِّ

وأرَى أبا الطَّيبِ ألمَّ بعضَ الإلمام ، بقول أبى تمام :

يَلحَظُه فى جِدِّه وهزلِهِ لحظَ[3] الأسيرِ حلقاتِ كَبْلِهِ

جُملةُ أخبارٍ نَوادِر ، جرتْ لهُ معَ المنصورِ بنِ أبى عامر :

١٥ اجتمعَ[4] عِنْد المنصورِ ابنِ أبى عامرٍ أعيانُ الأوان كالزّبيدىّ والعاصمىّ وابنِ العَريفِ ومَنْ سِواهم ؛ فقالَ لهم المنصورُ : هذا الرّجلُ الوافِدُ علينا صاعدٌ

(١) راجع ديوانه ص ٤١ .
(٢) فى الأصل : « يروق » .
(٣) فى الأصل : « لحظة » .
(٤) راجع الخبر فى مو ج ٢ ص ٥٣ .

يزعُمُ أنّه متقدِّمٌ فى هذه الآدابِ التى أنتم سُرُجها الضّاحية ، وأهِلّتُها السّارية .
وأحبَّ أن يُمتحَنَ ما عِنْده . فوجَّه إليه ، ودخَل والمجلسُ قد احتفلَ فخجِل ،
فرفعَ المنصورُ مجلِسَهُ وآنسه ، وسأَلهُ عن أبى سعيدٍ السّيرافى ، فزعمَ أنّه لقِيَه
وقرأ عليه كتابَ سيبويه . فبادرَه العاصِمىُّ بالسّؤالِ عَنْ مسئلةٍ من الكتاب ،
فلم يحضُرْه فيها من جواب ، واعتذرَ أنَّ النّحوَ ليسَ جُلَّ بضاعته ، ولا رأسَ ٥
صناعتِه . فقالَ له الزُّبيدى : فما تُحسِنُ أيُّها الشّيخ ؟ قال : حِفظَ الغريب .
قال : فما وزن أوْلَق ؟ فضحِك صاعدٌ وقال : أمِثلى يُسأَلُ عَنْ هـذا ؟ إنّما
يُسأَلُ عنه صِبيانُ المكتب . قال الزُّبيدى : فقدْ سألناكَ ، ولا نَشُكُّ أنّك
تجهَلُه . فتغيَّر لونُه وقال : « أفْعَـل » . قال الزُّبيدى : صاحِبُكم مُمخرِق ! قال
له صاعد : إخالُ الشّيخَ صِناعتُه الأبنية ؟ قالَ لهُ : أجَل . قال صاعِد : وبضاعتى ١٠
أنا حِفْظُ الأشعار ، وروايةُ الأخبار ، وفَكُّ المُعمَّى ، وعِلمُ الموسيـقى . قال
فناظَرَه ابنُ العَريف فظهرَ عليه صاعِد ، وجعلَ لا يجرِى فى المجلسِ كلمةٌ إلاّ
أنشَـدَ عليها شِعراً شاهِدًا ، أو أتَى بحكايةٍ تُجانِسها ، فازدادَ المنصورُ عَجباً .
ثم أراهُ كتابَ النوادرِ لأبى علىّ فقال : إن أرادَ المنصـورُ أمْليتُ علَى(١)
مُقيِّدى خِدمتِه وكُتّابِ دوْلته كتاباً أرفعَ منهُ قَدْرا ، وأجلَّ خطرا ، أُدخِلُ ١٥
فيهِ خيراً ممّا أدخلَهُ أبو علىّ . فأذِنَ لهُ المنصورُ فى ذلك ، وجلسَ بجامعِ مَدينةِ
الزّاهرةِ يُمْـلِى كتابَه المترجَمَ بالفُصوص . فلمّا أكمله وتتبَّعه أُدباءُ الوَقت ،
لم تمرَّ فيه كلمةٌ زَعموا صِحَّتها عِندهم ، (٢) ولا خبرٌ ثبتَ لَدَيْهم ، فقالوا للمنصور :
رجلٌ [مقتدر] على تأليف الكذب [ ] من عيون الأدب ، يُسندها

(١) فى الأصل : « مقيداً فى ... » وعلى الهامش بنفس الخط « على » قبل « مقيدا »
وفى مختصر الذخيرة لابن مماتى : « أمليت على مقيدى خدمته » .

(٢ — ٢) بهامش النسخة بنفس الخط . والكلمة الأولى بين القوسين رسمها أشبه بما
أثبتناه . والثانية بياض بالأصل .

إلى شيوخ لم يرهم ولا أخذ عنهم [٢]، حتى إنهم كلفوا المنصور أن يأمر بتصفير [١] كاغدٍ أبيضَ وتغييرِ بهجته ليدلّ على القِدَم ، ففعل : وترجمَ على ظهرِ ذلك السِّفر بكتاب « النكث [٢] » تأليف أبي الغَوْث الصَّنعاني . فترامى إليه صاعدٌ حين رآه ، وجعل يُقلّبُه ، وقال : إنّي والله قرأته بالبلدِ الفُلانيّ على الشّيخ أبي فُلان ، وهذا خطُّه . فأخذَهُ المنصورُ مِنْ يدِه خوفاً أن يَفتحَه ، وقالَ له : إنْ كنتَ رأيتَه كما تزعُم فعلامَ يحتوي ؟ قال : ورأسِكَ لقد بعُدَ عهدي به ولا أنصُّ منه شيئاً ، ولكنّه يحتوي على لُغةٍ منثورةٍ لا يشوبُها شعرٌ ولا خَبر . فقالَ له المنصور : أبعَدَ اللهُ مِثلَكَ ! فما رأيتُ الذي هو أكذبُ مِنك . وأمرَ بإخراجه وأن يُقذَف بكتابِ الفُصوصِ في النَّهر ، وفي ذلك يقولُ بعضُ شعراءِ العَصر :

قد غاصَ في البحرِ كتابُ الفُصوصْ ... وهكذا [٣] كلُّ ثقيلٍ يَغوصْ

فجاوَبه صاعدٌ بقوله :

عادَ إلى مَعْدِنه إنّما ... تُوجَدُ في قَعرِ البحارِ الفُصوصْ

قالَ ابنُ بسّام : وما أحسَبُ أنَّ أحداً يجترئُ على إخراجِ تَصنيف ، وإبداء تأليف ، يَضيقُ عنهُ التَّعديل ، ويَدْفع في صدرِه النَّقدُ والتَّحصيل ، لا سيّما وصاعدٌ عِلمَ أنَّ قُرطبةَ — حَسْبَ ما ذكَرْنا — ميدانُ جِياد ، وبلدُ جِدالٍ وجِلاد ؛ ولكنَّه اشترطَ غيرَ المشْهور ، فلمْ يظفَروا مِنه بكَبير ، وأعانهُم هو على نفسِه بما كان يتنفّقُ بهِ مِنْ تنحُّلِه وكَذِبه . ولم يكنْ عندَ ابنِ أبي عامرٍ تحرير ولا بصَرٌ بالنَّقدِ مَشْهور ؛ وإلاَّ فليسَ يخلو كتابُ الفَصوصِ المذكورُ من غَريبةٍ مسموعة ، ولا مِنْ فائدةٍ رائقةٍ بديعة ، ولكنّه خَبرٌ وجَدْناه فنقلْناه .

(١) في الأصل « بتسفير » . (٢) كذا بالأصل ولعلها « النكت » .

(٣) في الأصل : « كذا » والتصحيح عن مختصر الذخيرة لابن مماتي لوحة ٩٤

وأُدخِلَ عَلَى المنصورِ يوماً وَرْدَةٌ فى غيرِ أيَّامِها ، لم تستَتِمَّ فتحَ كِمامِها ، فقالَ فيها صاعدٌ على الارتجال :

أتتْكَ أبا عامِرٍ وردَةٌ يُذكِّرُكَ المسكُ أنفاسَها
كعَذْراءَ أبصرَها مُبصِرٌ فغطَّتْ بأكمامِها راسَها

٥ فسُرَّ بذلكَ المنصور . وكانَ ابنُ العَريفِ حاضِرًا ، فحسَدَه ، وجرَى إلى مُناقَضَتِه ، وقالَ لابن أبى عامِرٍ : إنَّ هٰذينِ البَيْتين لغيرِه ، وقد أنْشَدَنيهما بعضُ البَغْداديّين بمصر لنفسِه ، وهُما عِندى على ظَهرِ كِتابٍ بخطِّه . فقالَ لهُ المنصور : أرِنيه . فخرَجَ ابن العَريفِ ورَكِب وجعل يَحُثُّ ، حتَّى أتى مجلِسَ ابنِ بدْر ، وكانَ أحْسَنَ أهلِ وَقتِه بديهةً ، فوصَفَ له ما جرَى فقال : ٣٤|

١٠ عشوتُ إلى قَصْرِ عَبَّاسَةٍ وقد جَدَّلَ النَّومُ حُرَّاسَها
فألفيتُها وهىَ فى خِدْرِها وقد صرَّعَ السُّكرُ أُناسَها
فقالتْ : أسارٍ عَلَى هَجْعَةٍ ؟ فقلتُ : بلَى ، فرمَتْ كاسَها
ومدَّتْ يديْهَا إلَى وَرْدَةٍ يُحاكِى لكَ الطِّيبُ أنفاسَها
كعَذْرَاءَ أبصرَها مُبْصِرٌ فغطَّتْ بأكمامِها راسَها
١٥ وقالت : خفِ اللهَ لا تفضَحَنّْ م فى ابنةِ عمِّكَ عبَّاسَها
فولَّيْتُ عنها عَلَى عِفَّةٍ وما خُنْتُ ناسى ولا ناسَها

فطارَ[١] ابن العَريفِ بها ، وعلَّقَها عَلَى ظهرِ كتابٍ بخطٍّ مِصْرِىّ ، وورَّى وتحيَّلَ بمداد أشْقَر . ودَخَلَ بها على المنصور ، فلمَّا رآها اشتدَّ غيظاً عَلَى صاعِدٍ وقال : غداً أمتحِنُه ، فإن فضحَه الامتحان ، لم يبقَ فى مَوْضِع لى فيه سُلطان .
٢٠ فلمَّا أصبحَ وَجَّه عنهُ بمجْلِسٍ حَفَل ، وقد أعَدَّ طبقاً فيه سقائِفُ من ضُرُوبِ

(١) فى الأصل : « فصار » والتصحيح عن م‍ه (ج ٢ ص ٥٥)

النّواوير [و] وضع على السّقائف جوارىَ ياسمين ، وتحت السقائف بركة ماء حَصاها اللّؤلؤ ، وكانَ فى البِركة حيّةٌ تسبَح . فلما دخلَ صاعِدٌ مُثّلَ الطبَقُ بين يديه ؛ فقال لهُ المنصورُ : إنّ هذا يومٌ إمّا أنْ تسعَدَ فيه معَنا ، وإمّا بالضِّد عندَنا ، لأنّه قد زعَم قومٌ أنّ كلّ ما تأتى بهِ دعوَى ، وقد وقفتُ من ذلكَ على حقيقة . وهذا طَبقٌ ما توهّمتُ أنّه مُثِّلَ بين يدَيْ مَلِكٍ قَبْلى فى شَكْله ، فصِفْه بجميع ما فيه . فقالَ صاعِدٌ بديهةً :

أبا عامرٍ هَلْ غيرُ جَدْواكَ واكِفُ وهَلْ غيرُ مَنْ عاداكَ فى الأرضِ خائفُ ؟
يسوقُ إليكَ الدّهرُ كلَّ عجيبةٍ وأعجَبُ ما يلقاهُ عِنْدكَ واصِفُ
وشائعُ نَوْرٍ صاغَها هامِرُ الحَيا عليها فمِنها عَنبَرٌ ورَفارِفُ
ولمّا تناهَى الحُسْنُ فيها تقابلتْ عليها بأنواعِ المَلاهى الوَصائفُ
كمثلِ الظّباء المُستكِنّةِ كُنّسًا تُظلّلها بالياسمينِ السّقائفُ
وأعجَبُ منها أنّهُنّ نَواظِرٌ إلى بِركةٍ ضُمّت إليها الطّرائفُ
حَصاها اللآلى ، سابحٌ فى عُبابِها مِن الرُّقْشِ مَسمومُ اللُّعابَينِ راجِفُ
تَرى ما تَشاءُ العينُ فى جَنَباتِها من الوَحشِ حتّى بينَهُنّ السّلاحِفُ

فاستُغرِبَت لهُ يومئذٍ تلكَ البديهة ، وكتبَها المنصورُ بخطّه . وكان إلى ناحيةٍ سَقيفةٌ فيها جاريةٌ تَجذِفُ بمِجاذفَ ذهبٍ لمْ يرَها صاعِد ، فقال لهُ المنصور : أجدتَ إلاّ أنّكَ لم تصِفْ هذه الجارية ، فقال :

وأعجبُ منها غادةٌ فى سَفينةٍ مُكلَّلةٌ تصبو إليها المهايفُ(١)
إذا راعَها موجٌ من الماء تتّقى بسُكّانِها ما أنذرتهُ العواصِفُ
متَى كانت الحسناءُ رُبّانَ مَركبٍ تُصرِّفُ فى يُمْنَى يديها المجاذِفُ ؟!

(١) كذا بالأصل وفى مصر (ج ٢ ص ٥٦) « المهاتف » وصححها الناشر إلى المهاتف .

لم ترَ عَيْنى فى البـــلادِ حديقةً تُنقِّلُها فى الرَّاحتينِ المَناصِفُ[1]
ولا غَرْوَ أنْ شاقَتْ معاليكَ روضةٌ زَهَتْها أزاهيرُ الرُّبا والزخارفُ
فأنت امرُؤٌ لو رُمتَ نقلَ مُتَالِعٍ ورَضْوَى ذَرَتْها من سُطاكَ العواصِفُ
إذا قلتَ قولاً أو بَدَهْتَ بديهـةً فـكلِّنى لها إنّى لمجـدك واصِفُ

فأمر له المنصورُ بألفِ دينارٍ ومائةِ ثوبٍ ، ما بين غلائلَ وطيقانٍ وعمائم ، ٥
وأجرَى عليه المَراتِبَ من ذلكَ اليومِ ثلاثين دينارًا ، وأُلحِق فى ديوانِ النُّدماء
معَ زيادةِ اللهِ بن مُضَرَ الطبْنِى وابنِ العَريفِ وابنِ التيّانى وغيرِهم . والحسَـدُ
مَوْرُوث ، وقديمٌ لاحَديث ، وليسَ فى الحيوان ، أَخبَثُ فى ذاتِه من الإنسان .

وأذكر بِفَعْلة ابنِ العريفِ فى صاعدٍ بعضَ ما مُنِيتُ أنا به فى خبرِ هـذا
التّصنيف معَ غيرِ واحدٍ من أَهْلِ وَقْتى ، إذْ سَرَدتُ فى بعضِ قَصَصه كلامَ ابنِ ١٠
حيّانِهم ، وكانَ عَلَى ما تقدَّم وصفُه متكلِّمَ أوانهم ، فلمّا أعْوَزنى لفظُه فى بعضِ
ما سُقْت ، ولم أجِدْهُ فى كلِّ حَديثٍ نَسَقت ، رجَعْتُ إلَى نَحيزَتى ، واستمطرتُ
غريزَتى ، وماؤُها جامِد ، ورَمادُها هامِد كما قالَ سابق :

أخلقَتْ جِدَّتِى وبانَ شَبابى واستَراحَتْ عواذلى من عِتابى

وأنا يومئذ بأشبيلية ، أتصرَّفُ مضطرًّا فى بعضِ الأعمالِ السُّلطانيـة . ١٥
والـكلامُ إذا لم يحُـكْه قلبٌ فارغٌ ، ولم يَسْبِكه لُبٌّ من ظَلْماء الشغلِ بازغ[2] ،
لم يَرُقْ تطريزُه ، ولم ينفق إبريزُه . وعلى ذلكَ لمَّا اندرجَتْ لى فيه كلماتٌ
رائقات ، فى أوصافٍ مُختلِفَات ، و بلغتُ فيه أمَدَ المُراد ، بألفاظٍ أَعْيانٍ ومعانٍ
أفْراد ، انثال علىّ فيها الـكلام ، انثيالَ الغَمام ؛ قالوا : نعم ما صَنَّفَ ابنُ بَسَّامٍ
وأتقن ، لو لم يستَعِن ؛ وما أحسنَ ما قَصَص ، لو لَمْ يتلصَّص . ولله درُّهم ! ٢٠

---

(١) فى مو : الوصائف .
(٢) فى الأصل : «فاوغ» .

٣٤م

فالدَّأْماء لا يزيدُ من القَرِىّ ، وذُكاء لا تُضِىء من الدُّرِّىّ ، بل دَرَّ دَرُّ أبى الطَّيبِ من شاعرٍ نطَقَ بالبَدِىّ ، وجرَى على عِتْق جدِّه الكِندىّ فسبَقَ ، واستولَى على الأمَد بقولِه إذْ صَدَق :

أتيتُ بمنطِقِ العَرَبِ الأصيلِ   وكانَ بقَدْرِ ما أحسستُ قِيلى [(١)]

فعارَضَه كلامٌ كانَ منه   بمنزلَةِ النِّساءِ من البُعُولِ

وليسَ يَصِحُّ فى الأوهامِ [(٢)] شىءٌ   إذا احتاجَ النَّهارُ إلى دليلِ

رجع . وخرجَ المنصورُ معَ صاعدٍ يوماً إلى رياضِ الزَّاهرة ، فمدَّ يدَه إلىَ شىء من التُّرُنْجانِ فعبِثَ به [(٣)] ورماهُ إليه مُعرِّضًا أن يصِفه فقال :

لم أدرِ قبلَ تُرُنجانٍ عبِثْتَ بهِ   أنَّ الزُّمرُّدَ قُضبانٌ وأوراقُ

مِنْ طيبِه سَرقَ الأُترجُّ نكهتَه   ياقومُ حتَّى من الأشجارِ سُرَّاقُ !

كأنَّما الحاجبُ المنصورُ علَّمه   فِعلَ الجميلِ فطابَتْ منهُ أخلاقُ

مَنْ ليسَ يُقعِدُه من سُؤددٍ قدَمٌ   ولا تقومُ له فى سَوْأةٍ ساقُ

ولهُ فى الخِيرِىّ :

بعثتُ إليكَ من خِيرِىٍّ دارِى [(٤)]   مُحزَّمةً [(٥)] كأوراقِ العَقيقِ

تُوَكَّلُ بالعزوفِ عن التَّصابى   وتَصْطادُ الخليعَ مِنَ الطَّريقِ

وصاعدٌ القائل :

لىَ من سِرِّ بنى العبَّاسِ خِلٌّ وجليسُ

(١) الديوان ج ٢ ص ٧٥ ، والرواية فيه : « عاينت » .

(٢) رواية الديوان : « الأفهام » . (٣) فى الأصل : « بها » .

(٤) مو ج ٢ ص ٦٧ : « روض » .

(٥) فى الأصل : « محرمة » والتصحيح عن مو

شهِدَ المجـدُ عليهِ أنَّه العِلْقُ النَّفيسُ
فإذا جالسـتَه لمْ تَدْرِ مَنْ مِنَّا الجليسُ

وهذا كقولِ ابن زُرَارة :

لِى صَدِيقٌ ، غلِطتُ ، بلْ لىَ مَوْلَى مَنْ لِمثْلي بأنْ يكونَ صَديقي !
نَلتقى التقاءَ رُوحٍ بروحٍ بضُروبِ التَّقبيـل والتَّعنيقِ ٥
ليس فى الأرضِ مَن يميِّزُ مِنَّا عاشقًا فى اللِّقاء مِنْ مَعشُوقِ

وقال :

قلتُ له والرقيبُ يُعْجِلُه مُودِّعًا للفراقِ : أين أنا ؟
فمدَّ كفًّا إلَى تَرَائبِـه وقال سِرْ وَادِعًا فأنتَ هُنا

وأُنشِـدَ المنصورُ يوماً قصيدةَ أبى نُوَاس « أجارةَ بيتينا أبُوكِ غيورُ » ١٠
فعرَضَ عليهِ أن يُعارِضه . فأبَى صاعِدٌ مِنْ ذلكَ إجلالاً لأبى نُواس ، فعزَمَ عليهِ المنصورُ فأنشدَهُ مُتمثِّلاً[1] :

إنِّى لمسـتحيِ عُلا كَ من ارتجالِ القولِ فيـهِ
مَنْ لَيْسَ يُدْرِكُ بالرَّويـ ـةِ كَيفَ يُدْرِكُ بالبديهِ[2]

فلم ينفعه ذلك عنده ، ومَكثَ فيه بقيَّةَ يومِه وليلتِه ، وجاءه من الغدِ فأنشدَه ١٥
قَصيدتَه التى أوَّلُها :

جِذالَ الثَّرَى إنى بكنَّ بَصِيرُ طوتكنَّ عنى خُلسَـةٌ وفتـيرُ

وباتَتْ كما باتَتْ مَهاةُ خميـلةٍ لها جؤذَرٌ عنـد الصَّرَاةِ عقيرُ
وقد أُكلَتْ أشلاؤه فكأنَّها[3] مُقسَّـمةٌ عند القِداحِ جَزُورُ

(١) فى الأصل : « ممتثلا » . (٢) مو ج ٢ ص ٦٧ .
(٣) فى الأصل : « فكأنه » .

أُتيح لها مثـــلُ الزجاج طَرِيرُ كما بَغَمتْ(١) من شَجوِها أمُّ واحدِ
وفى أبهرَيْهـــا رَنَّةٌ وزَفِيرُ لَدُنْ غُدوَةٍ حتى صغتْ شمسُ يومِها
كأنَّ أســـابىّ الدماء عَتِيرُ تَسوفُ ثَراهُ عن مَشقٍّ إهـــابِهِ

قالَ ابنُ بسَّام : وصاعدٌ على تتابُعه فى الـكذب ، ولجاجه بينَ الامتهانِ
٥ وسُوء الأدَب ، قد أخَذَ بطرَفٍ من الترفيق ، وخلا بجانبٍ من لَقَمِ الطريق ؛
ألا تراه كيف صرَّحَ باليأسِ عن شَقِّ غُبارِ أبى نُوَاس ؟ ولـكنَّ ابنَ أبى عامرٍ
حمَلَه على الغرَر ، وعرَّضه لسُوء الخَبَر ، ولعله ذهبَ إلى قولِ أبى الطيّب(٢) :

أنزتُ بهـا ما بين غربٍ ومشرقِ بلغتُ بسـيفِ الدولةِ النورِ رتبـةً
أراه غُبـارى ثمَّ قالَ له : الحقِ إذا شاء أنْ يَلهو بلحيـةِ أحمقٍ

١٠ وذكرتُ بهذا الخبَرِ ما وُصِفَ عن أبى عبدِ اللهِ بنِ شرَف ، وذلك أنه
قالَ يوماً المأمونِ بنِ ذى النونِ أيامَ خِدْمتِه إياه ، واستشفافِه صُبابةَ عُمرِه
فى ذَراه ، وقد أجرَوْا ذكرَ أبى الطيّب ، فذهبوا فى تأنيبه كلَّ مذهب : إن
رأى المأمونُ — لا فارَقَ العزّةَ والعُلا — أن يُشـيرَ إلى أىِّ قصيدةٍ شاء من
شـعرِ أبى الطيِّبِ حتى أعارضَه بقصيدةٍ تُنسى اسمَه ، وتُعَفِّى رسمَه . فتثاقلَ
١٥ ابنُ ذى النونِ عن جَوابه ، علماً بضيقِ جَنابه ، وإشـفاقاً من فَضيحتِه
وانتشابه . وألحَّ أبو عبدِ اللهِ حتى أحرجَ ابنَ ذى النون وأغراه ؛ فقالَ له :
دُونَكَ قولَه : « لعينيكِ ما يلقى الفؤادُ وما لَقِى » . فخلا بهـا ابنُ شرفٍ أياماً
فوجدَ مركبَها وَعرا ، ومَريرتَها شَزْرا ، ولـكنه أبى عُذرا ، وأرهقَ نفسـه
من أمرِها عُسرا ؛ فما قامَ ولا قعد ، ولا حلَّ ولا عقد . وسُئِل ابنُ ذى النون
بعْدُ : أىُّ شىءٍ أقصدَه إلى تلكَ القصيدة ؟ فقال : لأنَّ أبا الطيّبِ يقولُ فيها :

(١) فى الأصل : نعمت . (٢) الديوان ج ١ ص ٤٦٥ .

« بلغتُ بسيفِ الدولةِ النُّورِ » وأنشدَ البيتين . وهذه غريبةٌ ولو صدرتْ عن أبى العباسِ المأمون ، فضلاً عن[1] مُنتزِع لقبه يحيى بن ذى النون . وقِدْماً كبا الجَموح ، وذهبَت بالباطلِ الرِّيح ؛ ولم يَنْدم مَن بنَا على أُسِّه ، ولا هلكَ مَن عرفَ قدرَ نفسِه .

٥ وقد حُدِّثتُ أيضاً أنَّ أبا عليٍّ ابنَ رَشيقٍ ناجى نفسَه بمُعارضةِ أبى الطيِّبِ فى بعض أشعارِه ، وراطنَ شيطانَه بالدُّخولِ فى مِضمارِه ، فأطالَ الفِكرةَ ، وأعملَ النظرةَ بعدَ النَّظرة ، فاختارَ مِن شعرِه ما لمْ يَطِرْ ذِكرُه ، ولا انحطَّ[2] قَدرُه ؛ فأدَّاهُ جهدُه ، وذهبَ به نقدُه ، إلى مُعارضةِ قولِه : « أَمِنَ ازديارَكِ فى الدُّجَى الرُّقَباءُ » ، فبَثَّ عيونَه ، واستمدَّ مَلائكتَه وشياطينَه ، ولم يدَعْ ١٠ ثَنيَّةً إلاَّ طَلَعها ، ولا خَبيئةً إلاَّ أطلعَها ، ولا زُوِيّةً إلاَّ اتَّسعَ لها فوسَّعَها ؛ ثم صنعَ قصيدةً — فيما بلغنى — رأى أنَّها مادَّةُ طبعِه ، ومُنتهى طاقةِ وُسعِه ؛ ثم حَكَّمَ نقدَه ، ورضِىَ بما عندَه ، فرأى أنْ قد قصُرت يداه ، وقصَّرَ مَداه ، وعلِمَ أنَّ الإحسانَ كنزٌ لا يُوجد بالطلب ، ومَيدانٌ لا يَستولى عليه التعصُّب ، وصانَ نفسَه عن أن يُتحدثَ عنه بأن تكونَ الهِرَّةُ أحزمَ منه .

١٥ وقد ذُكر عن صاعدٍ ، أنه افتُضِحَ فى سَرقةِ شعرِ غيرِ واحدٍ ، من أهلِ تلكَ الآفاق ، من شُعراءِ الشامِ والعِراق ؛ إذ كان وردَ بها وهى بغُبارِ السفَر ، فاشتهرَ بها فى غيرِ ما شعرٍ وخبَر . منها قولُه يصفُ إبريقاً قد مُلِئَ منه كأسٌ وبقيَتْ فى فمِه نقطةٌ لم تَسقط .

وقهوةٍ فى فمِ الإبريقِ صافيةٍ   كدمعِ مفجوعةٍ بالإلف مِعْبارِ
٢٠ كأنَّ إبريقَنا والراحُ فى فَمِه   طَيرٌ تناولَ ياقوتاً بمِنقارِ

(١) فى الأصل : « من » .   (٢) فى الأصل الحظ .

فكانوا يُولَعون بهذا التشبيه ، وكانَ قالَه — زعمَ — على البَديه ، وإنما نقل لفظَ أبى البَركاتِ العَلوىّ ممّا أنشده الثعالبى[١] :

كأنّما إبريقُنا طائرٌ يحمِلُ ياقوتاً بمنقارِ

أو قولَ أبى الفرج البَبَّغاء من أُرجوزةٍ خاطبَ بها الصابى[٢] :

٥ كأنما الحَبّةُ فى مِنقارِها حَبابةٌ تطفو على عُقارِها

وكانَ صاعدٌ مع ما قدّمتُه من صِفَته بديعَ الجوابِ حاضرَه ، طيّبَ المعاشَرة ، فكِهَ المُجالسة ، مُمتعاً مُحسِناً للسؤال ، حاذقاً فى استخراجِ الأموال . دخلَ على المنصورِ يومَ أُنسٍ وقد تقدَّمَ واتخذَ قَميصاً من رِقاعِ الخَرائطِ التى وَصلتْ إليه فيها صِلاتُه ولبسَه تحتَ ثيابِه ، فلمّا خَلا المجلسُ

١٠ ورأَى فُرصةً لِما أرادَ ، تجرَّدَ و بقِىَ فى القَميصِ المَخيطِ من الخرائط ، فقال له : ما هذا ؟ قال : هذه رِقاعُ صلاتِ مَولانا اتخذتُها شِعاراً ، و بكى ، وأتبعَ ذلك من الشكرِ بما استوفاه . فأُعجِبَ به المنصورُ وقالَ له : عندى مَزيد . وحُكى عنه أنه لم يحضُر بعدَ موتِ المنصورِ مجلسَ أُنسٍ لأحدٍ ممن وَلِىَ بعدَه ، وادّعى وجعاً لِحقَ ساقَه . وكان صاعدٌ كثيراً ما يمدحُ بلادَ المشرقِ بمجلسِ

١٥ المنصور ، ويُباهى بأخبارِها ووصفِ أشربَتِها وأديارِها ، فكتب الوزيرُ أبو مروانَ عبدُ الملكِ بنُ شُهيدٍ إلى المنصورِ فى يومِ قُرٍّ بهذه الأبياتِ[٣] :

أما ترى بردَ يومِنا هذا صيَّرنا للكُمونِ أفذاذا ؟
قد فُطرتْ صحةُ الكُبودِ بهِ حتى لكادَتْ تعودُ أفلاذا
فادعُ بنا للشمولِ مُصطلياً نُغذَّ سيراً إليك إغذاذا

---

(١) اليتيمة ج ٤ ص ٣٠٠ . (٢) اليتيمة ج ١ ص ١٩٠

(٣) مم ج ٢ ص ١٧٦ .

وادعُ المسمّى به وصاحبَه   تَدعُ نبيلا وتدعُ أُستاذا
لو مَعبداً أو غريضَه لحقا   لكان عن ذا وذاك أخّاذا
ولا تُبالى أبا العلاءِ زَها   بخمرِ قُطرُبُّلٍ وكَلواذا
ما دامَ من أرمِلاطَ مَشربُنا   دَعْ[1] دَيْرَ عمّا وطِيزنا باذا

وكان المنصورُ قد عزمَ ذلكَ اليومَ على الانفرادِ بالعيال ، فأمرَ بإحضارِ الأصحاب ، وأَحضرَ الوزيرَ أبا مَروان ، وأخذوا فى شأنِهم ، فمرّ لهم يومٌ من الطيبِ لم يُشهَد ، وألونةٌ من اللهوِ لم تُعهَد ، وطَما الأمرُ وسما حتى تَصايحَ القومُ وتزافَنوا ، ودارَ الدورُ ، ثم انتهى إلى الوزيرِ ابنِ شُهَيد ، وكانَ لا يُطيقُ القيامَ لِنقْرِسٍ كانَ يلازمُه ، فأقامَه الوزيرُ أبو عبدِ اللهِ بنُ عياش ، فارتجلَ الشيخُ أبياتاً جعلَ يقودُ بها ويُنشِد :

هاكَ شَيخٌ قادَهُ عُذْرٌ لكا[2]   قامَ فى رَقصَتِه مُستهلِكا
لم يُطِق يَرقُصُها مُستَثْبِتًا   فانثَنَى يرقُصها مُستمسِكا
عاقَهُ مِن هزها مُعتدِلاً[3]   نِقْرِسٌ أنحَى عليهِ فاتَّكا
طرِبَ اللهوُ وقد حُقَّ لَهُ   طرَباً أرمضَه حتى اشتَكى
مِن وزيرٍ فيهمُ رَقّاصةٍ   قامَ مِنْ طيبٍ يُناغى مَلِكا
أنا لو كنتُ كما تَعرِفُنى   قمتُ إجلالاً على رأسى لكا
قَهقَهَ الإبريقُ منى ضَحِكاً   ورأى رِعْشَةَ رِجلِى فبَكى

وكانَ أيضاً فى أصحابِ ابنِ شُهيدٍ رجلٌ بَغْدادِى يُعرفُ بالـكك[4] له

(١) فى الأصل : « من » والتصحيح عن مو .

(٢) فى الأصل : « له » والتصحيح عن مو ج ٢ ص ١٧٧ .

(٣) فى الأصل : « معتزلا » . وفى مو : « منفردا » .

(٤) هكذا رسم الكلمة فى الأصل ، وفى النفح : « الفكيك » وهو خطأ لأن الفكيك المعروف لم يدرك الوزير ابن شهيد والمنصور .

نَوادِرُ تُضْحِكُ ، فحضرَ معه فى بَعضِ مَجالسِ الأُنسِ ، وقد ألحّ عليه وَجَعُ النِّقرسِ فجعلَ يُصَلِّى الصَّلواتِ كلما حانَت واحِدةً بعد أُخرى جالسًا ، وكانَ عِنْدَه ذلكَ اليومَ أحدُ أصحابِ المنصورِ ممن يعزُّ عليه ويكرُم لَدَيه ، فلما حَمِىَ الوَطِيس ، وأنسَ الجَليس ، وطابَ المجلس ، ودارَت الأكؤس ، ونُسِيَت أوجاعُ النِقرس ، وقامَ ذلكَ الصاحبُ الجَليسُ يَرقُص ، ودارَ الدَّورُ حتى انتَهى إلى ابن شُهيد ، فقامَ يَرقصُ معتمِدًا على عادَتِه ، فقالَ له البَغدادِىّ : لله دَرُّكَ يا وَزير ! تُصلِّى بالقاعِدَة وَتَرقصُ بالقائمة ! فطابَ المجلسُ بهذا الكلام ، وتمّ حسنُه أكملَ تمام ، وخلعَ ابنُ شهيدٍ على السكك وانتهى الخبرُ إلى المنصُور ، فذهب بِهِ كلَّ مذهبِ الضَّحْك . وكان ابنُ أبى عامرٍ كثيرًا ما يَرتاحُ إليه ، ويُوالى الإحسانَ عليه ؛ انصرفَ مرّةً من غَزوةٍ تخلّفَ عنها ابن شُهيدٍ لعُذرِهِ ، فكتب إليه من جُملة أبياتٍ :

أنا شَيخٌ والشيخُ يَهوَى الصَّبايا ... فبنفسى أَقيكَ كلَّ الرزايا

ورَسولُ الإلٰه أسهَمَ فى الفَىْ ... ءِ لمن لَم يحثّ فيه المَطايا

فأجابَه ابنُ أبى عامرٍ (١) :

قد بَعثنا بها كشَمسِ النهارِ ... فى ثَلاثٍ من المَها أبكارِ

وامتحنَّا بعُذرَةِ الغيدِ إنْ كُنْ ... تَ تَوخّى بَوادِرَ الأعذارِ

فاتئِدْ واجتَهدْ فإنّكَ شيخٌ ... قد جلا(٢) الليلُ عن بياضِ النهارِ

صانَكَ اللهُ من كَلالِكَ فيها ... فمن العارِ كَلّةُ المِسْمَارِ

(١) النفح ج ١ ص ٢٦١ .

(٢) فى النفح : « قد جلا ليله بياض النهار » .

فافتضّهن الشيخُ مِن ليلته ، وكتبَ إليه بُكرةَ :

قد فَضَضْنا خِتامَ ذاكَ الصُّوارِ[1] واصطَبَغنا مِنَ النجيعِ الجارى

وصَبونا فى ظلِّ أطيبِ عيشٍ ولَعِبنـا بالدُّرِّ أو بالدَّرارى

وقضى الشيخُ ما قضى بحُسامٍ ذى مَضاء عَضْبِ الظُّبـا بتّارِ

فاصطنِعْهُ فليسَ يجزيكَ كُفرًا واتَّخِذْهُ مَحلاً على الكفّار ٥

وأهدَى له ابنُ أبى عامرٍ مِحفَّةَ خيزُرانٍ إذ نُقرِسَ ، فقال :

للهِ نفسُكَ فهىَ أزكى الأنفسِ عقدتْ عُلاها بالجوارى الكُنَّسِ

عُنيتْ بحالى كلِّها حتّى لقـد عُنيَتْ مكارمُها بعـلّةِ نِقرسِ

فتخيَّرتْ لى إذْ شكتْ قدمى الوَنَى عُليا مَطيّةِ رِحلةٍ لم تحبسِ

لا فى العِتاقِ ولا الشَّواحِجِ تَنتَمى نَسَباً ولا هى بالأمونِ[2] العِرْمِسِ ١٠

إن أُهمِلتْ لَمْ تَنبعِثْ أو أُجهِدتْ لم تعتذِر أو أُحرِجَت لم تَشْمُسِ

محبوكةٌ من خيزُرانٍ مائسٍ لَدنٍ مهـزَّتُه كريمِ المَغرِسِ

ويَحُفُّنى[3] فيهـا إذا استمطيتُها بيضُ الوجوهِ هِباتُ أروعَ أشوسِ

ودَخلَ صاعدٌ يومًا على المنصورِ فلما وصلَ إليه ، وجدَ عودًا بينَ يديه ، فقالَ له المنصـورُ : قد تواترَ الخبرُ ، وتحدَّثَ عنكَ البَشر ، أنَّكَ فردٌ فى عِلمِ ١٥ المُوسيقى . وقد أردتُ غيرَ مرةٍ الانبساطَ معكَ سِرًّا فى ذلك ، فشقَّ الأمرُ على صاعدٍ هُنالك ، ولم يَجدْ من مَحيدٍ عن أخذِ العُود ، فتناوَله وجسَّ أوتارَه وسوَّى تَسويةً أطرَبَتَ ابنَ أبى عامر ، ثم اندفعَ يُنشِدُه بَيتَى مجنونِ بنى عامر :

---

(١) فى الأصل : « السوار » . (٢) فى الأصل : « بالأمور العرس » .

(٣) فى الأصل : « ويحفى » .

أبى القلبُ إلاّ حبَّهـا عامرِيّةً لها كُنيةٌ عمرو وليسَ لها عمرُو
تكادُ يدى تَندَى إذا ما لَمستُها ويَنبتُ فى أطرافِها(١) الوَرقُ الخُضرُ

فغضِب ابنُ أبى عامرٍ وتَسوَّر، لتوهُّمِه أنه عرّضَ بخَبر، وقال له : يا أبا العلاء، أبالإخْوةَ عرَّضتَ أم بالأبناء ؟. وهذه إشارةُ رئيسٍ أَنِفَ من أن يجاوبَه، على
٥ مَغزى ما خاطبَه، فأخرج الجواب على التذكير، هِمّةَ إمامٍ غيور. وذكرتُ بهذا الحديثِ ما ذكره بعضُ الرواةِ عن المُعتصِم أنّه قالَ يوماً للقاضى ابنِ أبى دُؤاد : أتعلمُ أنّ أبا دُلَفٍ من المغنِّين الأفراد وإن كانَ من الشجعانِ الأنجاد ؟ قال القاضى : فكيفَ بسماعِه ؟ فأحضرَه المعتصِمَ، وخَبأ ابنَ أبى دُؤاد، وعزمَ عليه فى الغِناء. فلما اندفعَ يُغنِّى هُتِكت السِّتارةُ، فخَجِلَ
١٠ أبو دُلف وقال : أجبَرونى أعزَّ اللهُ القاضى. قالَ له ابنُ أبى دؤاد : يا ماجِنُ، هَبْهم أجبروكَ على أن تُغنِّى فمَن أجبرَكَ على الإحسان ؟ فقال أبو دُلف : ويُريبُنى منك أيُّها القاضى مَعرفتُك بمحاسنِ الألحانِ وتآلُفِ الأوزان !!

وكانَ صاعدٌ [كثيرا] ما تُستغرَبُ له الألفاظُ ويُسألُ عنها فيُجيبُ عن ذلك أسرعَ جوابٍ، على نحوِ ما يُحكى عن أبى عمرو الزاهد. ولولا أنَّه كانَ
١٥ | ٣٧ كثيرَ المزاحِ لما حُملَ إلاّ على الصِدق. دَخَل يوماً على المنصورِ وبيدِه كِتابٌ وردَ عليه من عاملٍ له اسمُه مَيدمانُ بنُ يَزيد من أهلِ يابُرَة، يذكرُ فيه القَلبَ والتربيلَ(٢) وما عندَهم من مُعاناةِ الأرضِ قبلَ زرعِها، فقالَ له : يا أبا العَلاء، وقعَ إلىّ من الكُتبِ كتابُ القَوالِبِ والزَّوالِب لميدمانَ بنِ يَزيد. قالَ : نعم رَأيتُه فى نُسخةِ أبى بكرِ بنِ دُرَيد(٣) بخطّ

(١) فى الأصل : « أوراقها ».
(٢) راجع تكملة المعجمات لدوزى مادة « ربل ». والكلمة غير واضحة تماما بالأصل
(٣) رسم الكلمة فى الأصل : « ديرد ».

كأَكرُعِ النَّملِ ، فى جوانبها علاماتُ الوُضَّاع . فقالَ له : أما تستحى من هذا الـكذبِ !! هذا كتابُ عاملِنا ببلدِ يابُرةَ — يُعلِمُ بالذى تقدَّمَ ذِكرُه من صِفةِ الأرض — وإنما صنعتُ هذا تَجْربةً لك . فجعلَ يَحلِفُ أنَّه ما كذَبَ وأنه أمرٌ وَافَق . وقالَ له المنصور يومًا : ما الخنبشار فى اللغـة ؟ قالَ حَشيشةٌ يُعقَدُ بها اللبنُ ببادِيةِ الأعراب ، وفى ذلك يَقولُ شاعرهم : ٥

لقد عُقِدَتْ محبتُهـــا بقلبى كما عُقِدَ الحليبُ بخنبشارِ

وقالَ له مرّةً وقد قُدِّمَ طبقٌ فيه تمر : ما التَّمركُلُ فى كلامِ العرب ؟ [فقال] : يُقالُ تمركَلَ الرجلُ تمركُلًا[1] إذا التفَّ فى كِسائه .

وكانَ مع ذلك عالمًا . حدَّث العاصِمىُّ النحوىُّ قالَ : لما سألناه مرارًا عن مَسائلَ من النحوِ غامِضةٍ بحَضرةِ المنصورِ فقصَّرَ فيها ، قالَ ابنُ أبى عامرٍ : فإنه من طبقتى فى النّحو أنا أُناظره . ثمَّ سألنـا صاعدٌ يوما فقالَ : ما مَعْنَى قولِ امرئ القيس : ١٠

كأنَّ دِماءَ الهادِياتِ بنَحرِه عُصارةُ حِنَّاء بشَيبٍ مُرَجَّلِ

فقلنا هذا وَاضِح ، وإنما وصفَ فرَسا أشهبَ عُقِرت عليه الوحشُ فتطايرَ دَمُها إلى صـدرِه فجاء هكذا . فقالَ صاعدٌ : سبحانَ اللهِ ! أَنَسِيتم قولَه قبلَ هذا فى صِفته : ١٥

كُمَيتٌ يَزِلُّ اللِّبْدُ عن حَالِ مَتْنِه كما زَلَّتِ الصَّـــفْواء بالمتَنزَّلِ

قال فبُهِتْنا وكأنا لم نَقرأ البَيْتَ قط . وقد اضطرِرنا إلى سُؤالِه ، فقال : إنما عَنَى أحدَ وَجهين : إمّا أنه نضَحَ صـدرُه بالعَرَق وعرقُ الخيلِ أبيضُ ، فجاء مع الدمِ كالشَّيبِ ، وإما أشياء كانت العربُ تصنعها وذلك أنهـا كانت تَسِمُ ٢٠

(١) رسم الـكلمة فى الأصل : تمرا كلا .

بِاللبنِ الحارِّ فى صَدرِ الخَيْلِ فيتَمَعَّطُ ذلك الشعرُ ، ويَنبتُ كأنّه شعرٌ أبيض ، فأيًّا ما عَنَى من أحدِ الوَجهين فالوصفُ مُستقيم . وكانَ لابن أبى عامرٍ فتى يُسَمَّى فاتنًا أوحدُ لا نَظيرَ له فى علمِ كلامِ العَرَب ، وكلِّ ما يتعلقُ بالأدَب ، فناظرَ صاعدًا بين يدَيه ، فظهَرَ عليه ، وبكّته حتى أسكتَه ، فازدادَ المنصورُ به عُجْبا . وكان فاتنٌ حسَنَ الخطِّ ، واسعَ المعرِفَة ، فَصيحَ اللسانِ ، حاضِرَ الجواب إلى عَفافِ طُعْمَةٍ ، ونزَاهَةِ نَفْس ، وجمالِ صُورة . وكانَ ممن تُباهى الملوكُ بخِدمته ، وتستريحُ إلى حِلمه . وتُوفِّى هذا الفتى فاتنٌ سنة اثنتينِ وأربعمائة ، وبِيعت فى تَرِكته قِطعةُ دفاترَ أدبيَّةٍ حَسنةِ الضبطِ دلَّت على جَوْدَةِ عِنايته . وكانَ مُنْقاداً لما نزلَ به من المُثْلَة ، فلم يتَّخذ النساء ولا كَشَفْنَ له عَوْرَة . وكانَ فى ذلك الزمانِ بقرطبةَ جُملةٌ من الفِتيَان المجابيب ، ممن أخذَ من الأدبِ بأوفرِ نَصيب . ورأيتُ تأليفاً لرجلٍ منهم يُدْعَى بحبيب مُترجَماً بـ « كتاب الاستظهار والمُغالبة على مَن أنكرَ فضائلَ الصقالبة » وذكرَ فيه جُملةً من أشعارِهم ونَوادرِ أخبارِهم . منهم عمارة الصَّقْلبى الفتى الكبير ، والصِّقلى مَيسور ، ونَجمٌ الوَصيف ، وغيرُهم ممن يشتمِلُ عليه ذلك التَصنيف ، وشعرُهم خارجٌ من شَرطِنا ، وليس مِن جَمعِنا .

ومن عجائبِ الدنيا الغريبةِ الوُقوع ، العَجيبةِ المَسموع ، أن صاعدًا أهدى إلى المنصورِ يوما إيَّلا وكتبَ معه بأبياتٍ يقولُ فيها :

يا حِرزَ كلِّ مُخَوّفٍ وأمانَ كلِّ ... مُشرَّدٍ ومُعِزَّ كلِّ مُذَلَّلِ

عَبْدٌ جذَبْتَ بِضَبْعِهِ ورفَعتَ مِنْ ... مِقدارِه أهدَى إليك بأيِّلِ

سَمَّيْتُه غرسيَّةً وبعثتُهُ ... فى حَبْلِهِ لِيُتاحَ فيه تفاؤلى

فقضى فى سابقِ علمِ اللهِ تعالى وقدَرِه أنّ غرسية بن شانْجُه(١) مِنْ مُلوكِ الرُّوم ، وهو أمنعُ من النّجوم ، أُسر فى ذلك اليوم بعَيْنه الذى بعث فيه صاعدٌ بالإيَّلِ وسمّاه غَرسية على التفاؤلِ بأسرِه . وكانَ أسرُه فى ربيعِ الأوّلِ سنة خمسٍ وثمانينَ وثلاثمائة . وهكذا يكونُ الجَدُّ للصاحبِ والمصحوب .

٥ ودخلَ يوماً صاعدٌ على المنصورِ فى يومٍ مَطير ، وعليه ثِيابٌ جُدُدٌ وخُفٌّ طَرِيٌّ فمشَى على حاشِـيَةِ الصِّهْرِيجِ لازدحامٍ من حضرَ فزَلِق وسقطَ فى الماء ، فضَحِكَ المنصورُ وأمر بإخراجِه ، وكاد البردُ يأتى عليه . فلما نظر إليه أمر بخِلَعِ ثِيابٍ له ، وأدنى مَجلسَه ، ثم قالَ له : يا أبا العلاء هل قلتَ فى سَقْطَتِك شيئاً ؟ فأطرق ثم قال : ٣٨

١٠ شيئانِ كانا فى الزّمانِ غريبـةً ضرطُ ابنِ وَهْبٍ ثم زَلْقةُ صاعدِ

فاستبرَدَ ما أتى به . وكانَ الـكاتبُ أبو مروانَ الجَزيرىُّ حاضِراً ، فقالَ له يا أبا العلاء هَلّا قلتَ :

سُرورى بغُرّتِك المُشرقَهْ وديمةِ راحتِـك المُغدقَهْ
ثنانىَ نَشْوانَ حتّى هَوَيْـ ـتُ فى لُجّةِ البِرْكةِ المُطْبِقَهْ
١٥ لئن ظلّ عبدُك فيها الغريقَ فجودُكَ من قبلِ ذا أغْرَقَهْ

فقالَ له المنصور : لله دَرُّك يا أبا مروان قِسْـناك بأهلِ العِراقِ ففضَلتَهم ، فبمن نُقاس بَعْد ! فأنهضَ الجَزيرىُّ يومئذٍ للشُّرطة .

وقد فرّق حُذّاقُ النّظّارين بينَ البَديهةِ والارتجالِ ، فجعَلوا الارتجالَ ما كانَ عَلَى طريق الانهمارِ والتدفُّقِ لا يتوقّفُ فيه قائلُه ، كالذى وقعَ للفرزدق إذ أمرَه ٢٠ سُليمانُ بن عبدِ الملكِ بضربِ عُنق أسيرٍ رُومىّ ، ودَسّ إليه بعضُ بنى عَبْس

(١) فى الأصل بنقطتين فوق الهاء .

سَيفاً كهامًا فنبا حينَ ضَرَبَ به ، وضَحِكَ سُليمانُ ، فقالَ الفَرَزْدقُ :

فإنْ يكُ سَيفٌ خانَ أَوْ قَدَرٌ أتى ... لتأخيرِ نَفْسٍ حَيْنُها غيرُ شاهدِ

فسيفُ بَنى عَبْسٍ وقد ضربوا به ... نَبا بيَدَىْ وَرقاء[1] عن رَأسِ خالدِ

كذاكَ سُيوفُ الهندِ تنبو ظُبَاتُها ... ويَقطعن أحياناً مَناطَ القلائدِ

٥ ولو شِئتُ قَطَّ السيفُ ما بين أنفِه ... إلى عَلَقٍ دونَ الشرا سيفِ جَاسِدِ

ثم جلسَ وهو يقول :

ولا نَقتلُ الأسرى ولكن نَفُكُّهم ... إذا أثقلَ الأعناقَ حَمْلُ المغارمِ

ومن غريب البَديهةِ خبرُ حَبيب ، مع الكِنْدى يَعقوبَ ، وقد أنشدَ أحمدَ ابنَ المعتصم[2] قولَه :

١٠ إقدامُ عمرٍو فى سماحةِ خالدٍ ... فى حِلْمِ أحنفَ فى ذَكاءِ إياسِ

فقال له الكندى : ما صنعتَ شيئاً فإنَّ الأميرَ أفضلُ ممن ذكرت ، وما هؤلاءِ وقدرُهم ؟ فأطرقَ ثم قالَ :

لا تُنكروا ضَرْبى له مَن دُونَه ... مَثَلًا شَرُودًا فى النَّدَى والباسِ

فاللهُ قد ضربَ الأقلَّ لنُورِه ... مَثَلًا من المِشكاةِ والنِّبْراسِ

١٥ فتُعُجِّبَ مِن بَديهتِه يومئذٍ لأنه كانَ رَجُلًا مُصَنِّعا لا يجبُ أن يكونَ هذا فى طبعِه . وقد قيل إنَّ الكندى لما خَرَج حَبيبٌ قال : أرى هذا الفتى يموتُ شابًّا لأنَّ ذَكاءَهُ يَنحِتُ عُمرَه كما يأكلُ السيفُ الصقيلُ غِمْدَه . فكان ذلك كذلك، ماتَ وقد نيَّف على الثلاثين . وكانَ أبو الطيب كثيرَ البَديهة إلا أنَّ شِعْرَه نازلٌ فيه . وأهلُ الشعرِ فى ذلك فى سَعةٍ من العُذر ، إذ هو

(١) فى الأصل : ورقاعلى والتصحيح عن طبقات ابن سلام (طبع مصر ص ١٤١) .
(٢) فى الأصل : المأمون . وهو خطأ .

كما قال ابن الرومى[١] :

نارُ الرَّوِيَّةِ نارٌ جِدُّ مُنْضِجَةٍ ... وللبَــديهةِ نارٌ ذاتُ تَلويحِ

وقد يُفضِّلها قومٌ لسُرعَتِها ... لـكنَّها سُرعةٌ تمضِى معَ الرِّيحِ

وقال ابنُ المعتز[٢] :

والقولُ بعـدَ الفـكرِ يُؤْمَنُ زَيغُه ... شَـتَّانَ بينَ رَوِيَّةٍ وبَديهِ ٥

ومن الشعراء مَن شعرُه فيهما وعنـدَ الأَمْنِ والخوفِ سَواء ، بمقدارِ قُدْرَةِ كلِّ أحدٍ ، وسُـكونِ جأشِهِ ، وقوةِ غريزتِه ، كَهُدْبَةَ بنِ الخَشْرَم ، وطَرَفَةَ بنِ العَبْد ، ومُرَّةَ بنِ مَحْكانَ السَّعْدِىِّ ، إذْ يَقولُ وقد أمرَ مُصْعَبُ بنُ الزُّبير بقتله :

بَنى أَسَـدٍ إنْ تقتلونى تُحارِبُوا ... تَميمًا إذا الحَربُ العَوانُ اشْمَعَلَّتِ[٣] ١٠

ولستُ وإنْ كانَتْ إلَىَّ حَبيبَـةً ... بِبَاكٍ على الدُّنيا إذا ما تولَّتِ

وكعَبْدِ يغُوثَ إذ أعْطى فى نَفسِه لبنى تَميمٍ ألفَ ناقةٍ فأَبَوا إلا قتلَه ، وكانوا قد شَدُّوا لسانَهُ خَوفاً من الهِجَاء ، فعاهدهم فأطلقوه لينوحَ على نفسِه ، فقالَ القصيدة التى أوَّلها[٤] :

أقول وقد شدُّوا لسانى بِنسْـعَةٍ ... أمَعشرَ تَيمٍ أطلقوا عن لسانِيا ١٥

فيا راكباً إمَّا عَرَضْتَ فبلِّغَنْ ... نَدامَاىَ مِن نَجْـرانَ ألَّا تَلاقِيا

وتميم بنِ جَميلٍ السَّدُوسِى وكانَ قامَ بشاطىءِ الفُراتِ ، واجتمعَ إليه الأعرابُ وغَلُظَ أمرُه ، فظفُرَ به وحُمِلَ إلى بابِ المُعتصِمُ ، فلما مَثَلَ بين يَديه ، وكانَ وَسيماً

(١) هذان البيتان غير مثبتين فى الديوان (نهرة الشيخ محمد شريف سليم — حرف الحاء) .

(٢) لا يوجد هذا البيت فى ديوانه

(٣) الـكلمة غير واضحة بالأصل والتصحيح عن الكامل للمبرد (ص ١١٣ نهر رايت)

(٤) وردت هذه القصيدة فى النقائض ج ١ ص ١٧٣ (طبع بيفان)

جميلا ، فأحبَّ المعتصم أن يعلمَ أين المنظرُ من المخبَر ، قال له تكلَّمْ ، فقالَ بعدَ أنْ حمِد اللهَ ودعا المعتصم : إنَّ الذنوبَ تُخرسُ الألسنةَ ، وتعمِى الأفئدةَ ، ولقد عظُمت الجريرة ، وانقطعت الحجَّة ، وساء الظنُّ ، ولم يبقَ إلّا العفوُ أو الانتقام ، وأرجو أن يكونَ أقربُهما منى وأسرعُهما إلىَّ أشبهَهما بك ، ٥ وأولاهما بكرَمِك . ثم قال وقد كان قُدِّمَ السيفُ والنطْعُ لقتله :

٣٩

أرى الموتَ بين السيفِ والنِطع كامِناً ... يُلاحِظُنى مِنْ حَيثُما أتلفَّتُ
وأكبرُ ظنى أنكَ اليومَ قاتلِى ... وأىُّ امرئٍ ممَّا قضى اللهُ يُفلِتُ
وأىُّ امرئٍ يُدْلِى بعُذرٍ وحُجَّةٍ ... وسَيفُ المنايا بينَ عَيْنَيْه مُصْلَتُ!
يعِزُّ على الأوسِ بنِ تغلبَ موْقفٌ ... يُهزُّ علَىَّ السيفُ فيه وأسكتُ
١٠ فما حَزَنى أنّى أموتُ وإنَّنى ... لأَعلَمُ أنَّ الموتَ شيءٌ مُوقَّتُ
ولكنَّ خلفى صِبْيةً قدْ ترَكتُهُم ... وأكبادُهم من حسرةٍ تتفتَّتُ
كأنّى أراهُم حين أُنعَى إليهمُ ... وقد خمَشُوا تلك الوجُوهَ وصوَّتوا
فإنْ عِشتُ عاشوا خافِضِين[1] بنعمةٍ ... أذودُ الرَّدى عنهم وإنْ مِتُّ مُوِّتوا
فكم قائلٍ لا أبعَدَ اللهُ دارَه ... وآخرَ جذْلانٍ يُسَرُّ ويَشْمَتُ!

١٥ فعفَى عنه المعتصِمُ ، وأحسنَ إليه ، وقلَّده عملا . وعلىُّ بن الجهْم الذى قالَ ارتجالا وقد صُلِبَ عُريانا :

لم يَنْصِبوا بالشّاذياخِ عَشيَّةَ ال ... إثنينِ مَفْلولاً ولا مجهُولا
نَصبُوا بحمدِ الله مِلْءَ عيونِهم ... حُسْنًا ومِلْءَ قلوبِهم تبجيلا
ما ضرَّه أنْ بُزَّ عنه غِطاؤه ... فالسيفُ أهوَلُ ما يُرى مسْلولا

٢٠ إلى غير ذلك من غرائبِ أهل المشرِق .

---

(١) فى الأصل حافظين .

فأمّا ما جاء فى هذا الباب لأهلِ عصرِنا بهذا الأُفق، فكالذى وَقعَ لأبى عامر بن شُهيد القُرطبى مع لمّةٍ من أصحابه، فإنّه حُكِىَ أنّهم قالوا له: ياأباعامرٍ إنّكَ لآتٍ بالعَجائب، وجاذِبٌ بذوائبِ الغرائب، ولكنّكَ شَديدُ الإعجابِ بما يأتى منك، هازٌّ لعِطفِ الزَّهْوِ عندَ النادِرَة تُتاحُ لك، ولكن نُريدُ أنْ تَصِفَ لنا مَجْلِسَنا هذا. وكانَ الذى طلبُوه منه يومئذٍ زُبدَةَ التعنيت، ومُحَّةَ بَيضِ التَبكِيت، لأنَّ المعنى الجِلْفَ إذا لم يَطِبْ على النفسِ، وتناولَه المُحسِنُ أساءَ فيه، وكانت هيئةُ ذلكَ المجلسِ وصِفَتُه مما يَقتُلُ سَماعُها لبَرْدِه، وهيئتُهُ لا يَتمكّنُ فيها كلامٌ ولا يَتركّبُ عليها مَعنى: بابٌ غَريبٌ مُعرَّضٌ فى المجلسِ، ولِبْدٌ أحمرُ مبسُوطٌ على أرضِه، وصُدورُ أخفافِهم على حاشيتِه. وذكرَ أبوابَه وانضمامَها على أرْجُلِه فقال:

وفتيةٍ كالنُّجوم حُسْناً	كلُّهُمُ شاعرٌ نَبيلُ
مُتَّقِدُ الجانبينِ ماضٍ	كأنَّه الصارِمُ الصَّقيلُ
راموا انصِرافى عَنِ المَعالى	والغَرْبُ مِن دُونِها فليلُ[1]
فاشتدَّ فى إثرِها مِسَحٌّ	كلٌّ كثيرٍ بها قَليلُ
فى مَجْلسٍ شابَهُ التصابى	وطارَدَتْ وَصفَه العُقولُ
كأنّما بابُهُ أسيرٌ	قد عرَضَتْ وَسطَه نُصُولُ
يُرادُ منه المَقالُ قسْرًا	وهو على ذاكَ لا يَقولُ
يَنظرُ من لِبْدِه لدَينا	بحرُ دَمٍ تحْتَه يَسيلُ
كأنَّ أخفافَنا عليه	مَرَاكِبٌ مالَها دَليلُ
ضَلَّتْ فلَمْ تَدْرِ أينَ تجْرِى	فهىَ على شَطِّه تَقِيلُ

(١) فى مه (ج ٢ ص ١٦٥): كليل.

واتفق أن خرج من عندهم فاجتاز بحانوت بعض معارفه من الطرائفيين[١] وبين يديه رامسنة[٢] جميلة فى زنبيل ملآن حرشفا ، فجعل يده فى لجام دابة ابن شهيد وقال له : صف هذا أبا عامر ، فإن صاعدا رام وصف ذلك لابن أبى عامر فلم يأت بشىء غير ذكر الحرشف . فقال ابن شهيد وهو

٥ على ظهر دابته .

هل أبصرت عيناك يا خليلى ... قنافذا تباع فى زنبيل

من حرشف[٣] معتمد جليل ... ذى إبر تنفذ جلد الفيل

كأنها أنياب بنت الغول ... لو نخست فى است امرىء ثقيل

لقفزته نحو أرض النيل ... ليست ترى طى حشا منديل

١١ نقل السخيف المائق الجهول ... وأكل قوم بارحى[٤] العقول

أقسم لا أطعمتها أكيلى[٥] ... ولا طعمتها على شمول

وكان يوما مع جماعة من أهل الأدب ، بمجلس ابن ذكوان ، فجىء بباكور باقلى[٦] ، فقالوا لا ينفرد به[٧] إلا من وصفه ، فقال ابن شهيد :

إن لآليك أحدثت صلفا ... فاتخذت من زمرد صدفا

١٥ تسكن درّاتها[٨] البحور[٩] وذى ... تسكن للحسن روضة أنفا

هامت بلحف الجنان فاتخذت ... من سندس فى جنانها لحفا

(١) كذا فى الأصل. (٢) سبق أن وردت هذه الكلمة بالذخيرة ج ٢ ص ٣٧٠ بالشين

(٣) رسمت الكلمة بالخاء المعجمة فى هذا الموضع ولكنها فى الموضعين السابقين بالحاء المهملة .

(٤) الكلمة غير معجمة فى الأصل فتحتمل أيضا أن تكون « نازحى »

(٥) فى الأصل : أكليل (٦) رسم الكلمة فى الأصل : ناقلى

(٧) فى الأصل : بها (٨) فى مو : ضراتها .

(٩) فى الأصل : البحر .

نثقبها[١] بالثغور مِن لَطَفٍ حَسْبُكَ مِنا فى بِرٍّ مَن لَطُفا
جازَ[٢] ابنُ ذَكْوانَ فى مَكارِمه حُدُودَ كَعبٍ وَما بهِ وُصِفا
قدَّمَ دُرَّ الرِّياضِ مُنْتَخبًا مِنه لأَفْراسِ مَدحِه عَلَفا
أَكلُ ظَريفٍ وطُعمُ ذِى أَدب والفُولُ[٣] يَهواهُ كلُّ مَن ظَرُفا
رَخَّصَ فيه شَيْخٌ له قَدَرٌ فكانَ حَسْبِى مِن المُنَى وَكَفَى ٥

وخَرجَ سَعْدانُ المؤدِّبُ من قُرطبة إلى الحجازِ وَشَيَّعه جماعةٌ ، وكانَ قد |٤٠
باعَ دَارَه لسدِّ جَهازِ طَريقه [ووضَعَه] تحته فى خُرجه ، فقالَ فيه يومئذ مُؤمنُ
ابنُ سَعيد :

قَد بِعتَ دارَكَ فارحَلْ غيرَ مُحتقِبٍ زَادَ التُّقى عَنْ بَنى الدُّنيا إلى سَقَرِ[٤]
لما رَأَيتَ أذى الأمطارِ مُتَّصِلا حَصَّنْتَ دَارَكَ فى خُرجٍ عَنِ المَطرِ ١٠
فلستَ تَخشَى عَلَى حِيطانِها زَلَلا مِن واكِفٍ يَهدِمُ البُنيانَ مُنهمِرِ
زَوَّدْتُكَ اللَّعنَ مَخصُوصاً به أبدًا اِمّا غَدوتَ بلا زادٍ عَلَى سَفرِ
فاغْرُبْ إلى حَيثُ لا ماءٌ وَلا شَجَر كما غَنِيتَ[٥] بلا ماءٍ وَلا شَجرِ

وسايرَ ابنُ عَمّارٍ فى بعضِ الأَسفارِ غُلامَين وَسيمَيْن من بَنى جَهورٍ ،
أحدُهما أشقرُ والآخرُ بِعذارٍ أَخضرَ ، فكانَ يَميلُ بحديثه مِن ظَهرِ دابَّتِه إلى ١٥
الذى وَصفَه منهما حَيثُ قالَ ارتجالا :

تَعلَّقْتُه جَهْوَرِىَّ النِّجارِ حُلْوَ اللَّمَى جَوْهَرِىَّ[٦] الثَّنايا
مِنَ النَّفَرِ البِيضِ جَدْوَى[٧] الزمانِ رِقاقِ الحَوَاشِى كِرامِ السَّجايا

---

(١) رسم الكلمة فى الاصل : بثقبها (٢) فى الاصل : حاز .
(٣) فى الاصل : والقول . (٤) فى الاصل : سفر
(٥) فى الأصل : عميت (٦) فى الاصل : جهورى
(٧) رسم الكلمة فى الأصل : حدوا .

ولا غَرْوَ أن تَغْرُبَ الشارقاتُ وتَبقى محاسِنُها بالعَشـــايا
ولا وَصلَ إلاّ جُمانُ الحَديثِ نُسَاقِطُه من ظُهورِ المطـايا
شَنِئْتُ المثلّثَ للزّعْفـرانِ ومِلْتُ إلى خُضرةٍ فى الثّغايا

قال ابنُ بَسّام : وكان الأستاذُ أبو الوَليدِ بن ضابطٍ قد بَدَأَ عليه بالقراءةِ الوزيرُ أبو محمد بنُ عَبدونَ وهو غُلامٌ ابن ثلاثَ[1] عشرةَ سَنةً ، وكانَ ابنُ ضابطٍ المذكورُ مُتكسِّبا بالشعرِ . فضجِرَ يوماً وقال : « الشِّعْرُ خُطَّةُ خَسفٍ »
فقالَ له ابنُ عَبدون : لِـكلِّ طـالبِ عُرفِ
للشيخِ عَيْبــةُ عَيْبٍ وللفتَى ظـرفُ ظَرْفِ

والبَديه والارتجالُ فى هــذه الأشعارِ الأندلسيّةِ وإن لم تَلحق بالأشعارِ المَشرقيّةِ ، ولا فيها كبيرُ طائلٍ ، ولا تَقربُ ممـا ألصقتُه إليها[2] من أشعارِ الأوائل ، فهى نحوى فى هذا المجموعِ الذى انتحَيْتُ ، وطَلَقى الذى إليه جَريتُ ، ولذلك ما أثبتُّ مُذالَها ومَصونَها ، وكتبتُ غَثَّها وسَمينَها . والأدبُ طريقٌ يسلُـكُها الصّحيحُ والجَرِب ، وسُوقٌ يَنفُقُ فيها الدرُّ والمخَشْلَب .
ولأَخْرُجَ من جدٍّ إلى هَزل[3] ، وأَنتقِلَ من سَهلٍ إلى حَزن ، رَجعتُ إلى ماقطَعتُ من أخبارِ صاعِد ، وما يَتعلّق بها ويذكرُ بسببها من الفَوائد .

إيجازُ الخبَرِ عن أَمرِ غَرْسِيَةَ الذى ذُكر

قالَ ابنُ حَيّان : لما قَفلَ ابنُ أبى عامرٍ سنةَ أربعٍ وثمانينَ عن بلدِ غَرسيةَ صاحبِ قَشتِيلة ، حشَرَ عـدوُّ اللهِ جُموعَه لغَزوِ بلادِ الإسلام ، فاغتمَّ المنصورُ

(١) فى الأصل : من ثلاثة . (٢) فى الأصل . إليه
(٣) السياق يقتضى : إلى جد من هزل .

لذلك . فبينا هو يُحاولُ بعضَ الأمرِ هنالك إذ ورد عليه كتاب قَنْدِ الوزيرِ صاحبِ مدينةِ سالم يذكرُ أنه أسرى فى نُخبةِ أهلِ ثغره إلى بلدِ غرسية فقتل وغنِمَ ، ثم انكمَش قافلاً فتبِعَه غرسية فى قِطعةٍ حسنةٍ من نُخبةِ حُماته ، فثبّتَ اللهُ أقدامَ الإسلامِ ، وأجْلت الحربُ على أسرِ غرسية جريحًا ، وسيقَ إلى مدينةِ سالم ، وأقامَ بيدِ قَنْدٍ يعالجه مِن جُرحه فهلَكَ فى يدِه . وحزّ رأسَه وجعله فى تابوتٍ ، وأنفذَه إلى حَضرةِ قُرطبةَ ، واختُزِنَ جسدُه إلى أن دُفِعَ مع رأسِه إلى وَلدِه شانجُه عند عقدِ السِّلْمِ بعدَ مُدةٍ .

مقتل أبى مروان الجزيرى

وكانَ أبو مَروانَ عبدُ الملكِ الجزيرى أحدَ شعراءِ الأندلسِ المُجيدين وقتَه ، وممن اجتمعَ له بهذا الإقليم نوعَا البلاغةِ فى المنثورِ والمنظومِ . وتقدُّمُ عصرِه منعَنى من ذِكره ؛ وفى خبرِ مقتَلِه طُول ، لكنْ نُلمِعُ منه بلُمعة ، بعدَ أن نقدِّمَ من نَوعَىْ كلامِه قطعة .

فمن ذلك أنّ المنصورَ بنَ أبى عامرٍ صنعَ صَنِيعًا فى ذلك الأوان ، لتطهيرِ ابنِه عبدِ الرحمن . وكانَ عامَ قَحطٍ فارتفعَ السعرُ بقرطبةَ ، و بلغَ رُبعُ الدَّقيق إلى دينارينِ ، فجلا الناس . فلما كانَ يومُ ذلك الصنيعِ ، نشأتْ فى السماء سحابةٌ عمّتْ الأُفقَ ، ثم أتى المطرُ الوابلُ فاستبشرَ الناسُ وسُرَّ ابنُ أبى عامر ، فقال الجزيرى بَديهةً :

أمّا الغمامُ فشاهدٌ لك أنه ... لا شكّ صِنْوكَ بل أخوك الأوثقُ

وافَى الصنيعَ فحينَ تمَّ تمامُه ... فى الصحوِ أنشأ وَدقَه يتدفّقُ

وأظنّه يحكيكَ جُودًا إذ رَأى ... فى اليوم بحرَكَ زاخرًا يتفهّقُ

ومنها[١] :

وتوسّطتها لجـــةٌ فى قعرها ... بنتُ السلاحفِ ما تزالُ تُنقنِقُ
تنسابُ من فكَّى هِزَبْرٍ إن يكنْ ... ثَبْتَ الجَنانِ فإنَّ فاهُ أخرَقُ
صاغوه من ندٍّ وخَلّقَ صفحتى ... هاديه محضُ الدرِّ فهو مُطوّقُ
٥ للياسمينِ تطلُّعٌ فى عَرشِــــه ... مِثلُ المليكِ عراه زهوٌ ، مُطرِقُ
ونضائدٌ من نَرجسٍ وبنفسجٍ ... وجَنِيِّ خِــيرِيٍّ ووَردٍ يَعبَقُ
ترنو بسَجْوٍ[٢] عيونها وتكادُ من ... طرَبٍ إليك بلا لســانٍ تنطِقُ
وعلى يمينِكَ سَوْسَناتٌ أطلعتْ ... زَهرَ الربيعِ فهنّ حُسنًا تُشرِقُ
فكأنّما هى فى اختلافِ رُقومها ... راياتُ نصرِكَ يوم بأسِك تَخفُقُ
١٠ فى مجلسٍ جمعَ السرورَ لأهلِه ... مَلِكٌ إذا جُمعتْ قناه[٣] يُفرِّقُ
حازتْ بدولتِــه المغاربُ عِزةً ... فغدا ليحسُدَها عليــه المشرقُ

وعتَبَ عليه المنصورُ وسجنَه فى مُطبقِ الزاهرةِ ، واستعطفه برسائلَ وأشعارٍ عدّةٍ ، فلم يَسمعْ منه ، ثم صفَحَ بعدُ عنه ، فكتب إليه الجزيرى :

عَجبتُ مِن عَفوِ أبى عامر ... لابدَّ أن تتبعَـــه مِنَّهْ
١٥ كذلك اللهُ إذا ما عَفا ... عَن عبدِه أدخلَه الجنَّهْ

فسُرَّ المنصورُ بذلك ، وصرفَه إلى حاله ، وردَّ عليه ما كانَ اعتقلَ من ماله .

ومن[٤] شعرِه أيضًا ، مما اندرجَ له فى أثناء نثرِه الذى مَلُحَ فيه ، مخاطبتُه على ألسنةِ أسماءِ كرائمِه بزهورِ رياضِه . من ذلك عن بَهارَ العامريّةِ قصيدةٌ أوّلها :

---

(١) راجع النفح (ج ١ ص ٣٤٨) .
(٢) النفح : بسحر .
(٣) فى الأصل قناة
(٤) النفح (ج ١ ص ٣٤٩) .

حَدَقُ الحسانِ تُقِرّ لى وتَغار ... وتَضِلُّ فى صِفَتى النُّهى وتَحارُ
طلعَتْ على قُضْبِ عيونُ كمائمى (١) ... مثلَ العيونِ تحفُّها الأشفارُ
وأخصُّ شىء بى إذا شبَّهتَنى ... دُرٌّ (٢) تَنطَّقَ سِلكَها دِينارُ
أهدَى له قُضُبُ الزُّمُرُدِ ساقَه ... وحَباه أنفسَ عِطرِه العطّارُ
أنا نَرجِسٌ حقًّا بهرتُ عُقولَهم ... ببديعِ تَركيبى فقيلَ بَهارُ ٥

ومِن أُخرى على لسانِ نرجسَ العامريَّة :

حَيَّتكَ يا قمرَ العُلا والمَجلسِ ... أزكى تحيّتِها عيونُ النرجسِ
زُهْرًا تُريكَ بحُسنِها وبلونِها ... زُهْرَ النجومِ الجارياتِ الكُنَّسِ
يملِكنَ أفئدةَ الندامَى كلّما ... دارتْ بمجلِسِهم مَدارَ الأكْوُسِ
مِلْكَ الهمامِ العامرىِّ محمّدٍ ... للمكرُماتِ وللنُّهى والأنفُسِ ١٠

ومن أخرى عن بَنفسَجَ العامريَّة :

إذا تَدافَعت الخصومُ — أيّد اللهُ مَولانا المنصورَ — فى مَذاهِبِها ، وتنافرَتْ فى مَفاخرِها ، فإليه مَفزَعُها ، وهو المَقنَعُ فى فَصلِ القضيَّةِ بينها ، لاستيلائه على المفاخرِ بأَسرِها ، وعلمِهِ بسرِّها وجَهرِها . وقد ذهبَ البَهارُ والنرجِسُ فى وصفِ محاسنِهما ، والفخرِ بمَشابِهِهما كلَّ مَذهبٍ . وما منهما إلاّ ذو فَضيلةٍ ، غيرَ أنَّ فَضلى عليهما أوضحُ من الشمسِ التى تَعلونا ، وأعذبُ من الغَمامِ الذى يَسقينا . ١٥ فإن كانا قد تشبَّها فى شِعرِهما ببعضِ ما فى العالَمِ من جَواهرِ الأرضِ ومَصابيحِ السماء ، وهى من المَواتِ الصّامِت ، فإنِّى أتشبَّهُ بأحسنِ ما زَيَّنَ اللهُ به الإنسانَ وهو الحيوانُ الناطِق . مع أنِّى أعطرُ منهما عِطرا ، وأحمدُ خُبْرا ، وأكرمُ إمتاعًا شاهِدًا وغائبا ، ويانِعاً وذابِلا . وكلاهما لا يُمتِعُ إلاَّ ريثما يَمنع . ثم إذا ذَبَلَ ٢٠

(١) فى الأصل : تمائمى . (٢) لعلها دُرر .

تستكرهُ الأنوفُ شمَّه ، وتستدفعُ الأكفُّ ضمَّه ، وأنا أمتعُ رَطْباً ويابساً ، وتدَّخرُني الملوكُ فى خزائنِها وسائرُ الأطبَّاء ، وأُصرَّفُ فى منافعِ الأعضاء . فإن نخرا باستقلالِهما على ساقٍ هى أقوى من ساق ، فلا غرو إنَّ الوَشى ضعيفٌ ، والهواء لطيفٌ ، والمسكَ خفيفٌ ، « وليسَ المجدُ يُدرَكُ بالصِّراع » .

٥ وقد أودعتُ — أيَّدَ اللهُ مولانا — قَوافىَ الشعرِ من وَصف مشابِهِى ما أودعاه ، وحضرتُ بنفسى لئلا أُغيبَ عن حَضرتِهما ؛ فقديماً فُضِّلَ الحاضرُ وإن كانَ مَفضولا ، ولهذا قالوا ألذُّ الطعامِ ما حَضرَ لوقتِه ، وأشعرُ الناسِ مَن أنت فى شِعرِه ؛ فلمولانا أتمُّ الفَضلِ فى أن يَفصِلَ بحُكمه العدْل . وأقول :

شَهِدَتْ لنُوّارِ البَنفسَجِ ألسُنٌ مِن لَونِه الأحوَى ومِن إيناعِهِ

١٠ لمشَابِهِ الشَّعرِ الأثيثِ أعارَه الـ قمرُ المنيرُ الطلْقُ نورَ شُعاعِهِ

ولربّما جَمَدَ النجيعُ مِن الطُّلَى فى صارمِ المنصورِ يومَ قِراعِهِ

يحكاه غيرَ مُخالفٍ فى لونِهِ لا فى رَوائحِه وطيبِ طِباعِهِ

ملِكٌ جهِلنا قبلَه سُبُلَ الهُدَى حتى وَضَحْنَ بنَهجِه وشِراعِهِ

فى سيفِه قِصَرٌ لطولِ نِجادِه وتَمامِ ساعِدِه وفُسحةِ باعِهِ

١٥ ذو هِمَّةٍ كالبرقِ فى إسراعِه وصَريمةٍ كالحَيْنِ فى إيقاعِهِ

تلقَى الزمانَ له مُطيعًا سامعًا وتَرى الملوكَ الشُّمَّ مِن أتباعِهِ

٤٢ قالَ ابنُ حيَّان : وكانَ عبدُ الملكِ بعدَ أبيه قد فوَّضَ إلى عيسى بن سعيدٍ القطَّاعِ وزيرِه أمرَه ، فصارَ عيسى قيِّمَ الدولة ؛ فحسدَه رجالُ العامريَّة ، وحملوا طرَفَةَ فتى عبدِ الملكِ على مُناوأتِه ؛ فسمَتْ نفسُ طرفةَ لذلكَ لفضلِ هِمَّةٍ كانت

٢٠ له ، وحظِ أدبٍ ميَّزه عن طبقتِه . فاستخلصَ من أعداءِ عيسى لُمَّةً ، منهم عبدُ الملكِ الجَزيرىُّ وأبو العباسِ بنُ ذَكوان ، فزَيَّنَ له التقدُّمَ عليه . وعرَّفه

الجزيرىُّ ما تهيّأ لكافورِ الأسودِ مَولى محمدِ بنِ طُغْجٍ صاحبِ مصرَ من المُلكِ
باسم مولاه تلك المدةَ الطويلة ، وأنَّ محلَّه فوقَ محلِّ ذلك بابيضاضِ النَّفسِ
والجِلد ، واكتمالِ الفضلِ والمعرفة . فأصغَى له طرفةُ وتدبَّرَ برأيه ، وحَمَلَ مولاه
على أن قدَّمَ عبدَ الملكِ الجزيرىَّ إلى خُطَّةِ الوزارة . فعارضَ عيسى فى كلِّ أمرٍ
حتى كادَ يُسقطُه لولا استخذاء[1] عيسى له . ثم اعتلَّ عبدُ الملكِ المظفَّرُ ، فانفردَ ٥
طرفةُ بخدمتِه ، وكثُرَ الإرجافُ به ، فحمَّلَه[2] ابنُ الجزيرىِّ بَغيَه وسُوءَ رأيِه ،
وجسَّره على أن يَضبُطَ الأمرَ لنفسِه باسمِ الطِّفلِ مولاه ، على رسمِ كافورٍ
الذى ذكرناه .

ثم رأى المظفَّرُ أن يُخرِجَ عسكرًا إلى شَرقىِّ الأندلسِ لإنفاقِ ما فيه من
الأطعمةِ ، فهشَّ فتاه طرفةُ لذلك ، وسألَ مولاه أن يُخرِجَ معه عيسى الوزيرَ ١٠
وقد أسرَّ الإيقاعَ به ، فأجابَه مولاه لذلك ؛ فأخذَ فى التجهُّزِ وأسرفَ فيما أتاه ،
ولم يُبقِ من وُجوهِ القوَّادِ وصُنُوفِ العُدَدِ والحَلْيِ وكرائمِ النجائبِ عند مولاه
إلّا ما لا قدْرَ له حتى صار فى أُبَّهةِ الملوك . وأخذ الوزيرَ عيسى فى الخروجِ معه ،
فتثاقلَ له ، وأحسَّ بالشرِّ فى صُحبتِه ، ورَامَ الانفرادَ بالمظفَّرِ فى ذلك ، فلم يُمكنْه
لضَبْطِ طرفةَ بابَ مولاه ؛ فألقَى عيسى بنفسه إلى مُفرِّجٍ صاحبِ مدينةِ الزاهرة ١٥
ثقةِ المظفَّرِ واستغاثه[3] لمحنتِه . فوصَّلَ له رقعةً إلى المظفرِ شرحَ فيها مُرادَ طرفةَ .
عند ذلك [4]أتِيَ من مَأمنِه (٥ واستعفَى الخروجَ معه ، فلم يساعفْهُ مولاه ٥) .

---

(١) رسم الكلمة فى الأصل : استخدام .

(٢) كذا فى الأصل . ولعلها : لحمل له أو لحمله على .

(٣) فى الأصل : استغاثته .

(٤) فى الأصل وأتى .

(٥ — ٥) مقتضى السياق أن المظفر أجاب رجاء عيسى فى التخلف وأن طرفة استعفى من الخروج أيضا فلم يجب رجاؤه ، فلفظ « معه » فى السطر الأخير زائد .

فنفذ لطيَّته ، والعُجْبُ يقودُه والحَيْنُ يسوقُه . وخلا وجهُ المظفَّر لعيسى بعدَه ، وذكرَ له أشياء حَنِقَ بها على طرَفةَ . وتعجَّلَ المظفرُ الخروجَ إلى غزوته إثرَ طرَفة ، فخرجَ معه وزيرُه عيسى ، والجزيريُّ يغالطُه فى القدح فى طرَفةَ ، وفى قلبه من عيسى النارُ المتضرِّمَةُ ، وعيسى أعلمُ الناسِ بنفاقِه ، وأحبُّهم فى سَفكِ ٥ دمِه . فلما صارَ عبدُ الملكِ إلى بعضِ الطريقِ دبَّرَ عيسى على ابنِ الجزيريِّ أن ينصرفَ إلى الحضرةِ ليحصِّلَ قبضَ بقايا الخَراجِ والنفقاتِ ، ولم يحسَّ بما دُبِّرَ عليه وعلى صاحبِه . فلما وصلَ المظفرُ سرقُسطةَ ، وطرَفةُ مرتقبٌ قدومَ مولاه على مَقرُبةٍ منها ، دخلَ فى أُبَّهتِه وتعبئتِه وصارَ إلى قصرِ مولاه مُدلاًّ بمنزلته ، فعُدِلَ به عن مجلسِه ولم تقعْ عينُ المظفرِ عليه ، وقُيِّدَ لوقتِه ، وأُخرِجَ ١٠ إلى الجزائرِ الشرقيَّةِ . فلم يكن بينَ دخولِه سَرقُسطةَ أميرًا وخروجِه عنها أسيرًا إلاَّ ساعة . واتَّخذَ الناسُ حديثَه عَجَبا . ثم أنفذَ المظفَّرُ إلى الحضرةِ بضَمِّ عبدِ الملكِ الجزيريِّ إلى المُطبَقِ بالزَّاهرة . وكتبَ عيسى الوزيرُ إلى مُفرِّجٍ العامرىِّ وإلى عبدِ الملكِ بن مَسلمةَ ، وكانا مِن أعداءِ ابنِ الجزيرى ، وحرَّضهما على إبادتِه ؛ فأُدخلَ عليه فى مُطبقِه قومٌ من السُّودانِ وخنَقوه ، وأُشيعَ موتُه ١٥ وأُخرجَ ميِّتًا بعدَ أيام ، وأُسلمَ إلى أهلِه ولا أثرَ به ، ودُفنَ فى شوال سنة أربعٍ وتسعين . فصُرعَ منه — رحمَه اللهُ — يومئذٍ فارسُ نثرٍ ونِظام ، ومُزِّقَ بقتلِه وشىُ الكلام . وكان يُشبه فى ذكائه وأدبِه مع عَقربيَّةِ الطبعِ وكثرةِ الضرِّ وقلةِ النفعِ ، محمدَ بنَ الزيّات فى ذلك الصُّقع . أخبرنى أبى خلَفُ بنُ حُسين قال : سألتُ الذى تولَّى قتلَ ابنِ الجزيريِّ فى محبسه فجعل يصفُ لى سُهولةَ ما عاناه ٢٠ منه لقضافتِه وضَعفِ أسرِه ، ويقول : ما كانَ الشقىُّ إلا كالفرُّوجِ فى يَدى . دققتُ رقبتَه بركبتى فما زادَ أن نفخَ فى وَجهى . فعجبتُ من جهلِ هذا الأسود .

رجعُ ما انقطع : وكانَ صاعدٌ قد طُولبَ فى أُخرياتِ تلكَ الدولةِ . وانتهتْ به الحال ، إلى أن أُغرِمَ فى خبرٍ طويلٍ مائةَ مِثقال ، فاستغاثَ علىَّ ابنَ وداعةَ أحدَ الفُرسانِ الأبطالِ و نُبهاءِ الدولةِ كانَ فى ذلك الأوان ، وكتبَ إليه رقعةً قالَ فيها .

إنى على وَهَنى ، وما أخذَه الدهرُ منى ، ونَحتَه من قِدْحى ، لأربأُ بالفضلِ أن ينحطَّ إلَّا فى مَصَانه[1] ، ويُحَلَّ رحلُه فى غيرِ مَعَانه[1] ، فلم أُحوِّم على أحدٍ طيرَ رجائى ، ولا رَمَقتُ بأملى إلَّا من نوَّه اللهُ باسمِه ، وناسبَ بين أحواله ، وشابهَ بينَ خِلاله ؛ فسبحانَ من جعلَ سِنانَك عِدْلَ لسانِك ، و بيانَك كُفْءَ طِعانك ، فالألسنُ تتنادمُ على وصفِك ، والقلوبُ تُعاقِرُ خمرةَ حبِّك ، خَبيئةٌ أذاعَها اللهُ منك ، وذخيرةٌ أبرزَها الدهرُ بك . وما زلتُ فى الأيام التى تعرفُها مُنقِّباً عن محاسنِك ، بحّاثاً لآثارِك بالعُدوة وذَوَاتها ، ومقارعتِك الأهوال ، ومُماصَعتِك الأبطال ، عاركا بجبينِك شوكةَ الأسنَّة ، ومُناجياً أطرافَ الأعنَّة ، فأذكرُ بك صَعاليكَ العربِ وذُؤبانَها ، وشُعراء الفرسانِ وغِربانَها[2] ، كعنترةَ وزيدِ الخَيْل ، وأنت يُمْنُ السريّةِ وقرنُ الكتيبة ؛ وغارةَ قومِك من سُليمٍ على فَزارةَ ونَذيرُها يهتِفُ : أُتيتم يا فَزارة ! هذه سُلَيمٌ والموت ! وأنا ابنُ عمِّك من رَبيعةَ ، إذْ هى وسُليم أحلاف ، فالعدنانيةُ تلفُّنا ، والنسبُ يضمُّ شَعبنا . وفى البلدِ مَن وَتَرنى فاستقادَ منه لِسانى ، وظلَمنى فانتصر لى حُماة كُماتى ، فأرسلتُها فيه شُعْثاً قِباحاً ، موروثةً فى الأعقاب ، خالدةً على الأحقاب ، أشردَ من نَعامة ، وألزمَ له من طَوقِ الحمامة ، فهو يَبغى الغوائل ، ويبثُّ لى الحبائل .

(١) فى الأصل : مضانه ... مغانه .

(٢) فى الأصل : عربانها .

ومن شعره فيه :

أبا حسنٍ ربيعةُ من سُلَيمٍ ... سِنانٌ زانَ عاليةَ الرماحِ

وإنى عائذٌ بك من هَناةٍ[١] ... نَحَتْنَ دعائمى نَحْتَ القِداحِ

فكُرَّ على ابنِ عمِّكَ وانتشِلْهُ ... فليس حِمَى ابنِ عمك بالمُباحِ

٥ فإنّ الجارَ عندكَ بين جنبَىْ ... عُقابِ الدَّجْنِ كاسرةِ الجَناحِ

ومنها فى المدح :

تُصَدُّ الخيلُ باسمك فى غديرٍ ... على ظَمَأٍ عن الماءِ القَراحِ

تظُنُّكَ طالعاً ببنى سُليمٍ ... عليها عندَ مُفتضحِ الصباحِ

إذا ساورتَ قِرْنَك فى مَكَرٍّ ... جعلتَ له ذِراعَكَ كالوِشاحِ

١٠ فما انتفع بعلى بن وَداعة ، ولا كانت له فيه شفاعة .

وكان خاطَبَ أيضاً هشامَ بنَ الحَكَمِ الخليفةَ فى تلافى حالِه ، فما أصغى له لزُهدِه فيه وفى أمثالِه . وعُوجِلَ[٢] علىُّ بنُ وداعة وقُتِل فى خبرٍ طويل ، فانسدَّ بابُ الفَهمِ بقرطبة يومئذٍ وطَمَست العِبِدَّى العاقبونَ له رَسْمَه ، وأيِسَ ذوو الأحسابِ منهم ، فتفرقوا شَذَرَ مَذَر ، ولم يبقَ بها منهم مَن له خَطَر .

١٥ وتناصَرَتْ خِلالُ المكروهِ فيما بعدُ على صاعدٍ بارتجاجِ الفتنةِ ، غلاءِ سِعْرٍ ورُخصِ شِعْرٍ ، حتى اختلَّ وعجزَ عن سترِ ولدِه وأهلِه . وبَخِلَ هشامٌ على ذلك كلِّه بتسريحِه والإذنِ له فى الانطلاقِ عن الأندلسِ فَرَقاً من خُبثِ لسانِه . فخرجَ مُستخفياً وجاز بشَاطِيشَ على يدِ أبى زيدٍ البكرىِّ رئيسِها سنةَ ثلاثٍ وأربعمائة ، فاتصلَ بصاحبِ صِقِلِّيةَ ، وفارقَ البؤسَ وراجعَ النِّعمة . ثم رجعَ

(١) الهناة أى الداهية مفرد جمعها هنوات واستعملها صاعد هنا جمعاً .

(٢) فى الأصل : وعوج .

إلى الأندلس إثرَ غلبةِ سليمانَ والبرابرِ على قرطبةَ مُستخرِجاً لمن تخلَّفَ بها من أهلِه وولده . وتعرّضَ أيضاً لمديح سليمانَ فما أنجحَ معه ولا أفلَح . وقد كان استطرفَ أوّلَ دولتِه (١فرَسَه رِعْمانَ العَلُوقِ١) ولم يَقْرِه قِرَضاً لاستحالتِه عن نعلِ الجميلِ جُملةً . ثم عجّلَ الانكفاءَ إلى صِقلية ، وماتَ بها رحمه الله سنة عشرٍ وأربعمائة .

قوله : « جعلت له ذراعكَ كالوشاحِ » أخذه من قولِ آمر[٢] يزيدَ ابنِ الصَّعِق :

تركتُ الركابَ لأربابِها ... وأكرهتُ نفسى على ابنِ الصَّعِقْ
جعلتُ يَدَىَّ وِشاحاً له ... وبعضُ الفوارسِ لا يُعتنَقْ

ونُعقِبُ أخبارَ صاعدٍ بمصادرَ وموارِدَ من أخبارِ ابنِ أبى عامرٍ ، مَنسوقةَ الأوائلِ والأواخرِ ، مقيّدةَ العيونِ والنوادرِ . ونُلمعُ بشىءٍ من الأسبابِ التى ذلّلت له الصِّعاب ، وأخضعتْ له الرقاب . وإنما نعتمدُ من الأخبارِ أشهرَها بُسوقا ، وأخصرَها طريقا ، وأمسَّها بالأدبِ رَحِما ، وأشبهَها بغرضِ هذا الكتاب أرضاً وسِما . ويحسبنا من دولةِ ابنِ أبى عامرٍ أن ننقلَ نصَّ ابنِ حيّان ؛ كيف طلعت نجومُها ، ومن أينَ نشأتْ غيومُها ، ونتلِى ذلك كيف مالَ[٣] ظِلُّها واضطربَ حبلُها ، إذ أكثرُ ما يقال للحاضرِ من أينَ طلَع ، وللغابرِ الدابرِ ما صَنع . ونهايةُ المُراد ، علمُ السكونِ والفَساد .

تلخيصُ التعريفِ بدولةِ ابنِ أبى عامرٍ من الأولِ إلى الآخرِ

هو أبو عامرٍ محمدُ بنُ عبدِ الله بنِ عامرِ بنِ أبى عامرٍ محمدِ بنِ الوليدِ بن

(١ — ١) رسم الجملة فى الأصل : فرسه رعان العلوى .
(٢) فى الأصل : أبى يزيد (٣) رسمها فى الأصل : « ما طلها ».

يزيدَ بن عبد الملك المُعافِرىّ . وعبدُ الملك جَدُّه هو الداخلُ بالأندلسِ مع طارقٍ مولى موسى بنِ نُصَير فى أولِ الداخلين َمن المَغرب . وهو فى قومِه وَسِيط . ونقلتُ من خطِّ ابنِ حيان ، قال : انتهت خِلافةُ بنى مروانَ إلى الحَكَمِ تاسعِ الأئمةِ فيها ، فتناهتْ فى السَّرْوِ والجلالةِ والكمال والأُبَّهة ؛ ونظمَ رواةُ الأخبارِ وحَمَلةُ الآثارِ من مناقبِه ما طارَ كلَّ مَطار فى جميعِ الأقطار ، إلا أنه — تغمَّدَ اللهُ خطاياه — مع ما وُصفَ من رجاحتِه ، كان ممن استهواهُ حُبُّ الوَلَد وأفرطَ فيه ، وخالفَ الحزمَ فى توريثِه المُلكَ بعدَه فى سنِّ الصِّبا ، دون مَشْيَخَةِ الإخوةِ وفِتيانِ العَشيرة ومَن يكمُلُ للإمامةِ بلا محاباةٍ ، فَرْطَ هوًى ووهلةً انتقدها الناسُ على الحَكَمِ وعدُّوها الجانيةَ على دَولتِه . وقد كانَ يعيبُها على ولدِ العباسِ قبلَه ، فأتاها هو مختاراً ولا مردَّ لأمرِ الله . وذلك أنه نَفِسَ بسلطانه على ثلاثةِ رجالٍ من إخوتِه ولدِ الناصر : عبدِ العزيز شقيقِه والأَصْبَغِ والمغيرةِ ، مع جماعةٍ من ولدِ الخلفاء كهولٍ وشبَّانٍ ، ما فيهم إلا مضطلِعٌ للأمرِ قوىٌّ عليه . فتخطَّى جماعتَهم إلى ابنِه هشامٍ وهو فى الوقتِ طفلٌ ما بلغَ الحُلم . قال ابنُ بسام : وحُدِّثتُ عن أحمدَ بنِ زيادٍ عن محمدِ بنِ وضّاحٍ عن رجلٍ يتكلَّمُ فى الحِدْثان ، أنه قال : لا يزال ملكُ بنى أميةَ بالأندلسِ فى إقبالٍ ودوامٍ ما توارثَه الأبناءُ عن الآباء ، فإذا انتقلَ إلى الإخوةِ وتوارثُوه بينَهم فقد أدبرَ وانصرف . فلعلَّ الحَكَمَ بهذا الخبرِ توهَّمَ ، فجاذبَه عن إخوتِه ؛ وإن كانَ ذوو اللبِّ والنظرِ لا يلتفتونَ إلى مثلِ هذا الخبر .

رجعُ الخبرِ إلى ابنِ حيّان : وكانَ جُوذَرٌ وفائقٌ فتيا الحَكَمِ قد أخفَيا موتَه ، ودبَّرا على صرفِ البيعةِ إلى أخيه المغيرةِ ، وكانَ قالَ له فائق : إنَّ هذا لا يتمُّ لنا إلّا بقتلِ جعفرٍ المُصْحَفى . فقالَ له جُوذر : ونَستفتِحُ أمرَنا بسفكِ دم

شيخ دولة مولانا ! ؟ قال له : هو والله ما أقول لك . ثم بعثا إلى المصحفيّ ونعيا إليه الحكم ، وعرّفاه برأيهما فى المغيرة ، فقال لهما المصحفى : وهل أنا إلا تبع لكما وأنتما صاحبا القصر ومدبّرا الأمر ، ولكما الرأىُ فيما قلتماه ؟ فأخذا فى تدبير ما رأياه . وخرج المصحفىّ وجمع حاشيته وجنده ، ونعى إليهم الحكم وعرّفهم مذهب جُؤذر وفائق فى المغيرة . وقال : إن بَقينا على ابن مولانا ٥ كانت الدولةُ لنا ، وإن بدّلنا استُبدل بنا . فقالوا الرأىُ رأيك . فبادر المصحفىّ ببعثه محمدَ بنَ [أبى] عامر مع طائفةٍ من الجند وقتَه إلى دار المغيرة لقتله . قال ابنُ أبى عامر : فألفيتُ المغيرةَ مطمئناً لا خبرَ عندَه ، فنعيتُ إليه أخاه الحكمَ فجزِع ، وعرّفته جلوسَ ابنه هشام فى الخلافة . فقال : أنا سامعٌ مُطيع . فكتبتُ إلى جعفر بحاله وبالصورة التى ألفيته عليها من السلامة . فراجعنى ١٠ جعفرٌ المصحفىّ وهو يقول : غرّرتنا ، اقض عليه وإلّا وجّهتُ غيرك مَن يقتُله . فقُتل رحمه اللهُ خنقاً . وكانت علة الحكم الفالجُ ، وكان تقدّمه عبدُ العزيز أخوه بمُدَيدة ، وتعطّل أخوه الأصبغُ ببَطالة أزالتْ عنه الرّهبة . فذهبتْ من جعفر بن عثمان فيهما الحزّة[1] ، وتوفّر اهتمامُه بعدهما بالمغيرة . وكان فتى القوم كرَماً ورُجلة ، وممن أُشير نحوَه بالأمر بأسباب باطنة[2] ، فأخذ له أُهبته ؛ فلما ١٥ قضى الحكمُ نحبَه ليلةَ الأحد الثالثة من صفر سنةَ ستٍ وستين ، بادرَ بالمغيرة على الصّفة المذكورة .

وافتتحَ المصحفىُّ أمرَه بعدُ بإيثار النَّصَفة ، واطّراح الكِبْر . وكان أول ما أتاه من ذلك صدرَ تقلّده حجابةَ هشام — وقد رُفع فراشُه فوقَ فراش الوزراء أصحابه ، وأبدلَ بالكَتّان الدّيباجَ على سالف العادة — أن قال : إنى أستحى من ٢٠

(١) كذا فى الأصل . (٢) فى الأصل : وبأسباب باطنه .

أصحابى أن أتمهّدَ أفضلَ مِن فُرُشِهم ، مع عَجزى عن دَرك شأوِهم ، غيرَ أنّا
نسلِّمُ لأميرِ المؤمنين اختيارَه ، فإمَّا يُساوى بينَنا فى فرشِ كرامتِه ، وإمّا أقرّنا
على الأمرِ الأول ولا كُفرانَ لنعمتِه . فأفرشَ للجميعِ ، مذّ زالَ فرشُ الديباج ،
فرشَ الكتّانِ ، فجرَى عليهم الرسمُ إلى آخرِ الزمان . واستُحسنَ فِعلُ جعفرٍ
٥ يومئذٍ وعُدَّ مِن غَورِه . وعوّلَ جعفرٌ فى سائرِ أوقاتِ دولتِه على هذا النوعِ
من السياسة ، فلزِمَ التواضعَ للناسِ ، وأطلقَ لهم البِشْرَ وألانَ كنفَه ووطَّأ خُلُقَه ،
ورأى أنهم بذلك يصلُحون له ، دون البذلِ لذاتِ اليدِ والمواساة فى النِّعمة ؛
فاستأثرَ بالأعمالِ ، واحتجنَ الأموالَ ولم يُنِلهم ، و بنَى المنازلَ وهدَمهم ، وشحَّ
بالنشَبِ وسخَى بهم . وعارضَه مِن محمدِ بن أبى عامرٍ ماجدٌ أخذَ معه بطرَفَى
١٠ نقيضٍ: بالبخلِ جودًا ، و بالاستبدادِ أثرَة ، [و] باقتناءِ الضياعِ اصطناعَ الرجال ،
حتى غلبَه عمّا قليلٍ . وتحركتْ حالُ ابنِ أبى عامر لأولِ الدولةِ ، وشاركَ فى
التدبيرِ بحقِّ الوزارةِ ، وتقوَّى على أمرِه بنظرِه فى الوكالةِ وخدمتِه للسيدةِ
صُبْح أمِّ هشامٍ . وكانت حالُه عندَ جميعِ الحُرَم أرفعَ الأحوال ، بقديمِ الاتصالِ ،
وحُسنِ الخِدمةِ ، والتصدِّى لمواقعِ الإرادةِ ، وطلاقةِ اليدِ فى بابِ الإلطافِ والهَديّة ،
١٥ فأخرجنَ له أمرَ الخليفةِ هشامٍ إلى حاجبِه جعفرٍ فى الاستعانةِ به فى التدبيرِ
والمشورةِ له فى الأمورِ ، والاختصاصِ به على الجُمهور . وكانَ جعفرٌ لمحمدٍ على
بعضِ ما أُريدَ منه ثِقةً به وسُكوناً إلى جهتِه ، فامتثلَ ما أُمِر به فى ابنِ أبى
عامرٍ لغفلتِه ، وتزيّدَ فى برِّه ، وأشركه فى سرِّه وجَهرِه . وانهمَكَ[1] ابنُ أبى ٤٥
عامرٍ فى مُغالطةِ جعفر ، وأراه أنه صاحبُه الحائطُ لحالِه ؛ وعوّلَ جعفر على رأى
٢٠ محمدٍ ، ووصلَ يدَه بيدِه ، واستراحَ إلى كِفايتِه ، وابنُ أبى عامر يمكرُ به ويُضرِّب

(١) فى الأصل : وانهتك .

بينَ حَسَدته ، ويُناقضُه فى أكثرِ ما يعامِلُ به الناس، ويستعملُ[1] إليهم بالبَذلِ وقضاءِ الحوائج ، ويَتقدَّمُ من المعالى إلى ما يُحجِمُ جعفرٌ عنه ؛ يستضمُّ الرجالَ وجعفرٌ يَدفعُهم ، ويزيدُهم جعفرٌ ينقصُهم ، يظنُّ أنه كلٌّ يحمله عنه ، فيالكَ مِن جامعٍ لحمدٍ ومُفرِّقٍ عن جعفر ! إلى أن هَوَى نجمُه وزالَ أمرُه .

وكان أوّلَ اتصالِ ابنِ أبى عامر بالحَكَم أنه وُصِفَ له فاستُخلِفَ على قضاءِ كورةِ ريَّهْ ، ثم تصرَّفَ فى وَكالةِ صُبْحٍ أمِ هشام ، فاضطلع بكلِّ ما قُلِّد ، واستهوَى هذه[2] المرأةَ بحُسنِ الخدمةِ — وهى الغالبةُ على الحَكَم — فأزلفَتْهُ . ووَلِىَ الشُّرْطةَ والسِّكةَ والمواريثَ . والسكةُ يومئذٍ أعلى الخُطَط فى الإفادة . وقُرِنَ له بهذا كلِّه القضاء بأشبيلية ، فعلَتْ حالُه وعَرُضَ جاهُه ، وعَمُر بابُه فى حياةِ الحَكَم ، وهمّتُه ترتمِى به وراءَ ما ينالُه من الدنيا أبعدَ مَرْمًى ، وهو فى كل ذلك يغدو إلى بابِ جعفر ويروح ، ويختصُّ به ويتحققُ نصيحتَه ، إلى أن أحظاه الجَدُّ وساعدَه القضاء ، فأسقطَ جعفرًا . فلمّا انفردَ بشأنه وتمكَّنَ من سلطانه ، توثَّقَ لنفسِه وحصَّنَ حالَه ، ورمَى إلى الغرضِ الأقصَى مِن ضبطِ المَلِكِ والحجْرِ عليه والاستبدادِ دُونَه . وامتثلَ رَسْمَ المُتَغلبينَ[3] على سُلطانِ وَلَدِ العبّاسِ بالمشرقِ من أمراءِ الدَّيلمِ فى عصرِه ، فنالَ بُغيتَه ، وتهنَّأ معيشتَه ، وأورثَه عَقِبَه بعدَه ، من غيرِ اقتدارٍ عليه بجندٍ خاصٍّ ولا صِيالٍ بعشيرةٍ ولا مُكاثرةٍ بمالٍ ولا عُدَّه ، بل رَمَى الدولةَ من كِنانتِها ، وعَدَا عليها بأعضادِها ، وانتضلَها[4] بمشاقِصِها ، وأنفقَ على ضَبطِها أموالَها وعُدَدَها ، حتى حوّلها إليه ، وسَبكَها فى

---

(١) كذا فى الأصل ولعلها : ويستميلهم .
(٢) فى الأصل : بهذه .
(٣) رسم الكلمة فى الأصل : المستغلبين .
(٤) فى الأصل : وانتصلها .

قالَبِه ، وسلخ رجالَها برجاله ، وعَفَّى رُسومَها بما أوضحَ من رُسومِه ، وأسقطَ رجالَ الحَكَم من سائرِ الطبقاتِ : والكُتّابِ والعُمّالِ والقُضاةِ والحُكّامِ وأصحابِ السيوفِ والأقلامِ ومزّقهم ، وأقامَ بإزائهم مِن تَخريجِه واصطناعِه رجالاً سدُّوا مكانَهم ، ومحَوْا ذكرَهم ، أعانوه على أمرِه .

٥ وأوّلُ عُروةٍ فضَّ ابنُ أبي عامرٍ مِن عُرَى المُلك جماعةُ الصَّقالبِ ، استخرجَ منهم بأسبابِ المُصادرةِ أموالاً جمّةً استأثرَ بأكثرِها ، وتتبّعَ لذلك كُتّابَهم وأسبابَهم وقتاً بعدَ آخر ، وتقسّمتهم أيدى القَدَرِ نفياً وقتلا ، صبراً وغَلَبةً ، سِرًّا وعَلانية ، حتى هَلَكوا عن[1] آخرِهم فى أسرعِ مُدّة . واختلفتْ مقاتلُهم بحسبِ استيفائهم مُدَدَ أعمارِهم ، فلم يَصِحَّ لى تاريخُ ذلك على حقيقتِه . فكانت
١٠ تلك الطائفةُ أوّلَ مَن ظهرَ انتقامُ اللهِ تعالى بابنِ أبى عامر منها ؛ فكانوا جبّارينَ قاسطينَ فى بلادِه ، متمرّدينَ على عبادِه ، فأرسلَه بقدرته على هذا النَّمطِ من خَلْقِه فأبادهم ، ونجا أهلُ السلامةِ من سَورتِه ، وتلك عادتُه تعالى فى مَن نَكَبَ عن سبيلِه .

ذكرُ دفاعِ ابنِ أبى عامر العدوَّ صدرَ الدّولة وقيامِه بالجهادِ دونَ الجماعةِ
١٥ ## وتوصُّلِه بذلك إلى تدبيرِ المُلك

قالَ ابنُ حيّان : وجاشَتْ النصرانيةُ بموتِ الحَكَمِ ، وخَرجوا على أهلِ الثُّغورِ ، فجاء صُرّاخُهم إلى بابِ قُرطبةَ فلم يَجدوا عند جعفرٍ غَناءً ولا نُصرة . وكانَ مما غرّبَ به لجُبنِه وعظيمِ أفَنِه أن أمرَ أهلَ قلعةِ رَباح[2] بقطعِ سَدِّ نهرِهم آنَةَ لعُمقِه وسُوءِ دِجْلَتِه ، يلتمسُ بذلك دفاعَ العدوِّ عن حوزتِه ؛ لم

(١) فى الأصل : من . (٢) فى الأصل : رياح .

تَقسع حِيلتُه لأ كثرَ من ذلك مع وُفورِ جيشِ السلطانِ يومئذٍ وجُمومِ أمواله ، فكانت من سَقَطاتِ جعفر المأثورة ؛ فأنِفَ ابنُ أبى عامرٍ من تلك الدنيَّة ، وأشارَ على جعفرٍ بتجريدِ[1] الجيشِ للجهادِ ، وخوَّفَه سُوءَ العاقبةِ فى تركه ، وأجمعَ الوزراء على ذلك إلّا جماعةً خاموا عنه ، فبادر ابنُ أبى عامر إليه ووعَدَ من نفسه الاستقلالَ به على أن يَختارَ الرجالَ ، ويُجهِّزَ لغزوته مائة ألفِ مِثقال ، ٥ فنفرَ بالجيش ودخلَ على الثَّغرِ الجوْفىِّ إلى جِلِّيقية ، فنازلَ حِصن الحامةِ من أعمال رُدْمير ، فدخلَ رَبَضَه وأفشى النِّكايةَ وغَنِم ، وقَفَلَ ووصلَ الحضرةَ بالسَّبْىِ إلى اثنينِ وخمسينَ يوماً ، فعظُمَ السرورُ وخَلَصَ الجندُ له ، واستهلكوا فى طاعتِه لما رأوْه من كرَمه .

٤٦| ١٠ حدثنى أبى خلف بن حُسين قال : تذاكرنا جُودَ ابنِ أبى عامرٍ يوماً ، وبالحضرةِ محمدُ بن أفلح غلامُ الحكم ، فقال عندى من جُودِه غريبةٌ : أنكحتُ بنتى على عهدِ مولانا الحكمِ والحالُ بنا ضيِّقةٌ ، فاضطُرِرتُ لما أُصلِحُ به حالَ الجاريةِ إلى بيعِ لِجامٍ حُلِّيٍّ ثقيلِ الوزنِ رَدىءِ العيار ، وكانَ عندى لزينتى أيامَ المراكب ، وتقاعدَ فيه التجّارُ فانقطع بى أملى ؛ فوقعَ فى نفسى قصدُ ابنِ ١٥ أبى عامرٍ صاحبِ السكَّةِ للذائعِ من كرمه ، وأعظمُ رغبتى أن يُضربَ لى فى السكةِ دَراهم ، فقصدتُه وعرَّفتُه رغبتى ، فسارعَ بأطلقِ وجهٍ وقال : سِر إلىَّ بدارِ الضَّربِ ؛ فجئتُه وأوصلنى إلى نفسِه والدراهمُ المطبوعةُ بين يديه ، وأومأ إلىَّ فأخرجتُ اللجامَ وأنا خايفٌ من صَرفِه لسُقوطِ عِياره ، فواللهِ ما نظرَ إليه ولا عايَرَه ، وراطلنى واللهِ باللجامِ بحدائده وسُيورِه . فأخذتُ ما لم يَدُرْ فى ٢٠ وَهمى أنّى أظفر بمثله . وعظُمَ ابنُ أبى عامرٍ فى عينى ، وقمتُ عنه وحِجرى

(١) فى الأصل : بتحديد .

ملآنُ ولا أُصَدِّقُ بما حَصَلتُ عليه ؛ فجهزتُ بنتى وفضَلَ لى شىءٌ يكفينى ؛ وقلّ مولاى الحكمُ فى عينى وأحببتُ ابن أبى عامرٍ ، حتى لو دَعانى إلى معصيةِ الحكمِ — وهو مالِكُ رِقّى وإمامى — لما قعدتُ عنه .

مُظاهرةُ غالبٍ مولى الناصرِ لمحمد بن أبى عامر ومظاهرتُه على المُصحفىّ إلى أن أسقطه ومات فى سجنه

قالَ ابنُ حيّان : وكانَ بينَ المصحفىِّ وغالبٍ صاحبِ مدينة سالمٍ وشيخِ الموالى وفارسِ الأندلسِ غيرَ مُدافَعٍ أشدُّ ما كانَ بين اثنينِ من العداوةِ والتقاطُعِ . فأهمّ المصحفىَّ شأنُه ، وناظرَ الوزراءَ فى ما بَدا من تثاقُلِه فى الذَّبِّ عن الثغرِ ، فأشاروا باستصلاحِه . وبادرَ بذلك ابنُ أبى عامرٍ لما أرادَه من مُظاهرتِه ، فلم يزَلْ يقومُ بشأنِه ويخدُمُه داخلَ الدارِ من قِبَلِ الحُرَم كعادتِه حتى تمَّ على إرادتِه ، وخرجَ الإذنُ أنْ يُنهضَ غالبٌ إلى ثِنَى الوزارةِ[1] ويُدبِّرَ جيشَ الثغرِ ، وابنُ أبى عامرٍ جيشَ الحضرة . ثم خرجَ ابنُ أبى عامر إلى غزاتِه الثانيةِ ، واجتمعَ به وتعاقدا على الإيقاعِ بجعفرٍ . وقفلَ ابنُ أبى عامر غانماً ، وبعُدَ صيتُه . فخرجَ أمرُ الخليفةِ هشامٍ بصرْفِ المصحفىِّ عن المدينةِ ، وكانت فى يدِه يومئذٍ فخلَفَ عليها ابنُه . فخرجَ ابنُ أبى عامرٍ نحو كُرسيِّها فى ذلك اليوم والخَلْعُ عليه ، ولا خَبَرَ عند جعفر ، وإنَّ ابنَه لجالسٌ مَجلسَها فى أُبَّهتِه ، حتى صَعِدَ ابنُ أبى عامر نحوَه ، فولّى ولدُ المصحفى الدُّبُرَ ناكصاً على عقبِه ، وأُتبِعَ بذابقِه ، وعادَ إلى دارِه . ومَلَكَ محمدُ بن أبى عامر البابَ بولايتِه الشُّرطةَ ، وأخذ على جعفر وُجوهَ الحيلةِ ، وخَلّاه[2] وليس بيدِه من الأمرِ إلّا أقلُّه . وكانَ ذلك — زعموا —

(١) الثنى بالكسر والقصر : الأمر يعاد مرتين . (٢) فى الأصل : وجلاه .

بتدبيرِ غالبٍ معه عند اجتماعِهما بالثغر ، وقالَ له : سيطيرُ لكَ ذِكرٌ بهذا الفتح ويَشغَلُ السرورُ أهلَه عن الخَوضِ فيما تُحدِثُه من قِصَّة ، فإياكَ أن تَخرجَ عن الدار حتى يُعزلَ جعفرٌ عن المدينةِ وتتقلَّدَها ، ويزولَ أمرُه عن الباب والدارِ ويتمَّ عليه التدبيرُ حتى يُزالَ عن الحجابة . ففعَلَ ذلكَ وضبَطَ المدينةَ ضبطاً أنسى به أهلَ الحضرةِ مَن سلفَ قبلُ من الكُفاةِ أُولِي السياسةِ . ٥

وانهمكَ ابنُ أبى عامر فى صُحبةِ غالب ؛ ففَطِنَ جعفرٌ لتدبيرِ ابنِ أبى عامر عليه بعدَ وَهلتِه[1] ، فكاتبَ غالباً يستصلحُه وخَطَبَ أسماءَ بنتَه لابنِه عُثمان ، فأجابَه غالبٌ لذلكَ ، وكادت تتمُّ مصاهرتُه له . وبلغَ ابنَ أبى عامر فقامت قيامتُه ، وكاتبَ غالباً يخوِّفُه الحِيلةَ ويهيِّجُ منه الحِقدَ . وألقى عليه أهلَ الدارِ وكاتبوه فصرفُوا غالباً ؛ ورجعَ إلى محمدِ بنِ أبى عامر وأنكحَ ابنتَه أسماءَ منه وتم العَقدُ له فى محرمٍ سنةَ سبعٍ وستين ، وأدخلَ السلطانُ تلكَ الإبنةَ إلى قصرِه وجهَّزَها إلى محمد بن أبى عامر من قِبَله ؛ فظَهَرَ كلَّ الظُهور ، واستوثقَ له التدبير ، وصار عنده جعفرٌ لا شىء ، إلّا أنَّه غالطَه زمنَه إلى أن أحكمَ أسبابَ صرفِه . واستقدمَ السلطانُ غالبا وقلَّدَه خُطَّةَ الحجابة مُشتركاً مع جعفر . ودخلَ ابنُ أبى عامرٍ بأسماءَ بنتِه ليلةَ نَيروزِ العامِ المؤرَّخ ، وكانت أعظمَ ليلةِ عُرسٍ بالأندلس . ولجعفر فى ذلكَ رِسالةٌ إلى السلطان حَسَنةٌ فى بابِها تملَّقَ فيها وتصنَّع ، وهو قد أيقن بالنكبةِ ؛ وكَفَّ عن اعتراضِ ابنِ أبى عامر فى شىء من التدبير . وابنُ أبى عامر يُداهنُه ولا يكاشِفُه ، وجعفر يَشكُّ فى أمرِه ؛ قد استولَى عليه الإدبارُ والحَيْرةُ ، فلم يصحَّ له رأىٌ ولا رويَّة ؛ وانقبضَ الناسُ عنه ، وانثالوا على ابنِ أبى عامر إلى أن صارَ يغدو إلى قَصرِ قرطبةَ ويروحُ ١٠ ١٥ ٢٠

[1] فى الأصل : بعد من وهلته .

وحدَه وليسَ فى يدِه من الحجابةِ سوى اسمِها ، وابنُ أبى عامرٍ قائمٌ بشروطِها ؛ ينصِبُ الحبائلَ لسقوطِ جعفر ، والأقدارُ السماويةُ تنجدُه . وكانت لله عند جعفرٍ فى إيثارِه هشاماً بخلافتِه ، واتّباعِه شهوةَ نفسِه وحظَّ دنياه ، وتسرُّعِه إلى قتلِ المغيرةِ لأولِ وهلةٍ دونَ قِصاصِ جَريرةٍ[1] استدركتْهُ دونَ إملاء ، فسلَّطَ عليه مَن كانَ قدَّرَ أنَّه يتسلَّطُ على الناسِ باسمِه . ولما اتفقَتْ على جعفرٍ هذه الأسبابُ ، جدَّ المقدارُ به وسخِطَ السلطانُ عليه وعلى وَلدِه وأنسابِه وعلى أخيه هشامٍ وسائرِ طبقتِه ، وطولبوا بالأموالِ وأُخذوا برفعِ حسابِ ما تصرَّفوا فيه لأولِ الزمان . وأخذَهم ابنُ أبى عامرٍ بالخروجِ عنها ، وتوصَّلَ بذلك إلى استئصالِ أموالِهم وانتهاكِ حُرْمَتِهم وأبشارِهم ، واجتثاثِ أصولِهم . وكانَ هشامُ ابنُ أخى جعفر قد بلغَ من حَسادَتِه لابنِ أبى عامرٍ أنْ سَرَقَ له فى غزاتِه الثالثةِ فى طريقِه رُءوساً للنصارَى كانت تُساقُ للحضرةِ ، فنَفِسه فيها وأمرَ غلمانَه فصبُّوها فى النهرِ ، فقامت قيامَةُ ابنِ أبى عامرٍ لذلك ، وكاشفَ آلَ[2] عثمانَ من ذلك اليوم ؛ وتجرَّدَ لإبادتِهم فاستبلغَ فى مَكروهِ هشامٍ وعاجَلَه بالقتلِ فى المُطبقِ قبل عمِّه جعفر ، فلما[3] استقصَى ابنُ عامرٍ مالَ جعفر باعَ دارَه بالرُّصافةِ ، وكانت مِن أعظمِ قُصورِ قُرطبة . واستمرَّتْ النكبةُ عليه سنينَ ، مرةً يُحبسُ ومرةً يُخلَّى ويُقرُّ بالحضرةِ وتارةً يسيَّرُ عنها ، ولا يُراحُ فى الحالتين من المُطالبةِ والأذى . إذا سَئِمَ[3] ابنُ أبى عامرٍ إعناتَه وَكَلَه إلى غالبٍ صهرِه فيتولى كِبْرَه ، ويُضعفُ عذابَه . والأخبارُ عنهما فى ذلك كثيرة . فلما بانَ عجزُ جعفر وضَعفُه أُقِرَّ فى المُطبقِ بالزهراء إلى أن وافاه[4] هنالك حِمامُه وأسلمَ

(١) فى الأصل : ولا جريرة . (٢) فى الأصل : الى .

(٣) فى الأصل : حتى باع داره .

(٤) فى الأصل : وفاه .

مَيتاً إلى أهله ؛ وما ترَكَ الناسُ بعدُ أن عَدُّوه فى قتلَى ابنِ أبى عامر ، وزعموا أنّه دسَّ له شَرْبَةَ سَمٍّ قضت عليه . والله أعلم .

أخبرَنى محمدُ بنُ إسماعيلَ كاتبُ ابنِ أبى عامرٍ قالَ : سِرتُ مع محمدِ بنِ مَسْلمةَ ثِقَةِ ابنِ أبى عامر إلى الزهراء لِنُسلِمَ جسدَ جعفرِ بنِ عُثمانَ إلى أهلِه والنَّظَرِ(١) إلى عَيْنِه . وسِرنا إلى مَنزلِه وما غطَّى جسدَه إلّا كِساءٌ خَلَقٌ لبعضِ البوابينَ ألقاه على سريرِه . ودعا له محمدُ بنُ مسلمةَ بغاسلٍ يغسلُه على فَردِ بابٍ اختُلعَ من ناحيةِ الدار . وخَرجنا بنعشِه ووارَيناه ، وما جَسَرَ أحدٌ لشهودِه معنا سوى إمامِ مسجدِه المُستدعَى للصلاةِ عليه ومن حضَره من ولدِه . فعجبتُ من عُدوانِ الزمانِ بعد تصريفِه له ، و إنَّ لى بالاعتبارِ بشأنه فى الحالتين مع قُربِ المدةِ الموعظةَ .

وقفتُ له فى طريقِه من دارِه وقتَ عِلّةِ الحكم ، وقد تناهى أمرُه فى الجلالةِ أرومُ أن أُناولَه قِصةً ، فواللهِ ما تمكنتُ من الدُّنوِّ إليه لكثافةِ موكبِه ، وأخذِ الناس الطرُقَ عليه مسلِّمينَ وسائلين ، فانثنيتُ حَسيرًا مبهوتاً . فلم تَطُلِ المدّةُ حتى سلبَه ابنُ أبى عامرٍ حالَه وقبضَ عليه ، وجعلَ يحملُه فى الغزَواتِ معه . وسرتُ فى صُحبةِ ابنِ أبى عامرٍ فاتفقَ لى أن نزلتُ فى بعضِ المنازلِ بجليقيةَ إلى جنبِ خِبائِه . وفى ليلةٍ نهى ابنُ أبى عامر عن وُقودِ النار ليَخفى على العدوِّ مكانُه ، فرأيتُ واللهِ عثمانَ بنَ جعفر يَسقِى أباه جعفراً دَقيقاً قد خلطَه بالماء يُقيم أودَه ، والشيخُ يحسوه ويَحرِصُ(٢) عليه ضَعفَ حالٍ وعُدْمَ زاد ؛ فلا أنسى تلك الموعظةَ . وما يغترُّ بالأيامِ إلّا ضعيفُ العقلِ . وكانَ مَهلِكُ جعفر فيما أخبرنى به أبى خلفُ ابنُ حسين سنةَ اثنينِ وسبعين .

(١) كذا فى الأصل ولعلها : ولننظرَ . (٢) فى الأصل : يحرض .

ومما طُولبَ به جعفرٌ مالُ الصقلبي جعفر . كانَ الحكمُ وقفه قِبَل خالدِ بن هشامٍ وتورَّع عنه وأوصَى أن يوزَّعَ فى الكُوَرِ التى كانت إليه وقته ، تَحلُّلاً من مَظالم أهلِها . فأرجاه عندَ خالدٍ مُدةً إلى أن احتاجَ إليه فقبضَه سراً ، واندفعَ إلى جعفرٍ وأخذَ خالدُ بنُ هشامٍ براءتَه منه ، فسُئل جعفرٌ عنه .
٥ فقال : كنتُ خادمَ الرجلِ وصاحبَ سرِّه فعمِلتُ برسمِه ، وإن رُجعَ فى الاستدلالِ إلى زِمامِه الماضى الذى كنتُ أُقيِّدُ فيه الأموالَ الباطنةَ وُجد فيه ثَبْتُه . فجِيءَ فى ذلك اليومِ بذلك الزِّمامِ وقد قُطعَ منه الدَّرْجُ[1] الذى فيه ذكرُ المالِ الباطِنِ ووُصِلَ ما انقطعَ بذلك من الكلامِ بما بعدَه . وأرشدَ جعفرٌ إلى هذه الوَهلةِ ، وحسِبَ أنَّ مع وُجودِها لا تلزمُه الحجةُ . فعَدَلوا به إلى
١٠ بَيداءَ مُضلَّة .

قال ابنُ حيان : ولما أُمرَ بضمِّه إلى المُطبَقِ بالزهراء ودَّعَ أهلَه وولدَه وَداعَ الفُرقةِ ، وقالَ لستم تَرَوْنى بعدَها حيًّا ، فقد أتى وقتُ إجابةِ الدَّعوةِ وأنا أرتقبُه منذُ أربعينَ سنةً . وذلك أنى أسرفتُ على فلان — رجلٍ سُجِنَ بعهدِ [٤٨] الناصر — وما أطلقتُه إلّا برُؤيا ، قيلَ لى : أطلِق فلاناً فقد أُجيبَتْ فيك
١٥ دعوتُه . فأطلقتُه وأحضرتُه وسألتُه ، فقال : نعم ! دعوتُ على مَن شاركَ فى أمرى أن يُميتَه اللهُ فى أضيقِ السُّجون . فعلمتُ أنَّها قد أُجيبَتْ ، وندِمتُ بحيثُ لا تُغني الندامةُ ، فأطلقتُ الرجل . قالوا فما لبِثَ فى مَحبسِه إلا قليلا وأُخرجَ مَيْتاً ، فسُلِّمَ إلى أهلِه فى أقبحِ صورةٍ . وما زلتُ أسمعُ أنه قُتلَ خَنقا واللهُ أعلمُ بالحقيقة ، المُفضِى[2] على مُحالِ هذه الخليقة . انتهى ما لخصتُه من كلامِ
٢٠ ابن حيان فى شأن جعفرِ بنِ عثمان . وكانَ أحدَ من اجتمعَ له فى ذلك الوقت

(١) فى الأصل : الروج . (٢) فى الأصل : المقضى على مجال ...

نَوْعَا البلاغةِ فى النظمِ والنثرِ ، وهو القائلُ فى نكبتِه :

لا تأمننَّ من الزمانِ تقلُّبا إنَّ الزمانَ بأهلِه يتقلَّبُ

ولقد أرانى واللُّيوثُ تخافُنى وأخافَنى من بعدِ ذاك الثَّعلبُ

حسْبُ الكريمِ[1] مَذَلّةً ونقيصةً ألَّا يزالَ إلى لئيمٍ يطلُبُ

وإذا أتتْ أعجوبةٌ فاصبرْ لها فالدَّهر يأتى بالذى[2] هو أعجبُ ٥

وحدَّثَ غيرُ واحدٍ أنّه استعطفَ المنصورَ بهذه الأبيات :

هَبْنِى أسأتُ فأينَ الفضلُ والكرَمُ إذْ قادَنى نحوكَ الإذعانُ والندَمُ

يا خيرَ من مُدَّتِ الأيدى إليه أما ترْثِى لشيخٍ نَعاه عندكَ القلَمُ

بالغتَ فى السُّخطِ فاصفحْ صَفحَ مقتدرٍ إنّ الملوكَ إذا ما استُرحِموا رَحِمُوا

فأجابَه بهذه الأبياتِ وهى لعبدِ الملك الجزيرى : ١٠

ألآنَ يا جاهلا زلَّتْ بك القدَمُ تبغِى التكرُّمَ لما فاتَكَ الكرَمُ

ندِمتَ إذْ لم تفُزْ منا بطائلةٍ وقلَّما ينفعُ الإذعانُ والندَمُ

ومنها :

نفسى إذا جَمَحت ليست براجعةٍ ولو تشفَّعَ فيكَ العُربُ والعجَمُ

وأُخبرتُ أنَّ المصحفىَّ لما بلغَ إليه هذا الجوابُ قال : ١٥

لى مُدّةٌ لا بد أبلغُها فإذا انقضتْ أيّامُها مُتُّ

لو قابلَتْنى الأُسْدُ ضاريةً والموتُ لم يدنُ[3] لما خِفتُ

فانظُرْ إلىَّ وكنْ على حذرٍ فمثلَ[4] حالِكَ أمسِ قد كُنتُ

---

(١) فى الأصل : اللئيم . (٢) فى الأصل : ما .

(٣) فى مو ج ١ ص ٣٩٧ : يقرب (٤) مو : فى مثل .

قالَ ابنُ بسام : ومما يُروى لجعفرٍ المُصحفى عندَ ظهورِ ابنِ أبى عامرٍ عليه ، وانتزاعِه ما كانَ من الحِجابةِ فى يديْه ، و إفضائه به إلى هذه الحالِ من الهَضْمِ والاعتقالِ ، قولُه :

تندَّمتُ والمغرورُ مَن قد تندَّما وهَلْ ينفعُ الإنسانَ أنْ يتندَّما

٥ غَرستُ قَضيباً خلتُه عُودَ كَرمةٍ وكُنتُ عليه فى الحوادثِ قيِّما

أُكَرِّمُه دَهرى فيزدادُ خِسَّةً ولو كانَ من عُودٍ كريمٍ تكرَّما

جملٌ وجَوامع من كبارِ الأحداثِ بالدولةِ العامريةِ

قالَ ابنُ حيان : أوَّلُ ذلك الوَحشةُ الحادِثةُ بينَ ابنِ أبى عامرٍ والخليفةِ هِشام ووالدتِه صُبح . والذى أثارَها أسبابُ الحسدِ ودواعى المُنافسةِ بينَ أهلِ ١٠ القَصرِ الهِشامىّ والعامرىّ ؛ وأشاعوا عنه أنَّه يُريدُ أن يستبدَّ بالأمرِ . فقامَ ابنُ أبى عامرٍ فى ركائبِه لحسمِ حدَّتِه ، وعَلِم أنه أُتِىَ[1] من حاشيةِ القَصرِ . وكانَ به عِدَّةٌ من الخَدَمِ ففرَّقهم ومزَّقهم ، ولم يدَعْ فى خِدمةِ القصرِ إلّا مَن استشعرَ له رَهبةً وهيبةً . وأذكى العيونَ مع ذلك عليهم حتّى مَلَكَ نفوسَهم . ثم نظرَ فى شدِّ الأموالِ المخزَنةِ فيه مُذ عهد الخلفاء ، ووَصفَ أنَّ أيدى الحُرَمِ تنبسطُ ١٥ عليها . قالَ ابنُ حيان : أخبرنى ولد الخال من بعضِ ما[2] كانَتْ تفعلُه السيدةُ صُبح مع أخيها رائقٍ ؛ أنَّها أخرجتْ عندَ تمكُّنِ الوَحشةِ بينهما و بينَ ابنِ أبى عامرٍ مائةَ كوز على أعناقِ الخَدَمِ الصقالبةِ مختومةً ، قد صَيَّرت أشطارَها مالاً عَيْناً ذَهباً وفِضةً ، ومَوَّهتْ على ذلك كلِّه بالمُربَّى والشُّهدِ وغيرِ ذلك من الأَصباغِ الرفيعةِ المتَّخذةِ بقصرِ الخِلافةِ . وكتبَتْ على رءوسِ الكيزانِ أسماءَ

(١) فى الأصل : أوتى .
(٢) فى الأصل : من .

ذلك . ومرّت بصاحب المدينة فحسبها كما كتبَتْ عليها . وكانَ فى تلك الكيزانِ ثمانونَ ألفَ دينار . فأحضرَ ابنُ أبى عامرٍ جماعةً وأعلَمهم أنّ الخليفة مشغولٌ عن حفظها بانهماكه فى العبادةِ ، وأنَّ فى تضييعِها على المسلمينَ وعلى الدولةِ أعظمَ الآفة . فرأت الجماعةُ أنّ كَوْنَ الأموالِ بيدِ المنصورِ أسلمُ ، وهو على حفظها أقدرُ وأقوم . ثم نالته على ذلك بقيّةُ علّةٍ طاولته ، فأرجفوا به ، فانتقلَ ابنُه ٥ عبدُ الملكِ إليه بالزاهرة ليُنفذَ الأمورَ عنه . فكشفَ أعداؤه وجوهَهم عند استحكامِ الإرجافِ به ، وراسلوا حاشيةَ الخليفةِ هشامٍ سرًّا ، وجهّزوا للقيام عليه ؛ فلم يكن فيهم فضلٌ لذهابِ أعيانهم . واشتدّ [ذلك] على[1] ابنِ أبى ٤٩ عامرٍ فتقدّمَ إلى ابنه عبدِ الملكِ أن يعترضَ ألفَىْ فارسٍ من المُصطنَعين للدولة والغلمانِ العامريين ، وأن يَبيتُوا معه بالزاهرةِ لإنفاذِ العزيمةِ فيما رآه من حَمْلِ ١٠ الأموالِ إليه . وأحكمَ الأمرَ مع الفقهاءِ والوُزراء ، فركِبَ ذلك الجيشُ من بينِ يدَيه يومَ الثُّلاثاءِ الثالثَ من جُمادى الأُولى سنةَ ستٍ وثمانينَ . فأتى قصرَ الخلافةِ بقُرطبةَ ، وأذِنَ لمن وافَى من الفُقهاءِ والوُزراءِ بالوُصولِ إلى مجلسه ، وشافَهَهم فى ذلك ، فاعترفَ الملأ بفضلِ أبيه المنصورِ ، فقالَ لهم عبدُ الملك : إنَّ قوماً ممن يتّصلُ بأسبابِ الخليفةِ هشامٍ يُؤثِرُ الفتنةَ ويكرهُ الدَّعَةَ . ١٥ فأنكرَت الجماعةُ ذلك . وأحبَّ عبدُ الملكِ الوصولَ بهم إلى مجلسِ هشامٍ ليُشافهوه بهذه الكروبِ العظام ، فكرِه هشامٌ ذلك وامتنع منه وتبرّأ من أعداءِ ابن أبى عامرٍ . وانصدعَ جمعُهم على انتقالِ المالِ . فنُقلَ فى ثلاثةِ أيامٍ حتى استُنفِدَ جميعُ ما ظُهِر عليه من بَيتِ المالِ . وتعذّر ما كانَ بجوفِ القصرِ من بَيتِ مالِ الخاصّةِ ؛ ودافَع عنه أهلُ الدارِ لقيامِ السيّدةِ أمِّ هشامٍ ٢٠

(١) فى الأصل : عليه .

دونَه . أخبرنى أبى بعظيمِ ما شاهدَهُ من صَرامةِ تلك المرأةِ ومُنازعتِها لابنِ أبى عامر ووَلَدِه ورَميِها[1] لهما بكلِّ عظيمة ، وعبدُ الملكِ يومئذ ساكتٌ يتجرّعُ غُصَصه ، لا يردُّ كلمةً . فبلغَ عبدُ الملكِ رغبتَه وانكفأ إلى أبيه بالزاهرةِ بعدَ أن ثقّفَ القصرَ ؛ فسكنَ جأشُ ابنِ أبى عامرٍ بإحرازِ تلك الأموالِ . وكانَ

٥ جملةُ ما حُمِلَ — زعموا — مِن الوَرِقِ خمسةَ آلافِ ألفِ دينارٍ دراهمَ قاسميّة ، ومن الذهبِ سبعُمائة ألفِ جعفريَّة .

ثم استبَلَّ المنصورُ ، ووصلَ إلى مجلسِ الخليفةِ هشامٍ مع ابنِه عبدِ الملكِ وسائرِ عُظماءِ الدولة . فخَلا هشامٌ مع ابنِ أبى عامرٍ واعترفَ له بالفضلِ والاضطلاعِ بالدولةِ . فخرستْ ألسنةُ الحسَدةِ . وعلِمَ المنصورُ ما فى نفوسِ الناسِ

١٠ لظهورِ هشامٍ ورُؤيتِهم له ؛ إذ كانَ منهم مَن لم يرَهُ قطُّ . فأبرزَه للناسِ وركِبَ رَكبتَه المشهورةَ ، وقد برَزوا له فى خَلقٍ عظيمٍ لا يُحصيهم إلا مَن أحصَى آجالَهم ، فى بهجةٍ ولَبوسٍ وهَيئةٍ ، مُعمَّماً على الطَّويلةِ ، سادِلاً للذُّؤابةِ ، والقَضيبُ فى يدِه ، زيَّ الخلافة . وإلى جانبِه المنصورُ راكباً يسايرُه ، وقدّ أمّه الحاجبُ عبدُ الملكِ راجلاً يمشى ، ويَسيرُ الجيشُ أمامَه . ومِن المواكبِ

١٥ وطوائفِ الجُنـدِ والغِلمانِ والفِتيانِ القَصْريِّينَ والعامريِّينَ ما عُجِبَ من كثرتِهم .

وفاةُ المنصورِ ابنِ أبى عامرٍ

قالَ ابنُ حيان : وخرجَ المنصورُ إلى الغزاةِ ، وقد وقعَ فى مرضِه الذى ماتَ منه فى صفرٍ سنةَ اثنينِ وتسعينَ وثلاثمائةٍ . واقتحمَ أرضَ جِلِّيقيّةَ مِن

(١) فى الأصل : ورميه .

تلقاء مَدينةِ طُلَيطُلَة ، ومرضُه يخِفُّ وقتاً ويثقُلُ وقتاً . ونفذَ على عملِ بَنى غُومسَ إلى أرضِ قَشْتِيلة ، بلدِ شَانجُه بنِ غَرْسِيَة . وهو كانَ مطلوبَه الذى ألَّف عليه الجماعةَ ، فأحلَّ الغاراتِ بأقطارِه . فقويَتْ عليه العِلةُ هنالك فاتُّخذَ له سريرُ خَشبٍ ودُعَ عليه أعضاءَه ، وسُوِّى مِهادُه ، مُتطاولُ الشكلِ يمكنُه الاضطجاعُ عليه متى خارَتْ قواه . وكان يُحملُ سريرُه على أعناقِ الرجالِ ، ٥ وسِجفُه منسدِلٌ عليه ، وعساكرُه تحفُّ به وتُطيعُ أمرَه . وكان يُحملُ بين يدَيْه شِراعٌ خفيفٌ منصوبٌ يُنقلُ على الأيدى ، فإذا حركته الخِلْفَةُ أُنزلَ سريرُه إلى جَنبِ ذلك الشِّراعِ ليقضِىَ ما بِه من حاجةٍ . وتناولُ وضوءِه جاريتانِ من قُوّامِه كانَ حملَهما فى غَزاتِه ، فكانتا تسيرانِ وَسْطَ الفتيانِ . وما كانَ بينَ نزُولِه واستقلالِه إلَّا الفترةُ لقوةِ الخِلْفَةِ . بذلك قطعَ أربعةَ عشرَ ١٠ يوماً حتى وصلَ إلى مدينةِ سالم . وكانَ هجرَ الأطباءَ فى علتِه تلك لاختلافِهم فيها ، واقتصرَ على أوصافِ كاتبه الجزيرىِّ عبدِ الملك . وأيقنَ هنالك بالموت . وكانَ يقولُ إنَّ زمامى يَشتملُ على عشرينَ ألفَ مُرتزِقٍ ما فيهم أسوأُ حالاً منى . وَددتُ أن أُقالَ زَلَّتى وأنا كبعضِ هؤلاءِ السُّودانِ الحاملينَ لسريرى . وكانَ تَحملُ سريرَه السُّودانُ الرقَّاصةُ لِلينِ مَشيِهم ، وكانَ يتأذَّى بصُنانِ رِيحِهم مع ١٥ ما كانَ حَولَه من الطيب . فاشتغلَ ذهنُه يومئذٍ بقرطبةَ وهو بمدينةِ سالمٍ وقد أيقنَ بالوفاةِ . فأمرَ ابنَه عبدَ الملك بالنُّفوذِ لشدِّها فى طائفةٍ من ثِقاتِ غِلمانِه بعدَ أن أوصَى كلَّهم أشتاتاً وجماعةً . ثم خَلا بولدِه عبدِ الملك يُوصِيه ويودِّعه ويَقبضُ على يدِه ، وكلما ذهبَ عنه استردَّه مستدركاً بوصيَّتِه . وعبدُ الملكِ يَبكى فينكِرُ ذلك عليه ويقولُ : هذا أوَّلُ العجزِ والفشَلِ ؛ إلى أن قضَى وطرَه ٢٠ مما بينَه وبينَ عبدِ الملكِ . وأمرَه أن يستخلفَ أخاه عبدَ الرحمنِ على العَسكرِ

إلى أن يُنفذَ إليه حُكمه فيه . وخرجَ عبدُ الملكِ إلى قُرطبةَ ومعه القاضى
ابنُ ذكوان فدخلَها فى صَدرِ شوالٍ من العامِ ، فسكّنَ الإرجافَ بموتِ والدِه ٥٠
وعرّفَ الخليفة كيف تركَه .

قالَ ابنُ حيان : قالَ لى أبى خلفُ بنُ حُسين : ووَجدَ المنصورُ بعضَ
٥ الراحةِ ، وأمرَ أن تدخلَ عليه جماعةٌ فدخلتُ فى جُملتهم ودنوتُ منه وهو
كالخيالِ لا يُبينُ كلاماً ، وأكثرُ عملِه بالإشارةِ كالمسلِّم المودِّع . وخرجْنا فكانَ
آخرَ العهدِ به . وماتَ ليلةَ الاثنين لثلاثٍ بقينَ لرمضانَ من العامِ المؤرَّخ ؛
وعلينا فى العسكرِ عبدُ الرحمنِ ابنُه فعزَّيناه . وكانَ أوصَى أن يُدفنَ حيثُ
يُقبَضُ ولا يُنقلَ تابوتُه . فدُفنَ فى قصرِه بمدينةِ سالمٍ . ورأَوا أنه اختارَ اللهُ
١٠ له ، إذْ كانت من أطيبِ ما بناه رحمه اللهُ .

وتلوَّمَ ابنُه عبدُ الرحمنِ بالعسكرِ مُدّةَ الأسبوعِ وهو يَنتظرُ رأيَ أخيهِ
عبدِ الملكِ فى القُفولِ ، والغلمانُ يَضطربونَ عليه وطمِعوا فى ردِّ الدولة . فقالَ
لهم عبدُ الرحمنِ اصبروا . فكشفوا ما فى أنفسِهم له ، وقالوا : وإنَّما نحنُ فى
حِجرِ آلِ أبى عامرٍ الدهرَ الداهرِ ؟ ! نَلحقُ ببابِ مولانا الخليفةِ هشامٍ ولا
١٥ نتدَبَّرُ إلا بأمرِه . فتقدَّمه إلى قرطبةَ منهم نحوُ سبعمائةٍ معهم عُبيدُ اللهِ بنُ بدرٍ .
ثم جاءَه بعدُ إذنُ أخيه ، فقدِمَ هو بسائرِ العسكرِ . وتجدَّدَ يومَ وَردَ قرطبةَ من
الحُزنِ بابنِ أبى عامرٍ ، وحرَّكه خدَمُه وقيانُه قد أُلبستِ المسوحَ والأكسيةَ
بعد الوَشْيِ والحِبَرِ ، ما لا شىءَ فوقَه .

أخبرَنى أبى قالَ : سَمعتُ محمدَ بنَ أبى عامرٍ يُوصى ابنَه عبدَ الملكِ فى
٢٠ مَرضتِه تلك ويقولُ فى جملةِ كلامِه : يا بُنيَّ ، لستَ تجدُ أنصحَ لك منى فلا
تَعدُّينَّ مشورتى ؛ فقد جرَّدتُ لك رأيي ورويَّتى على حينِ اجتماعٍ من ذِهنى .

فاجعلها مِثالاً بينَ يديك . قد وطَّأتُ لك مِهادَ الدولةِ ، وعدّلتُ لك طبقاتِ أوليائها ، وغايرتُ لك بينَ دخلِ المملكةِ وخَرجِها ، واستكثرتُ لك من أطعمتها وعُدَدِها ، وخلّفتُ جبايةً تزيدُ على ما ينوبُك لجيشك ونفقتك ؛ فلا تُطلقْ يدكَ فى الإنفاق ، ولا تقبِّضْ لظَلَمةِ العُمّال ، فيختلّ أمرُك سريعاً ، فكلُّ سَرَفٍ راجعٌ إلى اختلالٍ لا محالة . فاقصِدْ فى أمرك جهدَك ، واستثبتْ فيما يرفعُ أهلُ السِّعايةِ إليك . والرعيّةُ قد استقصيتُ لك تقويمَها ، وأعظمُ مُناها أن تأمنَ البادرةَ وتسكنَ إلى لِينِ الجَنْبة . وصاحبُ القصرِ قد علمتَ مذهبَه ، وأنّه لا يأتيك من قِبَلِه شىءٌ تكرهُه والآفةُ[1] ممّن يتولاّه ويلتمسُ الوثوبَ باسمه ، فلا تنمْ عن هذه الطائفةِ جُملة ، ولا ترفعْ عنها سُوءَ ظنٍّ وتُهمة ، وعاجلْ بها مَن خِفته على أقلِّ بادرة ، مع قيامِك بأسبابِ صاحبِ القصر على أتمِّ وجه ؛ فليسَ لك ولا لأصحابك شىءٌ يقيكم الحِنْثَ فى يَمينِ البيعةِ إلا ما تُقيمه لوليّها من هذه النفقة . فأمّا الانفرادُ بالتدبيرِ دونه معَ ما بلوتَه من جَهلِه وعجزِه عنه ، فإنّى أرجو أنّى وإياكَ منه فى سَعَةٍ ما تمسّكنا بالكتابِ والسُّنة . والمالُ المخزونُ عند والدتك ، هو ذخيرةُ مملكتك ، وعدّةٌ لحاجةٍ تنزلُ بك ، فأقِمْهُ مقامَ الجارحةِ من جوارحِك التى لا تبذلُها إلّا عندَ الشدةِ تخافُ منها على سائرِ جسدِك . ومادّةُ الخراجِ غيرُ منقطِعةٍ عنك بالحالةِ المعتدلة . وأخوك عبدُ الرحمنِ قد صيّرتُ إليه فى حياتى ما رجوتُ أنى قد خرجتُ له فيه عن حقّه من ميراثى ، وأخرجتُه عن وِلايةِ الثغر لئلا يجدَ العدوُّ مَساغاً بينكما فى خِلافِ وصيّتى فيُسرعَ ذلك فى نَقْضِ أمرى ، ويجلبَ الفاقرةَ على دولتى . وقد كفيتُك الحِيرة فيه فاكفِه الحَيْفَ منك . وكذلك سائرُ أهلِك فيما صنعتُ فيهم بحسبِ

(١) رسم الكلمة فى الأصل : والآفا .

ما قدّرتُ به خَلاصى من مال الله الذى فى يدى . وخِلافتُك بعدى أجدَى
عليهم ممّا[1] صرفتُه ؛ فلا تُضيّعْ أمرَ جميعِهم ، والحظْهم بعَينى ، فإنك أبوهم بعدى .
فخرِّجْ ذكورَهم باستخدامِك ، وألحِفْ إناثَهم جناحَك ، جبرَ الله جماعتَهم ،
وأحسنَ الخلافةَ عليكم . فإن انقادَتْ لك الأمورُ بالحضرةِ فهـذا وَجهُ العَمَل ،
٥ وسَبيلُ السِّيرة ، وإن اعتاصتْ عليك فلا تُلقيَنَّ بيدِك إلقاءَ الأَمَةِ ، ولا تَنظرْ
بك وأصحابك السلامةَ فتنسَوْا ما لـكم فى نُفوسِ بنى أُمَيَّة وشيعتِهم بقُرطبة . فإن
قاومتَ من توثَّبَ عليك منهم فلا تَذْهَل عن الحَزمِ فيهم ، وإن خِفتَ الضعفَ
فانتبذْ بخاصتِك وغِلمانك إلى بعض الأطراف التى حصّنتُها لك . واختبرْ غدَك
إن أنـكرتَ يومَك . وإياك أن تضعَ يدَك فى يد مَروانىٍّ ما طاوَعتْك بنانُك ،
١٠ فإنى أعرِفُ ذَنبى إليهم .

قال : وسمعتُه يقول لغِلمانه عند هذه الوصيّة : تَنبَّهوا لأمرِكم ، واحفظوا
نعمةَ الله عليكم ، فى طاعةِ عبد الملك أخيكم ومولاكم ، ولا تغرنّـكم بوارقُ بنى
أُمية ، ومواعيدُ مَن يطلبُ منهم شَتاتَـكم . وقدِّروا ما فى قلوبِهم وقلوبِ
شيعتِهم بقرطبةَ من الحقدِ عليكم ، فليسَ يرأسُـكم بعدى أشفقُ عليكم مِن
١٥ وَلدى . ومِلاكُ أمرِكم أن تنسَوْا الأحقادَ وأن تكونَ جماعتُـكم كرجلٍ واحدٍ ، | ٥١
فإنه لا يُفَلُّ فيكم . وما زال يُكرِّر هذا وشِبهَه لطائفةٍ بعد أُخرى حتى ضَعُفَ
وشُغِلَ بنفسِه .

قيامُ عبدِ الملكِ ابنِه بالدَّوْلة

ولمّا وردَ النبأُ بموته ركبَ عبدُ الملك إلى هشامٍ ونَعى إليه المنصورَ أباه ،
٢٠ فأظهرَ الإشفاقَ ، وعرّفه بما اضطربَ من أمرِ الفِتيانِ وعصيانِهم ؛ فخرجَ هِشامٌ

(١) فى الأصل : ما .

وأمره بتدبير أمرهم بحسب ما يستقيم به أمر الدولة ، وحذره مواقعة الدماء وتلقيح الفتنة ، وخلع عليه ، وأخرج معه كتابه بولاية الحجابة مكان أبيه ، وقرئ[1] على الكافة ، وأنشئ به الكتب إلى الأقطار . وعاقب بعض الفتيان العاصين ، وأخرج بعضهم إلى سبتة ، فما قفلوا عنها إلا عند وثوب المهدى بن عبد الجبار على الدولة العامرية . ثم وافى العسكر الكبير مع أخيه عبد الرحمن ، واجتمع الشمل ، وتمكنت الطاعة ، وأيس الأعداء من دولة بنى عامر ، وعلموا أنها وراثة .

وأسقط عبد الملك سدس الجباية لأول ولايته فى جميع أقطار الأندلس عن الرعية ، فراقت أيامه ، وأحبه الناس سرا وعلانية ، وانصب الإقبال والتأييد عليه انصبابا لم يسمع بمثله . وسكن الناس منه إلى عفاف ونزاهة نفس ، فباحوا بالنعمة ، وأخذوا فى المكاسب والزينة من المراكب والملابس والقيان ، حتى سمت أثمان هذه الأشياء فى مدته . وبلغت الأندلس فى أيامه إلى نهاية الجمال والكمال وسعة الحال ، فى كنف ملك مقتبل السعد ، ميمون الطائر ، غافل عن الأيام ، مسرور بما تنافس فيه رعيته من زخرف دنياها . فاجتمع الناس على حبه ، ونجا من الفتن . وأخباره فى ذلك مأثورة . وكان على أهل الأندلس أسعد مولود ولد . بلغنى عن أحمد بن فارس البصرى المنجم زعيم الصناعة بها على عهد الحكم ، أنه نظر فى مولد عبد الملك هذا وهو طفل فأشار من بعد سعادته إلى أمر كبير [و] لم يدرك هو وأخوه ، فعجب من شاهده من جودة إصابته ، وذلك أنه قال : لم يولد قط بالأندلس مولود أسعد منه على أبيه وعلى نفسه وحاشيته . نعم ! وعلى أهل الأندلس طرا ، وعلى أرضها فضلا عن

(١) فى الأصل : وقوى .

ناسِها، وأنَّها لا تزالُ بخيرٍ حياته، وإذا هلكَ ما أراها إلاّ بالضِّد. قالَ ابنُ حيَّان: سمعتُ هذا الحديثَ عَن ابنِ فارسٍ مِن غيرِ ما طَريق، فكانَ كما قال. لقد حدثَ بالأندلسِ إثرَ مَهلِكه ما هو مَشهورٌ.

وكانَ عبدُ الملكِ من أحْيَا الناسِ، فإذا كانت الحربُ عُوينَ منه الأَسدُ المُحَرَّبُ فى بَرائِنه حَطْماً وشِدَّة. من رَجلٍ عَديمِ الفَهْمِ والمعرفةِ جُملة، صِفْرٍ من الأدبِ والتعاليم، حتَّى ما كانَ يُسايرُه وينادِمُه إلاّ العَجمُ مِن الجلالقةِ والبرابرةِ ممّن لا يَهشُّ لسماعٍ، ولا يَطربُ لإيقاع. فارتفعتْ بذلكَ عن مَجالسِ لَهوِه طبقَةُ المعرفة، وقُوِّضَ عنها كلُّ فاضلٍ وعالِم، واعتاضَ منهم بجُفاةِ البرابرِ والأعاجِم. إلاّ أنَّه مع زُهـدِه فى الأدبِ تمسَّكَ بمن كانَ استخلصَه أبوه مِن طبقاتِ أهلِ المعرفةِ من خَطيبٍ وشاعرٍ، ونَديمٍ وشِطْرَنجيٍّ، ومُعدِّلٍ وتاريخيٍّ وغيرِهم، حفظاً لصنائعِ والدِه وقياماً بِرُسُومِه، فقرَّرهم على مَراتبهم، ولم يَنقصْهم سِوى الفوزِ بخُصوصيَّتِه. وكانت تُرفع إليه بَطائقُ أهلِ الشِّعرِ ويَصلُهم، على تَساهلِهم فى مَديحه لأمانِهم مِن نَظرِه فيها. وأحرزَ لهم مع الفائدةِ عفوُ القريحة، وذلكَ بيِّنٌ لمَنْ تأمَّله فى أشعارِ مادحِيه لفُتورِها. ثم أغرقَ عبدُ الملكِ النَّزعَ فى دَولته، وانهمكَ فى طلَبِ الآلاتِ المُلوكيَّة حتى جُلِبَ إليـه مِن ذلكَ كلُّ عِلْقٍ خطير، وتأنَّقَ فى مَراكبه هو وأصحابُه بالحِلية التامَّةِ بخالصِ اللُّجَين. عَهْدى به يومَ فُصُولِه لغزوته سـنةَ ثمانٍ وتسعينَ التى احتفلَ فيها لشانجه بن غَرْسيَة، واستكثرَ فيهـا من العُدَّةِ والعَددِ، فبرزَ على جوادٍ من مُقرَباته[1] المنسوبةِ، بأفخمِ تلكَ المراكبِ المُسَلسلَةِ، ولَبُوسِ دِرعٍ فِضيَّةٍ مطرَّزةٍ بالذهب، وعلى رأسه خَوْذَةٌ[2] مُثمَّنةُ الشَّكلِ، مُحدَّدةُ الرأسِ، مُرصَّعةُ الطُّرقِ بدُرٍّ فاخرٍ،

(١) فى الأصل: مغرياته. (٢) فى الأصل: حزرة.

واسطتُه حَجَرُ ياقوتٍ أحمرُ مرتفعُ القِيمة ؛ قد لزِمَ وَسطَ الجيشِ ، وطَرحَ الشعاعُ على سُنَّةِ وجهِهِ ، فما رأى الناسُ بعدَه ملِكاً يَعدِلُه فى البهاءِ والبهجة.

|٥٢ وكانتْ مما راقتْ به دولتُه فى الجمالِ ما نلاحقَ فيها [مِن] غِلمانِ أبيه العامريِّين الناسبِينَ فى دَولةِ المنصور ، وكان قد وفَّرَ عنايتَه بهم ، وجدَّ فى تدريبِهم ، ووقفَ حُذَّاقَ المُناقِفِينَ على تخريجِهم ، فأثمر غرسُهم ، وأمكنَ جناهُم ، وراقتْ ٥ جُملتُهم فى الفُروسيَّةِ والرِّماية ، وبَلغوا ألفَيْ غُلام . وانهمكَ أيضًا فى اصطناعِ البرابرَةِ العُدْويِّينَ ، ودعا القبائلَ منهم إلى الدخُولِ إليه والخِدمةِ له.

وكانَ من أعظمِ مَن هاجرَ إليه منهم زاوى بنُ زيرى بنِ مَناد الصِّنهاجيُّ عمُّ أبى المعزِّ بنِ باديس بنِ مَنصورٍ صاحبِ إفريقيّةَ وصاحبِ الفِرقةِ الخارجةِ عليـه من أهلِ بيتِه . وكان المنصورُ أيامَه قد التوَى فى الإذنِ له بالدُّخولِ إلى ١٠ الأندلسِ حذَرًا من دَهْيِهِ ومكرِه و بُعْدِ صيتِهِ فى المغربِ . فأضربَ عبدُ الملك عن(١) الفِكْر فى شأنِه وطلبَ السُّمعةَ باستخدامِ مِثلِه ، فأدخلَه بمن معه من إخوتِه ، وهم مِن سَعةِ النِّعمةِ و بُعدِ الهِممِ واستصغارِ الرغائبِ فيما يكونُ عليه أشباهُهم من أبناءِ الملوكِ . فاستقلُّوا ما وصلَهم به عبدُ الملك على كَثرتِه ، وما استقرُّ[وا] الدارَ إلاّ على قلعةٍ ، ولا [حَمِدوا(٢)] معروفَهم ، ولا لَبِسُوا أعالىَ المراتبِ السلطانيةِ ٧٥ ١٥ إلاّ على ابتذالٍ ومَحْقرَة ، ولا قَطعوا أمَدَ المُقامِ بالأندلسِ إلاّ بذِكرِ الرِّحلةِ والتماسِ التسريحِ بُكرةً وعَشيّة ، جهلاً وفَرْطَ أنفَة ؛ والأقدارُ موكَّلةٌ بثَنْيِ عزمِ عبدِالملكِ عن إسعافِهم بسراحِهم لِما كان قدَّره — عزَّ وجهُه — مِن الفِتْنةِ وتفريقِ شملِ الأندلسِ بأشباهِهم . فلم يَخرجوا عنها إلى أنْ قاموا على الجماعةِ ،

(١) فى الأصل : فى الفكر عن شأنه .

(٢) فى الأصل : بياض والسياق يقتضى ما أثبتناه أو ما فى معناه .

وشغبُوا عليها بعدَ عبدِ الملك . وكان شيخُهم زاوِى أوّلَ دُخولِهِ الأندلس يُظهِر [من] أنواعَ البِرِّ والبِشْرِ للناس ما لا شىء فوقَه . وكان شأنُه فى الدَّهْيِ والمكرِ والخَلابَةِ عجَبًا . وكانَ يَرجِـعُ فى[1] إقامة ما اعتادَه مِن سَعَةِ إنفاقِه إلى ما جاء به من بلدِهِ من عُقودٍ وذخائرَ ، فيبيعُ من ذلك النفيسَ والخَطير ، وربما اشترَى من ذلك عبدُ الملك فيزيدُ فى حسرتِه . وكان عبدُ الملك [راغبًا] فى رفعةِ منزلتِه ، وولّاه الوزارةَ أرفعَ خُططِ أصحابِ السلطانِ بالأندلس . ووصلَ إليـه الرسولُ بالصَّكِّ فى ذلك وطلب أن يصلَه عليه ، فقال : لوجئتنا بمالٍ لأسهمناكَ ، وإنما [خُطَّتُنا الحربُ][2] لا الوزارة ، وأقلامُنا الرماحُ ، وصحائفُنا الأجساد . ولم يَمتنعْ عبدُ الملك مع غَطرسةِ زَاوِى هذا مِن إقامةِ الحدِّ على مَن وجبَ عليه مِن أهلِه : عَدا ابنُ أخيه على مَولًى لهم فقتلَه فأقادَه عبدُ الملك لحينِه ، وأسلمَه أهلُه السيفَ فضُربتْ عُنقُه على قَتيلِه ذلك ، بمقبرةِ كَلاعٍ بمشهدٍ عظيمٍ من الناسِ ، وأُسلمتْ جثّتُه إلى أهلِه . ونبَتْ الأندلسُ بعدُ بأخِى زيرى أبيهِ فقوَّضَ عنها أوّلَ المقوِّضينَ مِن صِنهاجةَ بِسَراحٍ[3] مِن عبدِ الملك .

قالَ ابنُ حيّان : وانبسطَتْ حاشيةُ الخليفةِ هشامٍ على عبدِ الملك طولَ مدتِه فى جميع أحوالِها ، فحملَهم على مُرادِهم . وانهمكَ هشامٌ طُولَ أيامِه فلم يَظهرْ وقتًا فيها ، ولا شهِدَ صلاةً ، واحتجبَ فى نُزَهِهِ الباطنـةِ على رَسمِهِ فى أيام أبيه المنصور . وبلَّغَه منها عبدُ الملك بُغيتَه ، وجعلَ يُخرجُه إليها مع حُرمِه مستخفِيًا

(١) فى الأصل : « إلى » .

(٢) فى الأصل : وإنما خططتها لا الوزارة . . . . وواضح أن هناك سقط ولعل ما أثبتناه هو الصواب .

(٣) الباء غير ا[illegible] ب[illegible]ا صل إلى الواو .

بعدَ طردِ الناس عن طريقه ، فيضربُ به إلى كلِّ ناحيةٍ ، ثم يَعود إلى قصرِه .
ونالَ فى مدّةِ هـذا الانهماكِ والدَّعة أهلُ الاحتيالِ منَ الناسِ عندَهم الرغائبَ
النفيسة ، بما ازدَلفُوا به من أثرٍ كريمٍ ، أو زخرفوه مِن كذبٍ صريح ، حتَّى لقد
اجتمعَ عندَ نساء القصر ثمانيـةُ حَوافرَ عُزِىَ جميعُها إلى حِمارِ عُزَيْرٍ المُستَحيَى
بالآيةِ الباهرةِ . واجتمعَ عندهن من خَشبِ سفينةِ نُوح عليه السلام وألواحِها ٥
قطعة ، وظَفِرنَ من نَسلِ غَنمِ شُعيبٍ عليه السلامُ بثلاث . وكَلِفنَ مِن هذا
ومثلِه لعفَّتهنّ وزُهدِ صاحبهنّ بأشياء توجّهتْ على أموالهن مِن قِبَلها أعظمُ حِيلة ،
ولَهِجنَ مع ذلك بطلَبِ ذَوِى الأسماء الغريبةِ من الناس ، الموافقةِ أسماؤهم لمن
اجتَباهُ اللهُ مِن خَلقه ، مثلُ عبدِ النورِ وعبدِ السَميعِ وعبدِ اللطيف وعبدِ المؤمن
وحِزبِ الله ونصرِ الله وفَضلِ الله ، ومثلُ ياسينَ واليَسَعَ ومَن جانَسَه ، يَصِيرُ ١٠
الرجلُ من هؤلاء فى الحاشيةِ ، ويُستعملُ على وكالةِ جِهَةٍ ، ولا يَبعدُ أن يتموّلَ
فى أقربِ مدّةٍ ، وإن اتَّفقَ مع ذلك أن يكونَ ذا لحيةٍ عَثْلَويّةٍ ، وصاحبَ سِبالٍ
وهامة ، فقد تَمَّتْ له السَّعادة ، ولاسيّما إن كانت لحيتُه حمراء قانِية ، فإنّها
أجدَى عليه مِن دارِ البطِّيخ غَلَّة ، ثم لا يُسألْ عما وراءَ رُوائه من أصلٍ
ولا فضيلةٍ ولو كان مُردَّدًا فى بنى اللخناء[1] ، وعارِيًا من جميع الخِصال ، ١٥
والأخبارُ فى مثل هذا عنهنّ كثيرةٌ مأثورةٌ . فباهَتْ حُرَمُ هِشامٍ بمثلِ[2] هذه
المعانى الشاذّة ، وبذلنَ الأموالَ فى التماسِها بما لم يُسمع مثلُها . ولم تزَلِ الدولةُ
تَزدادُ انهماكاً إلى أن ماتَ عبدُ الملك ، وكَبَتْ كبوةً لم تستقِلْها آخرَ الدهر .
قالَ ابنُ حيّان : وكانتْ وِلايةُ عبدِ الملك وفِرَقُ النصرانيةِ بأسرِها
منتقِضَةٌ ، وعهـدُها قريبٌ بالاجتماعِ على المسلمين ، واطماعُها بموتِ حَتفِها ٢٠

٥٣|

(١) الكلمة مطموسة فى الأصل ، وما أثبتناه أقرب قراءة لها .
(٢) فى الأصل : من مثل .

المنصورِ ثابتةٌ . وكانتْ الإفرنجةُ فى آخرِ وقتِ المنصورِ قد تمسَّكتْ بالمُسالمةِ ، فلمَّا سمِعَتْ بموتِه طمِعَت ، واحتاجَ عبدُ الملكِ إلى التثاقُلِ عنهم توطيدًا للحضرةِ ، إلى أنِ اعتـدلَتْ فيها الدَّولة ، وأخبارُ الثغورِ تُوافيه كلَّ وقتٍ بما لا يوافقُه . وكان أهمَّ جُموعِ طَوائفِ الطواغيتِ عليه يومئذٍ أمراً[١] شيطانهم الرَّجيم ، ومُغويهم الزعيم ، شانجُهْ بن غرسية بنِ فرْدِلَنْد صاحبُ قشتيلة . وكانَ يليه فى النِّكايةِ مِنندس [بن] غُندشلْب قومْس[٢] غليسية ، وكافلُ ملِـكهم أذْفونْش بنِ برمُند ، وسائرُ القواميس[٢] عندهما سَقْطٌ وحاشيَة . فقدَّمَ عبـدُ الملِكِ الحذرَ منهما ، فألقَى مولاه واضحًا الفتى صاحبَ مدينةِ سالمٍ على شانُجه فصالَحَه واضحٌ سنةَ ثلاثٍ وتسعينَ ولاطفَه إلى أن تمهَّدَت قواعدُ الدولةِ . وجرَّدَ عبدُ الملكِ يومئذٍ إلى ثغرِ قُلُمْرِية قاصيةِ الثغرِ الجوْفىِّ المواجهِ لأرضِ غَليسية جيشًا كثيفًا ، وبَقِيَ فى وجهِ مِنندس [بن] غُندشلْب ، وصمدَ[٣] عبدُ الملك بلدَ الإفرنجةِ إذْ لم تزَلْ عندَ وُلاةِ الأندلسِ مَبدأَ كلِّ عِلةٍ ، فاستعدَّ لقصدِهم ، واقتحَم أرضَهم فى جُموعِه وأوغلَ[٤] فى بَسيطِ بَرْشِلونة ، وحطَّمَ غيرَ ما مدينة ، وعادَ قافلاً سالمًا غانمًا . فهابَتْه الإفرنجةُ وأذعنَتْ إلى السِّلمِ ، وجاءَ رسولُها إلى قُرطبةَ ، وَقد أعدَّ عبدُ الملكِ لوُرودِه أكملَ العُدَّةِ من ترتيبِ الجنودِ ، فكانَ يومُ دخلَ ذلك الرسولُ بقرطبةَ آخرَ أيامِ الزِّينةِ ، إذ انتقَضَ المُلكُ على أثرِه سريعًا ووقعتْ الفتنة .

قال ابنُ حيان : سمعتُ بعضَ المشايخِ يومئذٍ يقولُ : إنه ما كانَ بالأندلُسِ مثلُ ذلك فى أمَدِ الدولةِ ، بما اجتمعَ له مِن كثرةِ الجمْعِ والزينةِ والعزة

(١) فى الأصل : أمير شيطانهم .

(٢) فى الأصل : قومين ... ... قوامين . (٣) فى الأصل : وصد .

(٤) رسم الكلمة فى الأصل : وأوعلى .

السُّلطانية . وأمّا التُّجارُ الغرباء فدخَلوا يومئذٍ إلى موضعٍ هَيئةِ[١] التجافِيفِ والأعلامِ المصوَّرةِ وسائرِ القِطَعِ العَجَمِيّةِ والقَنا الهنديّةِ ، ومَوقِفِ خَيلِ الرِّكابِ بالسُّروجِ الثِقالِ ، والتِّراسِ المُذْهَبةِ والمُفضَّضَة ، معها بِغالُ الرِّكابِ الرائقةُ فى زيِّها المشهور ، وما اتصلَ بذلك مِن عُدّةٍ غريبة . وتوصَّلَ أُولئك التُّجارُ إلى ذلك المكانِ قبلَ إباحتِه للنظّارةِ بإذنٍ التمسوه مِن عبدِ الملك ، فلم يَختلفُوا فى استِيساعِ[٢] ماعاينُوه ، واتَّفقوا — وكانوا جُملةَ عَراقيِّينَ ومِصريِّين وغيرهم — على أنَّه ما شاهَدُوا لأحدٍ من مُلوكهم مِثلَه .

ولما أحكمَ عبدُ الملكِ الشدَّ لفِتَنِ الفِرنجةِ دبَّرَ قصدَ شانجُه ، فخرَجَ نحوَه صائفةَ سنةَ أربعٍ وتسعينَ ، وأوْغلَ فى أرضه[٣] وخامَ عنـه شانجُه ولم يَظهر له ، وقفلَ عبدُ الملكِ إلى قرطبةَ . فاضطُرَّ شانجُه إلى السِّلمِ ووَفَد بنفسِه إلى قرطبةَ ، فأعظَمَ عبدُ الملكِ مَوْردَه ، وضمِنَ أن يغزُوَ معه قومَه . فخرجَ مع عبدِ الملكِ سنةَ خمسٍ وتسعين ، فاقتحمَ جِلِّيقيةَ وغادرَ أعمالَ بنى غومَس[٤] مُضْمَلةً ، وهدَى المسلمينَ شانجُه إلى عَوْراتِ قومِه ، وانتهى بهم إلى مدينةِ لِيونه وهىَ مِنْ أمنعِ المعاقِلِ ، ولم يكنْ المنصورُ بلغَها لصُعوبتها . وطمِعَ عبدُ الملكِ فيها ونازَلَها فأعْيت عليه ، وقفَلَ إلى قُرطبة . وبقِيَ شانجُه فى مُسالمته ثلاثةَ أعوامٍ يستعِدُّ لحربه . فأحسَّ عبدُ الملكِ بغَدْره ، فسابَقَه بالغزوِ سنةَ ستٍّ بعدَها ، وضحَّى[٥] عبدُ الملكِ يومئذٍ بمدينةِ سالمٍ . ووافاهُ هنالكَ رسولُ الرّومِ مِنَ القُسطنطينيّةِ بكتابهِ إليه ، يسألهُ المواصَلةَ على سبيلِ سَلَفِه معَ مُلوكِ المَرْوانيّة . وساقَ لهُ

(١) رسم الكلمة فى الأصل . هنية . (٢) فى الأصل : استساع .
(٣) فى الأصل : فى أرض وحام . . . (٤) فى الأصل : غوس .
(٥) فى الأصل : وصحى .

هديةً وعِدّةً مِنْ أسارَى الأندلسِ طير(١) عليهمْ بأطرافِ جزائرِه البحرية ، فسُرَّ عبدُ الملكِ بذلك ، وإذا كتابُه مكتوبٌ بالذهبِ على رسمِ مُلوكِ الرّومِ الذى فاتَ الصَّنعة . وذكرَ صاعدٌ ورُودَ ذلكَ الرّسولِ فى شعرٍ قالَ فيه :

زلزلتَ بالمُرْهَفاتِ صاحبَ قسطنطينَ حتّى اتّقاكَ بالكُتُبِ

٥ يَطْلُبُ فيها رِضاكَ مُجْتهدًا مِنْ قَبْلِ أنْ يتقيكَ بالهَربِ

فليسَ بالفائتِ(٢) البعيدُ معَ اللـهِ إذا [ما] هممتَ بالطَّلَبِ

وتمادَى استعدادُ شانجه سِرًّا لِغزوِ عبدِ الملكِ فسابَقَهُ سنةَ سبعٍ وتسعين ، وظهرَ المُسلمون عليهم . ثُمَّ قفَلَ إلى قرطبةَ آخرَ ذى الحجة منها . ثُمَّ غزا سنةَ ثمانٍ غزوتَه الأخيرةَ فى شوّال ، فاعتلَّ فى مدينةِ سالم ، ورجَعَ إلى قُرطبةَ مُحرَّمَ

١٠ سنةِ تسعٍ وتسعين . فكانتْ آخرَ غَزاةٍ نفذتْ(٣) إلى بلادِ الحربِ لوشكان موتِه فى صفرٍ منها . وضبطَ أخوه عبدُ الرحمنَ الأمرَ بعدَهُ لنفسه .

٥٤

(١) كذا بالأصل : ولعلها ظهر . (٢) فى الأصل : من الفائت .

(٣) فى الأصل — نفدت — بغير نقطة على الدال ، وكذا فى جميع المواطن السابقة التى ذكرت فيها الكلمة فى هذا المجلد .

فصلٌ فى ذكرِ الوزيرِ أبى الفضْلِ محمّدِ بنِ عبدِ الواحدِ البغْدادىِّ الدّارمىِّ ، وإثباتِ جُملةٍ منْ أشعارهِ مع مَا يتشبَّثُ بها مِنْ طريفِ أخبارهِ .

بَلغنى أنّه خرجَ مِنْ بغدادَ إذْ ماتَ أبوه ، وأساءَ عِشْرتَه أخوه ، وسِنّه دونَ العشرين ، فلَحِقَ بالأميرِ محمود ، وشهِدَ حروبَهُ بأرضِ الهنود ، ولهُ فيه غيرُ ما قصيد . إلى أنْ تُوفِّى فوَلِىَ أكبرُ ولَدِه بعده ، فبقِىَ أبو الفضْلِ على حالهِ عنده ، إلى أنْ خرجَ بعضُ إخوتهِ عليه ، فنهضَ لحرْبه ، فدبَّر[1] وزراؤُه فى طريقهِ الفتكَ به ، وشاوَروا أبا الفضْلِ فى القضيّة ، فأبَى من تلكَ الدّنيّة ، وأوْدعَ أُذُنَ الأميرِ ، ذلكَ التّدبير . فخافَ وزراؤُه أن يَفتضِحوا ، وعاجَلوه قبلَ أن يُصبحوا ، وقيّدوه قبل أن يَقْدمَ أخوه ، فسبقَهم أبو الفضل إليه ، وقصَّ ما فعلوه بأخيه عليه . فشكرَ له وفاءَه لصاحبه ، وقال : الوفاءُ حِليَةُ الأحرار ، والغدرُ ثوبُ الأشرار . ووصلَ القومُ بَعْدُ بأخيه ، ففكَّ عن أغلالهِ ، وحبسَه عند بعضِ عُمّالهِ . وضربَ أعناقَ الغَدَرة ، وقرّبَ أبا الفضلِ واستوزَره ، إلى أن خرج عنه فى خبرٍ طويل . ولحقَ بِشِرْوان شاه وصَحِبه إلى أن تُوفى أيضًا . وولَّوْا أخاه ، فكاتبَ أبو[2] الفضلِ الخليفةَ أبا جعفرٍ القائمَ ببغدادَ فى الوصول إليه ، فاتفقَ ورودُ كتابهِ إثرَ وفودِ رسولِ المعز بنِ باديس عليه ، فطابَ الخليفةُ رجلاً يَسفُر بينهما ، فأرشِدَ إلى أبى الفضل ، فوجَّه عنه ، ووردَ فجهّزه . وخرجَ مُستتِرًا من بلدٍ إلى بلد حتى وصلَ حلب ، فاشتهرَ خبرُه ، وطُلب فمدحَ معزَّ الدولةِ بقصيدته التى أوّلُها : « عُهودَ الصِّبا مَنْ بعدَ عهدِكِ آمَلُ » فأمرَ له بثيابٍ سَرِيّة ، وحمَلَه على فرسٍ عَرَبيّة . ثم انفصَلَ عنه واجتاز بمعرّة

(١) فى الأصل : فدبروا وزراءه . (٢) فى الأصل : أبا الفضل .

النُّعمان ، وبها المعرّى أحمدُ بنُ سليمان . فوصلَ إليه ، وأنشدَه قصيدتَه اللامية ، فقبّل المعرّى بينَ عينَيْه ، وقال له : بأبى أنت مِن ناظم ! ما أراكَ إلاّ الرّسُولَ إلى المغرِب . فوصلَ مِصر ووزيرُها يومئذٍ صَدَقَةُ بنُ يوسفَ بنِ على الملقّبُ بالفلاّحى . فقصدَ مجلسَ قاضى القُضاةِ بها ، وأثبتَ عقدًا على رجلٍ مشهورٍ كانَ يومئذٍ ببلاد المغرب بشهاداتٍ زُور ، ولمّا ثبتَ ذلك من الطُّومار ، خرجَ مِن مصر فى زىّ التُّجار ، يَؤُمُّ بلادَ إفريقية . فوقعَ على خبرِه صاحبُ الإسكندرية ، وطلبَه فأعجزَه . و بلغَ أطرابُلُسَ المغربِ أوّلَ عملِ المعزّ ، فأُفشِىَ أمرُه ، وفُضِحَ سِرُّه . فأمرَ المعزُّ بإشخاصِه . فلمّا وصلَ سُعِىَ به عنده وأرادَ قتلَه ، فقال له : تأنَّ فى ، واستقصِ علىّ ، فإنْ صدقتُ و إلاّ قُتلتُ . فمشَى أبو الفضلِ بالقَيْروانِ مُراقِبًا عليه ، إلى أن وردَ كِتابُ القائمِ بِصِدْقه ، فاعتذَر إليه ، ورفعَ منزلتَه ، وأكرمَه و بسطَ يدَه فى مَطالِبِيه ، وحكّمه [1] . فحملَهم أبو الفضلِ إلى منزلِه ، وأحسنَ إليهم ، وخلعَ عليهم . فعجبَ المعزُّ من كرمِه ، وقلّدَه تدبيرَ حَشَمِه . وكان وُرودُ أبى الفضلِ بلدَ القَيْروانِ سنةَ تِسْعٍ وثلاثين . حكى ذلك أبو علىّ ابنُ رَشيق ، وقال إنه أوّلُ من أدخلَ كِتابَ اليتيمةِ للثعالبى عندهم ، وشَهِدَ حصارَ القيروان معهم . فلمّا كان عامُ ستةٍ وأربعين صَرفَ المعزُّ خُطبتَه إلى صاحبِ مصر ، ونبذَ العبّاسيّة . فخرجَ أبو الفضل إلى سُوسة ، فتطاولَ عليه أهلُها ، فخرجَ عنهم بعدَ أن أوقعَ الفتنةَ بينهم ، وتركهم فِرقتَيْن : قيسيّةً و يمنيّةً ، وأوقعَ فى نفوسِهم أنّ الحربَ قائمة بين هاتين القبيلتين إلى يوم القيامة . فاقتتلَ الفريقان إلى أن تغلّبَ عليهم تميمُ بنُ المُعزّ ، وتَردّد أبو الفضل هنالك عدّةَ سنين ، وشهد الحروبَ معَ بُلُقّين . ثم انتبذ من تلك الناحية وركبَ البحر ،

(١) يريد وحكمه فيمن سعوا به .

فنزلَ بدانية ، فبعثَ إليه أميرُها ابنُ مُجاهِد بلحمٍ وأرباعِ دقيقٍ أولَ نزولِه ، فصرفَها فى وجهِ رسُولِه ، وتَعجّلَ الارتحالَ عنه إلى بَلنسيةَ فلقىَ برًّا . واستجلبه المأمونُ بنُ ذى النُّون فحسّنَ بِطُليطُلةَ مَثواه ، وأجزلَ قِراه ، وتَوسّعَ له ولعبيده فى البِرّ ، وأجرَى له ستينَ مِثقالاً فى الشهر . وكانَ دخولُه طُلَيْطُلة يومَ الجمعةِ لثلاثٍ بَقِينَ لجمادى الأُولى سنةَ أربعٍ وخمسين ، وتُوفِّى بها رحمه اللهُ منتصفَ شوالٍ سنةَ خمسٍ وخمسين . ومن غريب وفاءِ المأمون له — زعموا — أنه استمرّتْ جِرايتُه على حاشيتِه ، وتجافَى عن مِيراثِه وجعلَه وصيّةً له إذْ لم يُوصِ لفَجاءةِ وَفاتِه . ورثاه الحكَمُ أبو محمدِ بنُ خَليفة بشِعرٍ يقول فيه :

سَقَى اللهُ قبرًا حلَّ فيه أبو الفَضْلِ ... سَحابًا يَسِحُّ المُزنَ وبْلاً على وَبْلِ

وكيفَ يُسقِّى المزنُ قبرًا يحلُّه ... وفى طَيِّه بحرُ المكارمِ والفضلِ

وبَدرُ تَمامٍ من تَميمٍ نِجارُه ... ملوكٌ لهم قامَ الملوكُ على رِجْلِ

ومنها :

وما الدهرُ إلا آكلٌ مِن نُفوسِنا ... ونحنُ لديْه فى الحقيقةِ كالأُكْلِ

وهذا كقولِ المعرِّى :

وما الأرضُ إلاّ مِثلُنا[1] الرزقَ تَبْتغِى ... وتأكلُ مِن هـذا الأنامِ وتَشربُ

وقد كرّر المعرّى هذا المعنَى فى مَواضعَ[2] :

فَشِمْ صارمًا واركزْ قناةً فللردَى ... يَدٌ هِىَ أدرَى بالطِّعانِ وأدربُ

أفضُّ لِهاماتٍ وأرمَى بأسهمٍ ... وأطعنُ فى قلبِ الخميسِ وأضربُ

ووزيرُ مِصرَ الملقب بالفَلاّحى المتقدِّمُ الذكرِ ، والدُه كانَ يوسفَ بنَ علِيٍّ

(١) فى الأصل : « مثلث الرزق » والتصحيح عن اللزوميات .

(٢) اللزوميات ج ١ ص ٧٤ .

الذى هجاه الواسانىُّ بالقصيدةِ التى أوَّلُها[1] :

يا أهلَ جَيْرونَ هـل لِسامرِكُمْ إذ استقلّتْ كواكبُ الحَمَلِ

وهو يومئذٍ مُشرفٌ على دِمَشق فى أيّام الحاكم ، وهى قَصيدةٌ فى معناها فَريدةٌ . وقال الحاكم يومًا : أريدُ سماعَ هذه القَصيدةِ من رَجلٍ حسَنِ النشيد ، فقيلَ له صوتُ الذى قِيلتْ فيه لا أحدٌ يُجاريه ، فأُحضِرَ واستَعفى مِن نشيدها فلم يُعذَر ، وأنشدَ إلى أن انتهى إلى قولِ الواسانى فيها :

كنتُ على بابِ منزلى سَحَرًا أنتظرُ الشاكِرىَّ يُسرِجُ لى
وطالَ لَيـلى بحاجةٍ عَرَضَتْ باكَرتُها والنُّجومُ لم تَمِلِ
فمرَّ بى فى الظلامِ أسْودُ[2] كالـفيلِ عَريضُ الأكتافِ ذُوعَضَلِ
مُشقَّقُ الكَعبِ أفدعُ اليدِ والـرِّجْلِ طَويلُ الساقين فى سَمَلِ
فأهدتِ الريحُ منه لى أرَجًا مثلَ جَنَى الروضِ فى النَّدى الخَضِلِ
فصِحتُ مِن خلفِه رُوَيْدَكَ يا أسودُ مالى بالعَدْوِ مِن قِبَلِ
فكرَّ نحوى عَجْلانَ يعثُر فى مِرْطِ كِساءٍ مُبرغَثٍ قَمِلِ
وقد مَذَى فالمذىُّ يقطر مِنْ غُرمولِهِ فى الذُّيولِ كالوَشَلِ
وظَنَّ أنّى صَيْدٌ فأبرزَ لى فَيْشلةً مِثلَ رُكبةِ الجَمَلِ
وقال : لِجْ دارَكُمْ لأُولجَها فيكَ وإنْ كنتَ لم تُبَلْ فبُـلِ
فطالما أسهلتْ طبيعةُ مَنْ ليسَ لأمثالِها بمُحتمِلِ
فانظرْ إليها فإنْ رأيتَ لها شِبْهًا فلا تدْعُنى أبا الجُمَلِ[3]
وخُذْ عمودًا غِلافُه شَرَجٌ لم يُمتهَنْ ساعةً ولم يُذَلِ

---

(١) راجع القصيدة فى اليتيمة (ج ١ ص ٢٧٤) .
(٢) لم ترد فى الأصل والتصحيح عن اليتيمة .
(٣) فى الأصل : « أبا العجل » والتصحيح عن اليتيمة .

قلتُ له : والذى يمدُّ لك العُمْرَ ويُعطيك غايةَ الأمَلِ
ماشَقَّ دُبْرِىَ مُذ قطُّ فيشلةٌ ولا انتخابُ الأُيورِ مِن عَملى
ولا لهذا دُعيتَ[(1)] فأطلبْ لِغرْ مُولكَ مَنْ يَستلِذُّهُ بَدَلى
وهاتِ قلْ لى باللهِ من أينَ أقبلْتَ ودَعْنى مِن هذه العِلَلِ
فقال : لى بِتُّ عند عامِلكُمْ هذا أبى الفضل يُوسفَ بن على ٥
فصاكَ بى طِيبُه وصاكَ بهِ منى صُنانٌ فى حِدَّةِ البَصَلِ
تركْتُه فى النهارِ أخفشَ لا يَنظرُ فى خِدْمةٍ ولا عَمل
قلتُ تردَّيتَ[(2)] واعتديْتَ على شَيْخٍ نبيلٍ يُنمَى إلى نُبَلِ
لَعلّهُ غيرُه فصِفْهُ فما تَخدعُ مِثْلى بهذه الحِيَلِ
فقال : ياسيدى عجلتَ بمكروهِى وكانَ الإنسانُ مِن عَجَلِ ١٠
هذا[(3)] الذى بِتُّ عندَه نَصَفٌ دُونَ مُسِنٍ وفَوقَ مُكتهِلِ
أدَرُّ رِخْوُ العجانِ مُنحرِفُ المَبْسمِ ألحى مُهيَّجُ السُّفَلِ
أنتنُ مِن كلِّ مايُقال إذا بالَغَ فى النَّتْنِ ضاربُ المَثَلِ
نَعَم ، وفى بابِ سُرْمِه[(4)] وَضَحٌ أبيتُ ليلى منهُ على وَجَلِ
أخاف يُعدِى أيْرِى ببَرَصَتِه فاغتدِى مُثْلَةً مِنَ المُثَلِ ١٥
فقلتُ : هذه صِفاتُه ولقد شَغَلتَ قلبى بذلكَ الرجلِ

ومنها فى التعريض بعنشاً بن إبراهيم

فقلتُ قلْ لى من أينَ تعرِفُه فقالَ زِدْنى[(5)] من هذه العُقَلِ

---

(1) لم ترد فى الأصل . (2) فى اليتيمة « تزايدت » .
(3) فى الأصل « هو » . (4) فى الأصل « صرمه » .
(5) فى اليتيمة : ذرنى .

كنتُ أجيرًا ببئرٍ[1] مَعْصَرةٍ ... كانت قديمًا لكاتبِ البَجَلِ[2]

فنِمتُ يومًا وكنتُ من سَهَرِ الليـــلِ ... وقيذًا كالشاربِ الثَّمِلِ

فاجتازَ للحَيْنِ والقضا الذى حُـــمَّ ... منشًا فى مُوكبٍ زَجِـــلِ[3]

وكانَ منـــهُ التفاتةٌ فرأى ... ذيلَ قميصى قد قُدَّ من قُبُلِ

٥ فاشتدَّ تحديقه[4] إلىَّ كما ... حدَّقَ ذئبٌ طاوٍ إلى حَمَلِ

ولم أبِتْ ليلى وعَيشِكَ يا ... مولاىَ حتَّى رُفعتُ بالرُّسُلِ |٥٦

فجئتُه خائفًا كما يَلِجُ الـــ ... ـعصفورُ مُستكرَهًا على الوَرَلِ

فارتعتُ لمـــا رأيتُ لحيتَه ... وكِدتُ أُخرَى من شِـدَّةِ الوجَلِ

وظَنَّ أنى استحْيَيتُه فغدَا ... يَبسُطنى بالمُزاحِ والغزَلِ

١٠ وقالَ إنْ كنتَ مُكرِمى ثَلَّ قد ... رى فبعضُ الهوانِ أرفعُ لى

اِنتِفْ سِبالى واصفَعْ قفاىَ ولا ... تَنظُرْ إلى قُدرتى ولا خَوَلى

ولم يزلْ دائبًا يُشمرِخُ شا ... قولى[5] ويحتالُ لى على مَهَلِ

فحِينَ أدليتُ كالحِمارِ بدا ... يَرفعُ أثوابَه[6] على الكَفَلِ

وخرَّ للوجهِ والجبينِ وقد ... رَطَّبَ حَولَىْ خُصيَيهِ بالبلَلِ

١٥ طعنتُه طعنةً بصِدقِ الأنا ... بيبِ أصمَّ الكعوبِ مُعتدلِ

ثم رَمَى صَفحتى بلحيتِه ... فقلتُ داءُ الشُّرمِ[7] من بنى ثُعَلِ

فقالَ أخطأتَ إذ أسلتَ دمى ... فقلتُ كلَّا واللهِ لم يَسِلِ

أينَ النَّجيعُ القانى فديتُك من ... لطْخِ رَجيعٍ كالورْسِ مُنسجِلِ

---

(١) فى الأصل : بيد . (٢) كذا بالأصل .

(٣) فى الأصل : رحل ، والتصحيح عن اليتيمة .

(٤) فى الأصل : تحديمه .

(٥) فى الأصل : يشمرق سافولى ، والتصحيح عن اليتيمة .

(٦) فى اليتيمة : أجلاله عن . (٧) رسم الكلمة فى الأصل : الصرم .

فقالَ أيرُ أرَى بهِ هَوَجًا[١] قد جازَ حَدَّ الجنونِ والخبَلِ
يا سيِّدى ما اسمُه فقلتُ أبو الأســـ ودِ يُكنَى وليسَ بالدُّؤلى

وهى طَويلةٌ ، فلما فرَغَ قالَ له الحاكمُ لِمَ لَمْ تقطعْ لسانَه ؟ واللهِ لا عمِلت لى عملاً بعدُ ، فصرفَه .

جُملةٌ من أشعارِ أبى الفَضلِ فى أوصافٍ شتّى

النَّسيبُ وما يناسبُه

كانَ يومًا مع المُعزِّ بنِ باديسَ فى مَجلسِ أُنسٍ ، وغلامٌ وسيمٌ يَدورُ بالكأسِ فقالَ فيه :

ومُعــذَّرٍ نقشَ الجَمالُ بمِسكِه خــدًّا له بدَمِ القلوبِ مُضرَّجا
لمّا تيقَّنَ أنَّ ســيفَ جُفونِه مِن نرجسٍ جعلَ النِجادَ بنفسَجا

وكانَ له هوًى بغلامٍ فى مدينـةِ السلامِ فإذا رآه أنكرَ حبَّه ، والغلامُ يَعرفُ شِدَّةَ وَجدِه وكَلَفِه ؛ فدمَعتْ يومًا عَينا أبى الفَضل ، فقالَ الغلامُ : دمعُكَ شاهدٌ عليكَ ، فقال :

وهَبنِى قَد أنكرتُ حبَّكَ جُمـلةً وآليتُ أنى لا أرومُ محطَّها[٢]
فمن أينَ لى فى الحبِّ جَرحُ شهادةٍ سَقامِىَ أملاها ودَمْعِى خطَّها ؟ !

ودخلَ يومًا على قَينةٍ وهى تتَبخَّرُ بالنَّدِ ، ودُخانُه قد عَلا وجهَها فقال :

ومَحطُوطةِ المتنينِ مهضومةِ الحَشا مُنعَّمةِ الأردافِ تَدمَى من اللمسِ
إذا ما دخانُ النَّدِّ مرَّ[٣] جبينَها على وجهِها أبصرتَ غَيمًا على الشمسِ

وهو القائل :

(١) فى الأصل : أوى به هونا . وفى اليتيمة : نخاس جسمى أير به هوج .
(٢) كذا بالأصل . (٣) كذا بالأصل ولعلها مرّ بجبينها .

يَغرِسُ وردًا ناضرًا ناظرى ... فى وجنـــــةٍ كالقمرِ الطالعِ
فلِمْ منعتم شَفتى قطفَـــــه ... والُحكمُ أنَّ الزرعَ للزارعِ؟!

وقال:

وحياةِ ماغرسَ الحياءُ بخدِّهِ ... مِن وردِهِ بعتابهِ وعتابى
٥ ومُبلبَلٍ من صُدغهِ العَطِرِ الذى ... أهــدَى لىَ البَلبالَ دُونَ حِجابِ
لأُغرِّرَنَ بمُهجتى فى حُبِّهِ ... غررًا يُطيلُ مع الخُطوبِ خِطابى
ولئن تعــذَّرَ إنَّ عندى ذِلَّةً ... تَستعطِفُ الأحبابَ للأحبابِ

وقال:

ياليلُ هــلّا انجليتَ عن فلَقِ ... طُلْتَ ولا صبرَ لى على القلَقِ
١٠ جَفَتْ جُفونى الآماقَ فيك فما ... تُسبِلُ أشـفارُها على الحدَقِ
كأنَّنى صُورَةٌ مُمثَّـــــلَةٌ ... ناظِرُها الدهرَ غيرُ مُنطَبِقِ

وإنما أشار فى هذا إلى قول بشار:

جَفَتْ عينى عن التغميضِ حتى ... كأنَّ جُفونَها عنها قِصارُ

فنقل لفظَه ومعناه، وقصَّرَ عنه كما تراه. وقد أخذ أيضا العتّابى هذا المعنى،
١٥ واجتناه أرْيًا، فردَّه شرْيًا، بقوله:

فى مَاقِيَّ انقباضٌ عن جُفونهما ... وفى الجُفونِ عن الآماقِ تقصيرُ

وقال أبو الفضل:

بَدْرُ تِمٍّ علىَّ ليسَ يَلينُ ... خابَ فيما رجوتُ فيـه الظُّنونُ
طالِبًا للخلافِ إنْ لم أكنْ كا ... نَ وإنْ كنتُ حاضِرًا لا يَكونُ
٢٠ فعــلَى ذا ما نلتقى قطُّ حتَّى ... يَتلاقَى المُضـــافُ والتنوينُ

وقال:

وظبيٍ أرانى غُرّةً من جبينـهِ ... تَزيدُ ضِياءً بين أصداغِه الدُّهْمِ
تجرّعتُ بالإسعافِ جَرعةَ ظَلمِه ... لأنّى رأيتُ الظَلْمَ يدرأُ بالظلمِ
وكم أمكنَتنى فرْصةٌ فتركتُها ... حَياءً من الشيبِ الموقَّرِ بالحِلمِ
ولو كنتُ فى ثَوبِ الشبيبةِ رافِلاً ... لَصحَّ على إتيانِ زلّتِها عَزْمى

وهذا كقولِ الآخَر : ٥

دَعتنىَ عينُكَ نحوَ الصِبا ... دُعاءً تكرَّرَ فى كلِّ ساعَهْ
فلولا وحقِّكَ عُذرُ المَشيبِ ... لقلتُ لعينكَ سَمعًا وطاعَهْ

وهذا مثلُ قولِ جَرير ومنه أُنشِد :

لولا الحياءُ وأنّنى مَشهورُ ... والعيبُ يلحقُ بالـكبيرِ كبيرُ ٥٧
لَحَلَلتُ منزلَكَ الذى تَحتَلُّه ... ولَكانَ منزلُنا هو المهجورُ ١٠

وابنُ الرّقاعِ هو القائل :

لولا الحياءُ وأنَّ رأسى قد عَسَا ... فيـه المَشيبُ لزرتُ أمَّ القاسمِ

وقالَ بعضُ أهلِ عَصرِنا :

فلولا حياءُ المُحيَّا وما ... عَرانى لفقدِ الصِّبا مِن مُصابِ
لمرّغتُ خَـدّى وألَّفتُ بينَ ... هَشيمِ المشيبِ ورَوضِ الشبابِ ١٥

وقال محمدُ بنُ هانِئ[1]

واللهِ لولا أن يُسـفِّهنى الهوَى ... ويقولَ بعضُ القائلينَ تَصابَى
لـكَسرتُ دُملُجَها بضِيقِ عِناقِها ... ولثَمتُ مِن فيها البَرودِ رُضابا
بنتُمْ فلولا أن أغيِّرَ[2] لِمّـتى ... عَبثًا وألقـاكم علىّ غِضـابا
لخطَطتُ شيباً فى عِذارى كاذباً ... ومحوتُ محوَ النِقسِ عنه شَبابا ٢٠

(١) راجع الديوان ص ١٠٦ .
(٢) فى الأصل : غيّر .

وخَلعتهُ خلعَ النِجادِ مُذَمَّما   واعتضتُ من جلبابِه جلبابا
وخضبتُ مُسوَدَّ الحِدادِ عليكمُ   لو أنَّنى أجدُ البياضَ خِضابا

وسأله أبو مَنصورٍ الثعالبيُّ أن يصفَ غُلاماً صغيراً كانَ بديعَ الُحسنِ ، ليُثبتَ ذلك فى كتابه المترجَمِ بألفِ غُلام ، فقال :

٥ إنِّى عشِقتُ صغيراً   قد دبَّ فيه الجمالُ
وكادَ يُفشِى حديثَ الـ   فُضُولِ منه الدَّلالُ
لومرَّ فى طُرُقِ[1] الهَجـ   ـرِ لاعتراهُ ضَلالُ
وتاهَ فيهِ اغتراراً   لو لم يُغِثْه الوِصالُ
يُريك بدراً تَماماً   فى الُحسنِ وهو هِلالُ

١٠ وسألَه أيضاً أن يصفَ غُلامًا كاتباً كانَ حَسَنَ الخطَّيْنِ خطِّ اليدِ وخط الوجه ، فقال :

وكاتبٍ أهديتُ نفسى له   فهى من السوءِ فِدَا نفسِه
سلَّطَ خدَّيه على مُهجتى   فاستأصلاها وهى من غرسِه
كأنما خطَّ على خدِّه   مثلَ الذى قد خطَّ فى طِرسِه
١٥ فلستُ أدرى بعدَ ما حلَّ بى   بمِسْكِه أتلفُ أم نِقسِه

وقال فيه :

وشادنٍ أشرفَ فى صدِّه   وزادَ فى التيهِ على عبدِه
الحسنُ قد بثَّ على خدِّه   بنفسَجاً يرنو إلى وَردِه
رأيتُه يكتبُ فى طِرسه   خطًّا يُضاهى الدُّرَّ فى عِقدِه
٢٠ فخلتُ ماخطَّه كفُّه   للحُسن قد خُطَّ على خدِّه

(١) فى الأصل : طريق

وألمّ أبو الفضل فى هذا بقول بعضِ الكُتّاب :

ما أخطأتْ نوناتُه من صُدغِه ... شيئاً ولا ألِفاتُه من قدِّه

وكأنما أنقاسُه(١) من شعرِه ... وكأنما قِرطاسُه من جِلده

وينظر إلى هذا من طرفٍ خفى ، قولُ أبى سَمُرة الدارمىّ قال :

سرابُ الفَيافى صادقٌ عندَ وعدِها ... وسمُّ الأفاعى مُبرئٌ عند صدِّها ٥

رمتْنى ولم أسعَدْ بأيامِ وصلِها ... بعَيْنَىْ مَهاةٍ أنحستْنى ببُعدِها

تعلَّقها قلبى كما قد تعلقتْ ... صوالجُ صُدْغَيها(٢) بتُفَّاحِ خدِّها

فقلبىَ لمَّا أضعفَتْه كخصرِها ... ودمعىَ لمَّا نظَّمتْه كعِقدِها

وقال أبو الفضل :

قلت للمُلقِى على الخدَّ(م)ين من وَردٍ خِمارا ١٠

والذى سلَّ على العُشاقِ باللحظِ شِفارا

أسبَلَ الصُدغ على خدِّ(م)كَ من مِسكٍ عِذارا

أم أعانَ الليلَ حتى(م) قهرَ الليلُ النهارا ؟

قال مَيدانٌ جرى الحُسْ(م)نُ عليه فاستدارا

ركضتْ فيه عيونٌ ... فأثارتهُ غُبارا ١٥

وقال يتشوّق إلى بلدِه :

أهيمُ بذكرِ الشرقِ والغربِ دائباً ... وما بى شَرقٌ للبلادِ ولا غربُ

ولكنَّ أوطاناً نأتْ وأحبَّةً ... فَقَدْتُ متى أذكُرْ عهودَهم أصبُ

إذا خطرت ذِكراهمُ فى خَواطرى ... تناثرَ من أجفانىَ اللؤلؤُ الرطبُ

ولم أنسَ مَن ودَّعتُ بالشطِّ سُحرةً ... وقد غرَّدَ الحادونَ واستعجلَ الركبُ ٢٠

(١) فى الأصل : أنقاشه . (٢) فى الأصل : خديها .

أليفانِ هذا سائرٌ نحو غُربةٍ وهذا مقيمٌ سارَ[1] عن صدرِه القلبُ

وقال فى مثله :

تذكَّرَ نجداً والحِمَى فبكى وَجْدا وقالَ سقَى اللهُ الحِمَى وسقَى نجدا

وحيَّتْه أنفاسُ الْخزامَى عشيَّةً فهاجتْ إلى الوجدِ القديمِ له وَجْدا

٥ فأظهرَ سُلواناً وأضمرَ لوعةً إذا طُفِئتْ نيرانُها وَقَدتْ وَقْدا

ولو أنَّه أعطَى الصبابةَ حُكمَها لأبدَى الذى أخفَى وأخفَى الذى أبْدا

ولم أنسَهُ والسُّكرُ يَفتِلُ قدَّه إذا ما تَثنَّى كدتُ أعقِدُه عقْدا

وقالَ :

ومخمورِ الْجفونِ بلا خُمارٍ حكَى بدرَ الدُّجى حُسْناً وبُعْدا

١٠ فما زالتْ به حِيَلى إلى أنْ دَنا ورأى لدىَّ الغىَّ رُشْدا

وجادَ بقُبْلةٍ فشمِمتُ مِسكاً وذقْتُ مُدامةً وقَطَفْتُ وَرْدا

فكان السكرُ لى سبباً سقانى على ظمأِ الهوَى العُذْرىِّ بَرْدا

فيا شِربًا وردتُ فكان عذبًا ويا نجماً لحظتُ فكانَ سَعْدا

وقال :

١٥ قالوا تبدَّى شَعرُه فأجبتُهم لا بدَّ من عَلَمٍ على الديباجِ

والبدرُ أبهرُ ما يكون ضِياؤه إذْ كانَ مُلتحِفاً بليلٍ داجِ

وقال :

ظبىٌ إذا حرَّكَ أصداغَه لم يلتفتْ خَلقٌ إلى العِطْرِ

غَنَّى بشِعرى مُنشداً ليتنى الـ ـلفظُ الذى أودعتُه شِعرى

٢٠ فكلَّما كرَّرَ إنشادَه قبَّلتُه فيه ولم يَدْرِ

٥٨

(١) رسم الكلمة فى الأصل : صار .

وقال:

يا ذا الذى خطَّ الجمالُ بوجهِهِ سَطرينِ هاجا لوعةً وبَلابلا
ما صحَّ عندى أنَّ لحظَك صارمٌ حتَّى لبِستَ بعارضَيك حمائلا

وهذا كقولِ ابنِ رشيق:

وهل [ترى] عارضَيه إلا حمائلا قُلِّدتْ حُساما ٥

وقال أبو الفضلِ فى بعضِ غِلمانِه وكانَ له به هوًى:

علىَّ لا تَصِلْ وبِنْ فقلبى غيرُ مُرتهَنِ
غَضِبتَ فزِدْ ودُمْ غضباً فإنى عن رِضاك غَنِى
أتُخفِى بِغضَتِى سِرًّا وتُبدِى الحبَّ فى العَلَنِ؟!
لقدْ غرَّتكَ فى مَيْلى إليك كواذِبُ الظِّنَنِ ١٠
أتطمعُ أن أزيدَ هوًى وودُّك لى على دَخَنِ؟!
إذا فسدتْ يدٌ قُطعتْ ليسلمَ سائرُ البدَنِ

فأجابَه الغلام:

غلامُك غيرُ مُمتهَنِ تُخَوِّنُه ولم يَخُنِ
وتَطلبُ عَتْبَهُ ظُلْماً على غضبٍ ولم يكُنِ ١٥
وتُوقِعُه بما قد قلتَ فى بحرٍ من الفِتَنِ[2]
فقلْ لى كلَّ طرفِك أمْ خلا طَرفى من الفِتَنِ؟

وقال أبو الفضل:

وحبيبٍ [ضَنَّ] بالوصلِ تِيها هل تَضِنُّ[1] البدورُ بالإشراقِ
أنا أخشى إن دامَ ذا الهجرُ أنْ يُذْ شِطَ من حبِّه عِقالَ وَثاقِ ٢٠

(١) فى الأصل: يظن. (٢) كذا ولعلها: الظِّنَن تفادى الأبطاء.

فأُريحَ الفؤادَ ممّا اعتراهُ ... وأردَّ الهوَى على العُشّاقِ

وقال :

سمحتُ بنفسى غداةَ الرحيلِ ... غَراماً على القمرِ الآفلِ

وبتُّ أفضُّ خِتامَ الجفونِ ... وأبكى على الجسَدِ الناحلِ

٥ ومن عجب العشق أنَّ القتيلَ ... يحِنُّ ويصبو إلى القاتلِ؟!

وقال :

يا حادِيًا وجِمالُ الحىِّ سائمةٌ ... ماذا تريدُ بقلبى أيُّها الحادِى؟

كلفتَه السَّيرَ من جِسمى ففارقَه(١) ... وهل يَسيرُ أسِيرٌ ما له فادِ؟

رفقاً فقد هِجتَ شوقاً ما استعدَّ له ... فكيف يَرحلُ مشتاقٌ بلا زادِ؟

١٠ وقال :

أيا بَصَرى أعدَى(٢) علىَّ ويا سَمعى ... ويا مُسرِفاً عند التضرع فى مَنعى

إذا كنتَ مطبوعًا على الهجرِ والجفا ... فمن أينَ لى صَبْرٌ فأجعلَه طَبعى ؟!

سَلِ المطرَ الغَمْرَ الذى عمَّ أرضَكم ... أجاء بمقدارِ الذى فاضَ من دَمعى؟

ما أخرجتُه من شعرِه فى سائرِ الأوصاف

١٥ كانَ ليلةً مع بعضِ إخوانِه وبينَ أيديهم شمعة ، فأفضَى حديثُهم إلى وصفِها ، فجعلَ مَن حضرَ يُريِّضُ نفسَه ، ويُعمِل فى ذلكَ حِسَّه ، فقالَ أبو الفضل :

ذَهَبنا فأذهبْنا الهمومَ بشمعةٍ ... غَنينا بها عن طلعةِ الشمسِ والبدرِ

أقولُ وجِسمى ذائبٌ مثلَ جسمِها ... ودمعتُها تَجرى كما دَمعتى تَجرى

كلانا لعمرى ذو بَيانٍ من الهوَى ... فنارُكِ من جَمْرٍ ونارىَ من هَجْرِ

---

(١) فى الأصل : ففارقته .

(٢) رسم الكلمة فى الأصل « عذا » ولعلها ما أثبتناه أو لعلها « أعزى » .

وأنتِ على ما قد تقاسين من أذًى ... نصدرُك فى نار ونارىَ فى صَدْرِى

وله فى وصفِ طِرْف :

حكى فرسى الليلَ فى لونِهِ ... فقابلَه البدرُ عند اضطرار

فكانَ له غُرّةً فى التمامِ ... ونَعْلاً لحافِره فى السِّرار

وقال : ٥

رُبَّ ليـلٍ أبطَا علىَّ فلمّا ... مَدَّ ضافِى[1] دُجاه ما استبطانى

جئتُ أسعَى إليه سَعىَ زُلالِ الـ ... ـماءِ يَستنُّ فى حشَى الظمآنِ

ظِلتُ أسرى بمثلِه فيـه حتى ... خِلتُنى قد أحاطَ بى ليـلانِ

فهو طَرْفٌ له حِصَانى[2] سَوادٌ ... أنا فيـه كهيئةِ الإنسانِ ١٠

وأرى السلامىَّ قد نَبّه على هذا التشبيه ، وإن كان أبو الفضل قد زاد فيه .

وكانَ السلامىُّ قد ركبَ زورقاً بدِجلةَ فقال :

وميدانٍ تجولُ به خيولٌ ... تقودُ الدارعِينَ وما تُقادُ

ركِبتُ به إلى اللذاتِ طِرْفاً ... له جِسْمٌ وليسَ له فؤادُ

جرى فظننتُ أن الأرضَ وجهٌ ... ودجلةَ ناظرٌ وهو السوادُ ١٥

وقال عبدُ الجليلِ للمعتمدِ بنِ عبّادٍ مِن شعرٍ قد تقدّم إنشادُه فى صفةِ جوازِ البحر :

فسرتَ فوقَ دِفاعِ الله تهصِرُه ... براحةِ الدينِ والتّقوى فينهصرُ

كأنّما كانَ عَيناً أنتَ ناظرُها ... وكلُّ شطٍّ بأشخاصِ الورَى شُفُرُ

وقال أبو الفضلِ فى زامرٍ أسود :

وحالكِ اللونِ كالليلِ البهيمِ له ... فضائلٌ مُشرِقاتُ الحُسنِ كالفلَقِ ٢٠ | ٥٩

تنُوب عن نطقِه ريحٌ مؤثِّرةٌ ... فى قلبِ مُصطبحٍ أو لُبِّ مُغتبِقِ

(١) فى الأصل : « صافى » . (٢) فى الأصل : « خضانى » .

تَخَالُ مجلسَنا وجهاً به حسَناً ... إذْ صارَ فيه كخالٍ مُعجِبٍ لبِقِ
كأنما كفُّه من زمْرِهِ سُلِبتْ ... أو زمرُه من يديهِ جِدُّ مُستَرَق
تَراه يحفظُ ما يُوحَى إليه بهِ ... وسِرُّه أبداً يَهوِى بمُنخرِق
يحدو بأنفاسِه الأوتارَ مجتهداً ... فتَستقيمُ[1] به الألحانُ فى الطُّرُق
٥ أهدَى الشبابُ إليه حُسنَ بهجتِه ... فناسبَ المِسكَ فى لونٍ وفى عَبَقِ

وقال :

هاتِ اسقِنى فالعيشُ شاكٍ جُرأةً ... والدهرُ نَكَّبَ عن لِقاء أعزَلا
من قهوةٍ تَدعُ الفتَى مُستحسِناً ... من غَفلةٍ فى شُربِه أن يَجهلا
معَ ناعسِ الألحاظِ تُخبِر أنَّه ... ما قالَ فيما رِيمَ منه قطُّ لا
١٠ والثلجُ يحكى فى اكتنافِ سقوطِه ... وضَئيلِ[2] جثتِه دَقيقاً غُربِلا

ويا بُعدَ ما بين هذا و بينَ قولِ بعضِ أهلِ عصرِنا وهو :

[ ][3] ... والشمسُ طالعةٌ ولمّا تغرُبِ
خِلتَ الرذاذَ بُرادةً من فِضَّةٍ ... قد غُربلتْ مِن فوقِ نِطعٍ مُذهَبِ

ولأبى الفضل فى الشيب :

١٥ طاقةٌ نغَّصَت عَلَىَّ شبابى ... فتعمدتُ نتفَها غيرَ وانِ
فأقامتْ عندَ المكانِ ونابَتْ ... عند نَتْفى مِن غيرِها طاقتانِ
قلتُ ماذا هذا لَعمرُ التّصابى ... لِشبابى وجِدّتى محنتانِ
قالتا[4] قد جَرى مِن الرّسمِ للسلطانِ أخذُ البُراءِ قبلَ الجانِ
وإن ازددتَ فى الجفاءِ فلا تُنكِر قُدومى عليكَ مَعْ أعوانِ

---

(١) فى الأصل : « فتسبقهم » .
(٢) فى الأصل : وطيل .
(٣) بياض بالأصل . (٤) فى الأصل : قالت .

ألمّ فى البيت الأخير بقول[١] :

... ... رويدك حتى يلحقَ الجيشُ مِن خَلْفْ

وفى البيت الثانى والثالث بقول كشاجم :

أخى قُمْ فعاونى على شيبةٍ بَغَتْ فإنى منها فى عذابٍ وفى حَرْبِ

إذا ما مَضَى المِنقاشُ يأتى بها أبَتْ وقد أُخِذتْ مِن دُونها جارةُ الجنبِ ٥

لجانٍ على السلطانِ يُجزى بذنبه تعلّقَ بالجيرانِ من شِدّةِ الرُّعبِ

وقال أبو الفضل من طَرْديّة :

أنعتُ[٢] كلبًا لم يُصَبْ مِثالُه يُطعِمُه من حِرصه خَبالُه

مِثلَ الهِزبرِ سُلِبتْ أشْباله أو كالظليمِ ضَلَّ عنـهُ رالُهْ

لِلسّامِ من مَصالِه مَصالُه[٣] وفى وَديقِ فَمِـه جِريالُه ١٠

فكلّنا من صَيدِه عِيالُه

وله من قصيدٍ طويل :

كأنما الفحمُ والنّيرانُ تُلهِبُـهُ هامٌ مِن الزّنجِ فى ثَوبٍ من السَّرَقِ

أو الزُّنودُ براها[٤] السيفُ فى رَهَجٍ من الهُنودِ عليها شَطبةُ[٥] العَلَقِ

مَدّ الرمادُ عليـهِ بعدَ رَقْدَتِه عينًا له حَسَكٌ مِن حُمرةِ الشَّفَقِ ١٥

أقولُ للنار والأحزانُ ثائرةٌ والقلبُ فى غمَراتِ الحبِّ لم يُفِقِ

إيّاكِ أن تقرَبى[٦] نارًا مؤجَّجةً بلاعِجِ الشوقِ فى قلبى فتحترقى

أظنُّ أنكِ ما لاقيتِ ما لَقِيَتْ قلوبُ أهلِ الهوَى من جاحِمِ القَلَقِ

ولا مُنِيتِ[٧] بتوديعٍ وقد جعلوا بيضَ السواعدِ أطواقًا على العُنُقِ

(١) بياض فى الأصل . (٢) فى الأصل : أبعث .

(٣) رسم هذا الشطر فى الأصل : لسام من مطاله مطاله .

(٤) فى الأصل : أو الزنود برها . (٥) فى الأصل : شطة .

(٦) فى الأصل : تقرنى . (٧) فى الأصل : سنيت .

ولا فُجِعتِ بغِزْلانٍ ألفتهمُ ساروا بقلبكِ إذْ ساروا مع الرُّفَقِ
سطَا الفِراقُ عليهم غفلةً فغدَوْا من جَوْرِهِ فِرَقًا من شِدَّةِ الفَرَقِ
فسرتُ شرقًا وأشواقى مُغرِّبةٌ يا بُعْدَ ما نَزَحتْ من طُرْقِهِمْ طُرُقى
لولا تَدارُكُ دمعى يومَ كاظِمةٍ لأحرقَ الركبَ ما أبديتُ من حُرَقِ
٥ يا سارقَ القلبِ جَهْراً غيرَ مُكترثٍ
أمِنتَ فى الحبِّ مَن يُعدِى (١) على السَّرَقِ
ارمُقْ بعينِ الرضا تُنعِشْ بعاطفةٍ قبلَ المنيَّةِ ما أوهَيتَ (٢) مِن رَمَقِ
لم يبقَ منى سوى لفظٍ يبوحُ بما ألقى فيا عجبًا للَّفظِ كيفَ بَقِى
فَصِلْ (٣) إذا شئْتَ أو فاهجُرْ (٤) علانيةً
١٠ فكلُّ ذلك محمولٌ على الحدَقِ

ومنها فى وصف الطَّل والنَّوْر :

كأنَّ قَطْراتِه من بعدِ ما جَمدتْ لآلئٌ فوقَ أصدافٍ من الوَرَقِ
فالنَّورُ قد رَمِدَتْ بالثَّلجِ أعينُه فليسَ يَرنُو بجفنٍ غيرِ مُنطبِقِ
والغُصنُ قد ضَربتْ أيدى الضريبِ على
١٥ أوراقِه فتَراه مائلَ العُنُقِ

قوله « بيضَ السواعدِ أطواقاً على العُنُق » معنى مشهور ، ومنه قولُ القائل وهى أبياتٌ يتداولها القوَّالون :

مشتاقةٌ طَرقتْ بالليلِ مُشتاقاً أهلاً بمن لم يَخُنْ عهداً ومِيثاقا

---

(١) فى الأصل : يعدى .
(٢) رسم الكلمة فى الأصل : أهت .
(٣) فى الأصل : صل . (٤) فى الأصل : اهجر .

يا زائراً زارَ من قُربٍ على بُعُدٍ
آنستَ مُستوحِشاً لا ذُقتَ ما ذاقا

يا ليلُ عَرِّسْ على خِلَّيْنِ قد جَعلا بِيضَ السواعدِ للأعناقِ أطواقا

ومن قصائده المطوّلات ، فى المدح وما يتعلّق به من الصفات .

قال من قصيدة فى معزّ الدولة صاحبِ حلب : ٥

وقفتُ على رسمِ الديارِ مُسائلاً وهل يَشتفى[1] من لوعةِ الحبِّ سُؤّالُ ؟

فألوى رُسومَ الصبرِ رسمٌ من اللِّوَى وطلَّ دُموعى بالسَّبيبةِ[2] أطلالُ

يُحيِّى بها صَوبُ الحياءِ مَعالماً خَلَعن عليهنّ المحاسنَ أنوالُ[3] ٦٠

فما رَوَّضَتْ أرضُ المِهادِ مَلاحِفٌ
وزَهرُ رُباها الحَلْىُ والنَّورُ خلخالُ ١٠

وورقاءَ تَستملى حَنينى بنوْحِها كِلانا على عَهدِ الأحبةِ هَدّالُ

وإنى إذا ما ازورَّ عنّى منزلٌ رَمى الحِلَّ فى قُطرَيهِ شَدٌّ وتَرحالُ

أقيمُ إذا ما العِزُّ وطَّدَ مَفرشى وأنبو إذا ما أعقبَ[4] العِزَّ إذْلالُ

أنا ابنُ السُّرَى إن مَلَّنى[5] مَتنُ سابِقٍ
تَسلّمنى شَختُ الجُزارة مِرْقالُ ١٥

كأنَّ الفَلا ظِئْرٌ[6] لها الليلُ حَجْلةٌ تحِنّ إليها مِن رِكابى أطفالُ

---

(١) فى الأصل : يشفى .

(٢) رسم الكلمة فى الأصل : « بالست » ولعلها « بالسبيبة » أو « بالسبية » من مواضع بلاد العرب . (٣) فى الأصل : نوال .

(٤) فى الأصل : أعقت ولعلها ما أثبتناه أو لعلها : أعنت .

(٥) رسم الكلمات فى الأصل : إن حلى متق ... ولعل الصواب ما أثبتناه .

(٦) فى الأصل : طير .

تَفُوزُ فى قَطْعِ المفاوزِ جُرأتى — إذا انصاعَ عن قَطْعِ المجاهلِ جُهّالُ (١)

إذا البدرُ جَلّى وَجنَةَ البرِّ نُورُه — فَجُونُ الطَّلى مِن فوقِ وَجنتِهِ خالُ (٢)

سَقَى حَلَباً والحىَّ مِن آلِ عامرٍ — هَزِيمٌ تَوالَى من تشاصكِ (٣) مِهطالُ

فكم أثمرَتْ فيه القَنا من مُناقِفٍ — وكم أتعبَتْ فيه الصوارمَ أبطالُ

٥ إذا خطبوا العلياءَ يومَ كريهةٍ — فأسيافُهم فيها مُهورٌ وأجعالُ

بيُمنِ مُعزِّ الدولةِ انكشفَتْ لنا — من الدهرِ أحوالٌ مَرَتْهُنَّ أحوالُ

تَجافَى مُحبِّى المالِ حتى كأنما — يُقابِلُه منهم (٤) وُشاةٌ وعُذّالُ

كأنَّ الوَغَى طَرفٌ له الخيلُ (٥) مَحجِرٌ — له النَّقْعُ أكحالٌ له الزّانُ (٦) أميالُ

١٠ وأسمرَ عَسّالٍ إذا احتَدمَ الوَغَى — تَصدَّقَ منه الزادَ أطلسُ عسّالُ

وله من أخرى فى ابنِ ذى النون المأمون :

لا يَشربُ الماءَ ما لم يُحفَ حافرُه — حتَّى إذا قَطَرتْ أرماحُه شَرِبا

ولا يَرُدُّ المُحيّا الطلقَ بَغرتَه — كالقِرنِ عَنَّ ببَرقٍ خُلَّبٍ خُلِبا

ما بالُ بالى إذا سَكَّنتُه نَفَرَتْ — عِشارُه وإذا كَفكَفتُه انسَرَبا

١٥ ألِلتبرمِ بالدنيـا وزينتها — أم البعيدُ من الآمالِ قد قَرُبا

بِهِمَّةِ المَلِكِ المأمونِ حين غدا — إفضالُها لِتناهى هِمَّتى سَبَبا

---

(١) فى الأصل : «إذا طاع ... جاهل» ولعل الصواب ما أثبتناه .

(٢) رسم هذا البيت فى الأصل .

إذا البدر جلا وجهه البر نوره — خـده طلى فوق وجنته خال

وهو مضطرب كما ترى ولعل ما أثبتناه أقرب الاحتمالات .

(٣) كذا بالأصل ولعلها من سنا البرق ورسم هذا البيت :

سعى حلياً والحلى من آل عامر — هريم توالى من تشاصك مهطال

(٤) فى الأصل : منه . (٥) فى الأصل : الجبل .

(٦) فى الأصل : الران .

الواهبِ الأَلفَ لا عَيْناً ولا وَرِقاً ... ولا عِشاراً ولكنْ أنعُماً قُشُبا

فى جَحفلٍ كسوادِ الليلِ مُرْتَكِمٍ ... لكنْ أسنَّتُه صارتْ له شُهُبا

كأنما نَهْجُ أنبوبِ الرماحِ به ... ما قد ورِثْتَ من العَليا أباً فأبا

قومٌ إذا رَكِبوا سدُّوا الفضاء وإنْ ... [حلُّوا] توهَّمتَهم فى البِيدِ رَجْلَ دَبا

قد صيَّروا الحَرْبَ كأساً والدماءَ بها ... خمْراً وما حوَتْ من بَيْضِها حَبَبا

وله فيه من أخرى :

ولم يَفهموا ما تكتبُ البيضُ فى الوَغى ... ولا السُّمرُ حتى أعْجما بالحوافرِ

تَسرَّعَ حتى خِلتُ كلَّ مُقصِّرٍ ... مِن الخَيلِ محمولاً على ظَهر طائرِ

وحتى توهمنا النجومَ أسِنَّةً ... وخِلنا الهلالَ بينها أثرَ حافرِ

وله من مَرثية فى الملك شروان شاه :

يا مُوضِعاً(٢) عن مُلكِه وسَريرِه ... ماذا أضرَّك لو لَبثتَ قليلا ؟!

طَلَّتْ رزيَّتُه دَمى إنْ لم أدَع ... دَمَ مُقلتى فى لَحدِه مطلولا

يا تاركاً رُسُلَ الملوكِ ببابِه ... مَن ذا يَردُّ عليهمُ التَّجميلا ؟

أرَحلْتَ ثم تركتَنا ولَقبلَ ذا ... كنا نَحُفُّ إذا أردتَ رَحيلا

أترَى دَليلَك فى السَّرايا غرَّه ... خطأً فسارَ إلى الحِمام دَليلا ؟ !

صِرنا نُقبِّلُ قبرَه ولطالما ... كنَّا نُبيح بِساطَه التَّقبيلا

جَدَثٌ غدا جَفْناً لأبصرِ ناظرٍ(٣) ... أمسَى وأصبحَ بالرَّدَى مَكحُولا

ياقبرُ لم نعرِفْ(٤) تَشتُّتَ شَملِنا(٥) ... حتى غَمدتَ الصارمَ المصقُولا

ظللنا نشقُّ جيوبَنا من بعد أنْ ... كنَّا نُجرِّرُ فى ذَراهُ ذُيولا

(١) فى الأصل : نسج .

(٢) فى الأصل : يا مرصعا .

(٣) فى الأصل : « لأنصر ناصر » .

(٤) فى الأصل : تعرف .

(٥) فى الأصل : بعملنا .

ونَعُبُّ كاساتِ الدُّموعِ كأننا | فى أُنْسِ مَجالسِه نَعُبُّ شمولا
عُذِلَ البكاء فظلَّ يُنشِدُ نفسَه | بيتاً يُمهِّدُ عُـذرَه المقبولا ...
رَدُّ الجموحِ الصعبِ أيسرُ مَطلبًا | من رَدِّ دمعٍ قد أصابَ سَبيلا
ما للرماحِ قصُرْنَ عن دَرْكِ المدَى | ورَأينَ حَمْلَ نُصُولهنَّ فضُولا ؟!
٥ ولقبْـلُ كُنَّ إذا رَأينكَ عازِمًا | عاينَّ طُولكَ فاسـتفدْنَ الطُّولا
لَبِسَ الحِدادَ حَديدُهنَّ فما نَرى | إلّا سِنانًا من صَداهُ كَليلا
تبكيكَ أقلامٌ [زهَتْ][1] من عُظْمِ ما | كتبتْ فتوحَكَ بُكرَةً وأَصيلا
وبحورُ شعرٍ غاصَ[2] مدحُكَ فانتقَى | منهنَّ دُرًّا فى النِّظـامِ جَزيلا

١٠ وله من أخرى فى بعض عبيده :

أعبدَيَّ قد أسأرتُما [فى] جَوانحى | مِن الوجدِ داءً مُستكِنًّا وبَاديا
أسأنمْ ولِلحبِّ المبرِّحِ حُجَّةٌ | تُحسِّنُ فى عَيـنَيَّ تلكَ المَساويا
لئن بَزَّنى دَهرى ببغدادَ ثَرْوتى[3] | فما زِلتُ من كَسْبِ المحامدِ كاسِيا
فيـا ليتَنى لم آتِ بغدادَ نابِهًا[4] | وأصبحتُ فى أكنافِ شِرْوانَ عارِيا
١٥ فلو كنتُ فيها لم تُحَصَّ قَوادمى | ولا أحفَتِ[5] الأشواقُ منها الخوافِيا
فمزقتُ أثوابَ الفـلا بسوابقٍ | تَظَلُّ بها الأنضاءُ[6] تَفْلِى القِيافِيا
إذا [ما] أمالتنى بها نَشْوةُ الكَرى | تَرَنَّحَ فى كَفِّى المهنّـدُ[7] صافِيا

(١) هذه الزيادة أو ما فى معناها لازمة لإقامة البيت — وفى الأصل « عن » مكان « من » . (٢) فى الأصل : عام .
(٤) فى الأصل : ترنى ... تروتى .
(٥) فى الأصل : أوت بغداد ناها (٦) فى الأصل : أخفت .
(٧) فى الأصل : الانصداع . ولفظا الفلى وتفلى غير معجمتين فى الأصل .
(٨) فى الأسل : ترمح ... المهد .

وإن أنا طلَّقتُ النهارَ بجَوْزِها خَطبتُ خُدارِيًّا[١] من الليل داجيا
ومَن طلبَ الغـايات جرَّعَ نفسه سُلافَ السُّرَى واستنهضَ النجمَ ساقيا

٦١| ما أخرجتُه من مقطوعاته الإخوانيات وغيرِها

فى أوصافٍ مختلفات ٥

له من قصيدة فى وصف القيروان وقتَ فتنةِ العامة بها يقول فيها :

حالت علىَّ القيروانُ بِحالِها عمّا عهدتُ العيشَ فهوَ مُنغَّصُ
فخرابُها فى كلِّ يومٍ زائدٌ وجنابُها المعمورُ فيهـا يَنْقُصُ[٢]

ومنها :

إنْ كانَ أرخصنى الزمانُ فإنّه أَسْـدَى إلىَّ بضائعاً لا تَرْخُصُ ١٠
أو كانَ غيَّرَ من طِبَاعِى[٣] موضعى فالخمرُ إنْ تَرَكَتْ وِعَاها تَقرُصُ
كيفَ الرجوعُ وطِرفُ حالى عاثِرٌ[٤] وجناحُ آمالى الـكسيرُ مُقَصَّصُ

وله من أخرى :

ولمَّا أَنْ كسانى الشَّيْبُ ثَوْباً ولم يكُ وقتَ تغْيِيرِ الثِّيـابِ
أتانى غفـلةً والنفسُ فيها بَقايا مِن عَقابِيلِ[٥] التَّصابى ١٥
وغُصنُ شَبيبتى غَضٌّ نَضِـيرٌ به ظمأٌ إلى ماءِ الشـبابِ
ورَامَ الناسُ مِنّى ما يُضاهى مَشيبى فى فِعالى أو خِطابى

---

(١) فى الأصل : حواريا .
(٢) فى الأصل : وحبابه .. تنقص
(٣) فى الأصل : ضياعى
(٤) رسم الكلمة فى الأصل غير واضح ويجوز أن يقرأ « غامض » .
(٥) فى الأصل : عقايل

ولم أُقدِمْ على وَصلِ التَّصابى مَخافةَ أن أدنِّسَه بعابِ
فداومتُ المُدامَ فما أُبالى بِبالى إنْ تَخطَّى عن صوابِ
فإن ظهرَ التصابى فىَّ يوماً أَحلتُ به على فِعلِ الشَّرابِ

وهذا من قول حسّان :

٥ نُوَلِّيها الملامةَ إن أَلَمْنا إذا ما كانَ مَغْثٌ أو لِحاء[1]

وقال أبو الفضل :

ومُعنِّفٍ لى فى المُقامِ ضَرورةً بالقيروانِ وما بها سُلطانُ
أَلقى الهوانَ بها وكم مِن عِزَّةٍ قد ساقَها نحوَ الرجالِ هَوانُ
جَهِلوا على الإحسانِ فيها مَوْضعى لو كانَ يَنفعُ عندهمْ إحسانُ
١٠ فكأنَّنى القُرآنُ عندَ مُعطِّلٍ أو فى بلادِ هرابذٍ رَمضانُ
ما الدرُّ يَنقصُ فضلَه فى بَحرِه أن ليسَ تَعرِفُ قدرَه الحِيتانُ
كلاَّ وليسَ المِسكُ يَبطُلُ عَرفُه إنْ ضَيَّعته بجهلِها الغِزلانُ
ما عِيبَ ضوءُ الشمسِ عند بزُوغِها إذْ ليسَ يُدرِكُ نورَها العُميانُ
والليثُ لا يَنفى استطالةَ بأسِه إنْ ضمَّه فى خِيسِه خَفَّانُ
١٥ أو ما ترى الدنيا بفقدِ مليكِها طَرْفاً ولكنْ ما له إنسانُ ؟!

وله من أخرى :

وأعظمُ من مُصيبات الليالى عَلَىَّ وصَرْفِها خِلٌ خَؤونُ
يُقابلنى بوُدٍّ مُستميلٍ وبينَ ضلوعِه داءٌ دفينُ
إذا عاتبْتُه أبدَى مُجوناً وعِلَّةُ ذلك العَتْبِ المُجونُ
٢٠ ومن جعلَ السُّمومَ له دَواءً فيُوشِكُ أن يفاجئَه المنونُ

(١) ديوان حسان (طبع ليدن) ص ١

أَهُمُّ بأنْ أجازيَه فيأبَى ... علىَّ الأصلُ والعِرضُ المصونُ
أرى هَذَرَ[1] الكلامِ المحضِ غَثًّا ... فيردعُنى عن الغثِّ السَّمِينُ
ولم يُزعِجْ زئيرُ الأُسدِ حِلمِى ... أيزعجُه مِن البقِّ الطَّنينُ ؟
أيطمعُ أن يشقَّ غبارَ مُهرِى ... ذَليلٌ تحتَه عَيْرٌ حَرونُ ؟
سَلِ السُّمْرَ الذَّوابلَ ما غَنَائِى ... إذا اشتجرتْ بها الحربُ الزَّبونُ ٥
ألم أجعلْ مُثارَ[2] النقعِ بَحراً ... على أنَّ الجيادَ له سَفينُ ؟!

وله من أخرى فى صاحبِ الخيلِ ابنِ أذينٍ من قصيدةٍ طويلة ، منها قوله :

وأعذبُ مِن يَومنا بالعُذَيبِ ... سلامتُنا اليومَ من ذِى سَلَمْ
ولستُ بمن يَطَّبيه الغِنَى ... ويَرصُدُ طيفاً له أن يُلِمْ
ومَن عَبِثَتْ[3] نفسُه بالغِنَى ... تَساوى الغِنَى عندَه والعَدَمْ ١٠
وكم طَسَمَ الدهرُ مِن جِبْلَتى ... فردَّ نَضارةَ ما[4] قد طَسَمْ
وكنتُ إذا ما رمانى الزمانُ ... أو كادَ أو همَّ بى أو عزَمْ
عَلِقتُ أبا الحسَنِ المرتجَى ... فأمسيتُ من صَرفِه فى حَرَمْ
فتًى لو رأى البُخلَ فى نومِه ... أو الجُبنَ خُلقاً له لم يَنَمْ
ولو كانَ طيفاً وكان الكرى ... طَروقاً لغيرِ العُلا ما أَلَمْ ١٥
فما لى أرَى عِقدَ إحسانِه ... تبدَّدَ مِن سِلكِه ما نَظَمْ ؟
ولمْ ذَمَّنى عندَه حاسِدٌ ... كأنَّ به جِنَّةً أو لَمَمْ
بدَا وجهُه فاشتهيتُ العَمَى ... وكلَّمنى فاستزرتُ[5] الصَّمَمَ
وقد كنتَ تُرضِعُ دَرَّ الصَّفا ... وِدادى[6] فما لودادى[6] فُطِمْ ؟

(١) فى الأصل : هزم .
(٢) فى الأصل : منار
(٣) كذا بالأصل ولعلها غشيت أو عنيت .
(٤) فى الأصل : من .
(٥) فى الأصل : فاستزدت .
(٦ — ٦) فى الأصل : فما له قد .

كذا الطفلُ يَرضعُ حتى إذا ترعرعَ غُيِّبَ عنه الحَلَمْ
يُسائلنى الناسُ عمّا تقول وما قلتَ لى قطُّ إلا نعَمْ

[وله] :

قالوا مَدحتَ أُناساً لاخَلاقَ لهم مَدْحًا يُفاسِبُ أنْوَاعَ الأزاهيرِ
٥ فقلتُ لا تعــذُلونى إنَّنى رَجلٌ أُقلِّدُ الدُّرَّ أعناقَ الخنازيرِ

وقال :

(١ما لى أرَى١) قربكمْ صائباً وأنتمُ لى غـيرُ أجناسِ !
وما جُلوسى عنـدكمْ أنَّنى أعدُّكمُ مِن بَعضِ جُلّاسى
لـكننى أجلسُ بينـكم تعلُّلاً مِن عَـدَمِ الناسِ

٦٢|

١٠ وقال فى رجلٍ يُعرف بابنِ كَثير :

وما الخيرُ مما يُرتجى فى ابنِ واحدٍ فـكيفَ نُرجِّيه مِن(٢) ابنِ كثيرِ ؟!

وقال :

وكيفَ نرجوالسحابَ الجُوْدَ مِن رَجُلٍ لا يطمعُ الطيرُ فيـهِ وهو مصلوبُ
أصبحتُ أحلبُ تَيْساً لا مَدَرَّ له والتيسُ مَن ظَنَّ أنَّ التيسَ محلوبُ

١٥ وقال :

يا لأئِماً عِمرانَ لا تُنشِـــدَنْ عمرَو بنَ كُلثومٍ « ألا هُبِّى »
طَمِعتَ فى كلبٍ فداريتَـــه والكلبُ مَن يَطمعُ فى كلبِ

(١ — ١) فى الأصل : مالى أن .

(٢) فى الأصل : فى .

فصلٌ فى ذِكر طائفةٍ من الشعراء المقلّين الطّارئين على هذا الأفق من بلاد المشرق ، مع ما يتصل بذكرهم من المعارف المفيدة

منهم :

٥ سليمان بن محمد الصقلّى : كانَ — فيما بلغنى — من أهلِ العلم والأدبِ والشعر ، ووَفدَ على هذا القطرِ سنةَ أربعينَ وأربعمائة ، وقصد بمديحه عِدّةً من الرؤساء ، وتقدَّمَ بفضلِ أدبهِ عند الكُبَراء . وممّا أُنشدته له فى عذول قبيح قوله :

رأى وجهَ مَن أهوَى عذولى فقالَ لى ... أُجِلُّكَ عن وجهٍ أراهُ كَريها

١٠ فقلتُ له بَلْ وجـــهُ حِبّى مِراةٌ ... وأنت ترى [مَكروهَ] (١) وجهكَ فيها

ومن شعره :

تَقلّبَ دهرُنا فالصقرُ فيـهِ ... يُطالِبُ فضلَ أرزاقِ الحمامِ

على الدّنيا العفاء فقد تناهَى ... تَسرُّعها إلى أيدِى اللئامِ

وما النعماء للمفضـــولِ إلّا ... كمثلِ الحَلْيِ للسيفِ الكَهامِ

١٥ ذَرِينى أجعلِ التَّرحالَ سِلكاً ... أُنظِّمُ فيـهِ ساحاتِ المَوامِى

فإنى كالزُّلالِ العَذْبِ يُؤذِى ... صفَاهُ وطعمَه طُولُ المُقامِ

وهذا المعنى مشهور ، وقد مرَّ منه فى تَضاعيفِ هذا التصنيفِ كثير ، كقولِ بعضِ أهلِ عصرِنا .

مَلّتْ حِمْصَ وملّتنى فلو نطَقَتْ ... كما نَطقتُ تلاقَينا على قَدَرِ

(١) هذه الكلمة غير موجودة بالأصل ولابد منها وما يشبهها لإقامة الوزن .

وسـوّلتْ لى نَفْسى أن أُفارقَها والماءُ فى المُزنِ أصفَى منهُ فى الغُدُرِ

وكذلك قوله : « بَلْ وَجْهُ حِبِّى مِراءة » معنًى مُتَداول ، منه قولُ يوسف ابن هارونَ الرَّماىّ :

وإذا أرادَ تنزُّهاً فى رَوضـةٍ أخـذَ المِراةَ بكفِّهِ فأدارَها

٥ وقال الآخر :

أنا كالمِرآةِ أُلـقَى كلَّ وجـهٍ بمِثالِهْ

وقال العباسُ بنُ الأحنف :

همّتْ بإتيانِنا حتى إذا نظرتْ إلى المِراةِ نَهاها وجهُها الحسَنُ

ولبعضِ أهلِ المِصريْن فى غُلامٍ كان يَهواه ، مما يتطرّفُ معناه :

١٠ يَجرى النسيمُ على غِلالةِ وجهِـهِ وأرقُّ منـــهُ ما يَمُرُّ عليهِ

ناولتُه المِرآةَ يَنظرُ وجهَـهُ فعكستُ فِتنةَ ناظرَيْهِ إليـه

ورأى أبو الحسن السَّلامى فى يَدِ غلامٍ يَميل إليه مِرآةً فقال :

رأيتُه والمـراةُ فى يَدِه كأنَّها شَمْسةٌ على مَلَكِ

فقلتُ للصورة التى احتجبَتْ مِن غيرِ زُهدٍ فيها ولا نُسُكِ

١٥ ياأشْـبَه الناسِ بالحبيبِ ألا تُخبرنا عنك غيرَ مُؤتفِك[1] !

قال أنا البدرُ زرتُ بدرَكمُ وهـــذه قطعةٌ مِن الفلَكِ

قلتُ فإنى أرَى بها صدأً[2] فقال هـذى بقيّةُ الحُبُكِ

وذكرتُ بذكره المرآة قولَ القراطيسى الـكوفى ، وهى أبياتٌ يتداولها القوّالون :

ما تنقضى مِن عجَبٍ فِكرتى فى خَصْلَةٍ فرّطَ فيها الوُلاةْ

٢٠ ترْكِ المحبـينَ بلا حاكمٍ لمْ يُقعِدوا للعاشقينَ القُضاةْ

وقد أتانى خـبرٌ ساءنى مقالُها فى السرِّ : واسَوأتاهْ

(١) فى الأصل : مرتفك . (٢) فى الأصل : أراها صدى .

أمِثْلُ هـذا يَبتغى وصلَنا ... أما يَرى ذا وجهَه فى المِراهْ !؟

قال القراطيسى : وقلتُ يوماً للعباس بن الأحنف : هل ألممتَ بهـذا المعنى ؟ فأنشدَنى لنفسه[1] :

جاريةٌ أعجبَها حُسنُها ... ومِثْلُها فى الناسِ لم يُخلَقِ

خبَّرتُها أنّى مُحِبٌّ لها ... فأقبلَتْ تَضحكُ مِن مَنطِقِ ٥

والتفتَتْ نحوَ فتاةٍ لها ... كالرشإِ الوسنانِ فى قُرْطَقِ

قالتْ لها قُولى لهذا الفتَى ... أنظرْ إلى وجهِكَ ثم اعشَقِ

وحدثنى الفقيهُ أبو بكرِ بنِ الوزيرِ الفقيهِ العربىّ[2] ؛ قال : حُدِّثتُ عن الفقيهِ أبى عبدِ اللهِ الُحميدىّ عن سليمانَ بنِ محمدٍ الصِّقلى ، قال : كان بسُوسةِ إفريقية رجلٌ أديبٌ ظريف يهوَى غلاماً جميلاً من غِلمانها ، واشتدَّ كلَفُه به ، فتجنَّى ١٠ الغلامُ عليه ، فبَيْناهُ ذاتَ ليلةٍ يشربُ مُنفرداً وقد غلَبَ عليه السُّكرُ خطَرَ ببالِه أن يأخذَ قبَسَ نارٍ فيحرقَ به دارَه ، ففعلَ وجعلَه عند بابِ الغلام فاشتعلَ ٦٣| ناراً ، فاتّفقَ أنْ رآه بعضُ الجيرانِ فأطفأه ، فلمّا أصبحَ حُمِلَ إلى القاضى فسأله لِمَ فعلَ ذلك ، فأنشأ يقول :

لمّا تمادَى على بِعادى ... وأضرمَ النارَ فى فؤادِى ١٥

ولم أجِدْ مِن هَواهُ بُدًّا ... ولا مُعِيناً على السُّهادِ

حملتُ نفسى علَى وقُوفى ... ببابِه حمـلةَ الجَوادِ

وطارَ مِن بعضِ نارِ قلبى ... أقلُّ فى الوصفِ مِن زنادِ

فاحترقَ البابُ دونَ عِلْمى ... ولم يَكنْ ذاكَ مِن مُرادِى[3]

فاستظرفَه قاضى البلد ، وتحمَّلَ عنه ما أفسد . ٢٠

(١) هذه الأبيات ليست بالديوان (٢) فى الأصل : العرنى .
(٣) فى الأصل : ذاك بمراد .

قال الُحميدى : وكنتُ أظنّ أنّ هذا المعنى ممّا تفرّدَ به هـذا القائل حتى أُخبِرتُ أنّ نصرَ بنَ أحمد الخبزرُزى دخلَ على أبى الحسن ابنِ المثنّى فى إثرِ حريقِ المِرْبد ، فقالَ له : هل قلتَ فى هذا شيئاً ؟ فقال : ما قلتُ ، ولـكن أنشِدُك ارتجالاً ، وجعلَ يُنشِدُ هذه الأبيات :

٥ أتتكمْ شُهودُ الورَى تَشْـهَدُ ... فما تستطيعونَ أن تَجحدوا !؟

فيا مِرْبَدِيُّونَ ناشــــدتــكم ... على أننى منـكمُ مُـكمَـدُ

جرَى نَفَسى صَعَداً نَحوَكمْ ... فمِن حَرِّه احـتَرقَ المِرْبَدُ

وهاجَتْ رِياحُ حَنِينى لـكمْ ... فظَلَّتْ بهـا نارُكم تُوقَدُ

ولولا دُموعى جَرَتْ لم يَكنْ ... حريقُـــــكمُ أبداً يَخمَدُ[1]

---

١٠ فصلٌ فى ذِكْر الأديبِ أبى الفُتوح ثابتِ بنِ محمد الُجرجانى

مِن جُملةِ مَن وفَدَ أيضاً على البـلَدِ فى ذلك الأوان ، وكانَ الغالبُ على أدواتِه علمَ اللسان ، وحِفْظَ الغريبِ والشِّعرَ الجاهلىّ والإسلامى ، إلى المشاركةِ فى أنواع التعاليم ، والتصرّفِ فى حَمْلِ السِّلاح ، والحِذقِ بالآلاتِ الُجنديّة ، والنَّفاذِ فى مَعانى الفُروسيّة ؛ فكان الـكاملَ فى خِلالٍ جَمّة . طرَأ على الجانبِ[2]

١٥ منذُ صدرِ الفِتْنة للذائعِ من كرمه ، فأكرمَ نزُلَه ، ورفعَ من شأنه ، وأصحبَه ابنَه المرشّحَ — كان — لسلطانه . فلم يَزلْ له بهما المـكانُ المـكين إلى أن تغيّر عليه يحيى بتغيُّرِ الزمان ، وتقلّبِ الليالى والأيام بالإنسان ، ففارقَه ولحقَ فى غَرناطةَ بعسكرِ البرابرة ، فحلّتْ به من أميرِهم باديس الفاقِرَة .

---

(١) فى الأصل : محمد . (٢) كذا بالأصل ولعلها « الناصر » وهو على بن حمود الحسينى والد يحيى المذكور فيما بعد .

ووجدتُ بخطِّ الفقيهِ أبى محمدِ بن حزم ، قال : إنّ أوّلَ مَن لَقِىَ مِن مُلوكِ الأندلسِ مُجاهِدٌ العامرىّ المتقدّمُ الذِّكْر ، فأكرمَ نُزُلَه وأنِسَ به ، وسأله يوماً عن رفيقٍ له رآه معه ، فقال الجرجانى :

رفيقانِ شَتَّى ألّفَ الدهرُ بيننا وقد يَلتقِى الشتَّى فيأتلفانِ

قال أبو محمدِ بنُ حَزْم : ثم لقيتُ بعدَ ذلك أبا الفُتوحِ فأخبرنى عن بعضِ شُيوخِه أنّ ابنَ الأعرابى رأى فى مجلسِه رجلَيْنِ يَتحدّثانِ ، فقال لأحدهما من أين أنت ؟ قال من أسفيجاب[1] وسأل الآخرَ فقال : من الأندلس ، فعجبَ ابنُ الأعرابى من ذلك وأنشدَ البيت المتقدّم .

ثم أنشدنى هذه المقطوعة .

نَزلنا على قيسيَّةٍ يَمنيَّةٍ لها نَسَبٌ فى الصالحينَ هِجانِ
فقالَتْ وأرخَتْ جانبَ السِّترِ دُونَها : وقد يَلتقِى الشتَّى فيأتلفانِ[2]

قال ابنُ حَزْم : وأخبرنى أبو الفُتوح الجُرجانى ، قال : أخبرنى علىُّ بن حمزة [أنّ القصيدةَ التى أوّلها « هٰذى بَرزْتِ لنا فهِجْتِ رسيسا » قالها المتنبى فى محمد ابنُ رَزيق] وكيلِ زواملِ بنِ الزّياتِ صاحبِ طَرْسوس[3] ، وأنه وصلَه عليها بعشرةِ دراهم ، فقيلَ له إنّ شِعْرَه حَسَن ، قال : ما أدرِى أحَسَنٌ هو أم قبيح ولكنى أُزيدُه عشرةً أُخرَى ! فكانتْ صِلتَه عليها عشرين درهما[4] .

(١) فى الأصل « أستيجاب » والتصحيح عن ياقوت .

(٢) وردت هذه المقطوعة فى بغية الملتمس ص ٢٣٧ فى أربعة أبيات هكذا .

نزلنا على قيسية يمنية لها نسب فى الصالحين هجان
فقالت وأرخت جانب الستر دوننا لأية أرض أم من الرجلان
فقلت لها أما رفيقى فقومه تميم وأما أسرتى فيمانى
رفيقان شتى ألّف الدهر بيننا وقد يلتقى الشتى فيأتلفان

(٣) فى الأصل طرطوس .

(٤) ورد هذا الخبر ناقصا فى الأصل والتكملة عن معجم الأدباء (جـ ٥ ص ٢٠٣) .

فصلٌ في ذكرِ الأديب عبدِ العزيز بنِ محمدٍ السُّوسى
أحدِ أضيافِ بنِ ذى النُّون

قال ابنُ بسّام : ولم يَقعْ إلىّ مِن شِعرِ هذا الرجلِ إلا قصيدةٌ من جُملةِ قصائدَ لغيرِ واحد ، أُنشِدتْ للمأمونِ يحيى بنِ ذى النون ، سنةَ خمسٍ وخمسين ٥ فى صنيعٍ احتفَلَ فيه لإعذارِ حَفيدِه حسبَ ما أصِفُه . وقصيدةُ السُّوسى فى ذلك طويلة ، منها قولُه :

لمّا بنيتَ مِن المكارِمِ والعُلا ... ما جاوَزَ الجوزاءَ فى الإجلالِ

أعملتَ رأيَك فى بناءِ مُكَرَّمٍ ... ما دارَ قطُّ لآملٍ فى بالِ

لوزارَه كِسرى أنو شُروانَ لم ... يَصرِفْ إلى الإيوانِ لحظَ مُوالى(١)

١٠ يا ساقىَ الصَّهباءِ أينَ كِبارُها ... قد لذَّ وِرْدُ القهوةِ السَّلْسالِ

إعذارُ يحيى أبهجَ الدُّنيا وبيَّنَ ... عُذْرَنا فى نَخْوَةِ المُختالِ

حشدَ السُّرورَ لنا طَهورُ مُطَهَّرٍ ... مِن عائرِ الجُبَناءِ والبُخَّالِ

عَرَضٌ مِن الآلامِ يَجلُبُ صِحَّةً ... وطَفيفُ نَقْصٍ فيه كلُّ كَمالِ

انتهى ما كتبتُه منها . ونذكر بعقِبها ما تعلَّق بسببِها فصلاً لابنِ حيّان فى وصفِ ١٥ ذلك الصنيعِ الذِّنُونىّ ، دَلَّ به على بَراعتِه ، وأعربَ به عن مَوْضعِه مِن صناعتِه . وسيمرُّ أثناءه ذِكرُ شُعَراءَ من هذه الطائفةِ الطارئةِ وسواها ، لانتظامِ كلامِ ابنِ حيّانٍ إياها . فمنهم مَن ذكرتُ فى هذا الموضعِ بارعَ أشعارِه ، وجرَّدتُ فصلاً من كتابى فى مُستطرَفِ أخبارِه ، ومنهم مَن فاتَ دَرَكى ولم يَعلَقْ بشَرَكى ، فاقتصرتُ فى هذا الفصلِ على ذِكرِه ، وأثبتُّ ههنا ما وقع

(١) رسم الكلمة فى الأصل : « قوال » وما أثبتناه أقرب الاحتمالات .

٦٤

إلىَّ مِن شِعره . وكانَ غيرُ السُّوسى منهم أحقَّ بالتقديم كمحمدِ بنِ شَرَف وسائرِ طَبَقَتِه ، ممَّن هو أعصفُ فى البيانِ رِيحا ، وأكثرُ عن الإحسان تَصريحاً ولكنْ وصَلْنا هذا الفصلَ بخبرِ هذا الرجل إذْ لم يكن له فى سواه آيةٌ تُتلَى ، ولا حَسَنةٌ تُجْتَلى .

٥ قالَ ابنُ حيَّان : كتبَ إلىَّ الأديبُ ابنُ جابر ، قال : احتفلَ المأمونُ ابنُ ذِى النُّون فى مَدْعاةِ إعذارِ حفيدِه يَحيى لحَشْدِ أُمراءَ البِلاد ، وجُملةَ الوزراء والقُوَّاد ، فأقبلوا إليها كالقَطا القارِبِ أرْسالا ، وقد رسمَ لخَدَمتِه فى تَوسيع مَشارِبِ هذا الإعْذار ، وإرغادِ موائدِه ، وتكميلِ وظائفه ، وإذكاءِ مطابخِه ، رُسوماً انتهَوْا فيها إلى حَدِّه ، وشَقَّقَ عليها جُيوبَ أكياسِه ، وأمرَ ١٠ بالاستكثارِ من الطُّهاةِ والإتآق للقُدور ، والإتراع للجِفان ، والصِّلَةِ لأيامِ الطعام ، والمشاكلةِ بين مَقاديرِ الأخبازِ والآدام ، والإغرابِ فى صَنعةِ ألوانِها مع شِياب أباريقِها بالطُّيوبِ الزكيَّة ، والقِرانِ فيها بين الأضدادِ المُخالِفَة ما بين حارٍّ وبارِد ، وحُلوٍ وحامض ؛ والمماثلةِ بينَ رائقِ أشخاصِها وبينَ ما تُودَعُ فيه من نفائس صِحافِها ، والاستكثارِ لها من أنواعِ الحَلْواءِ المُجبَّرة[1] للمِعَد من ١٥ داءِ الإتخام وتجاوزِ عَسليِّها إلى السكر . فجاءوا فى ذلك كلِّه بأمرٍ كُبار أُبيدتْ لمطابخِه أُمَمٌ من الأنعام ، جمعَ فيه بينَ المَشّاءِ[2] والطيَّارِ والعوَّام . وانتسفتْ لمخابزِه أهراءٌ مِن الطعام ، وأُنفقتْ على مجامِره ومعاطرِه جُمَلٌ مِن الأموالِ الجِسام ، [3]فاغتَدى ختامًا لمداعِى[3] أهلِ الإسلامِ العِظام .

وشَرَّفَ المأمونُ بالاشتراكِ مع تطهيرِ حفيدِه يَحيَى صِبياناً من بنى أصحابه ،

(١) ويحتمل أن تضبط : المجيرة . (٢) فى الأصل : الشا .

(٣—٣) فى الأصل : « فاغتدى حماما المداعى » ولعلها ما أثبتناه .

وبدأ بحفيده قبلهم ، فكان أسكنَ مَن خُنِفَ معه جأشاً ، وأقلَّهم زمعاً ، وإنه مَشَى — زعموا — إلى الحديد مشيَ البطلِ النَّجيد ، ومكَّنَ الخاتِنَ من عضوه فأعانه على إحكام صُنْعِه ، وسوَّى ختانه ، وخففَ آلامَه[1] ، وأوشك إقرافه[2] ، نخلصَ من محنته هذه الشرعيَّة ، خُلوصَ صادرِ السِّهامِ المُصمِي للرمية ، فسُرَّ ابنُ ذي النُّونِ وشام بَرْقَ الأُمنيَّة . فعند ذلك أذكى نيرانَه ، وأنضجَ أطعمتَه ونصبَ موائدَه ، ودعا الجَفَلى إليها ، ولم يُفسِحْ لأحـــدٍ التخلُّفَ عنها .

٥

فاكتملتْ الأطعمة ، وفُتحَت الأبواب ، وسُهِّلَ الحِجاب ، ورُفِعَت السُّتور ، وجُلِيَت المقاصير ، وزُيِّنَت القصور ، وأُقيمَت المَراتب ، ووكِّلَ بكلِّ قِسْمٍ منها كبيرٌ من وجُوهِ الخَدَمة ضُمَّ إليه فريقٌ من الأعوانِ والوَزَعة ، يتصرَّفون بأمرِه ، ويَقِفون عند حدِّه . قد أخذوا بخفضِ الأصواتِ مع سُرعةِ الحرَكات وحَثِّ الأقدام ، فصارَ من بديع ذلك الصَّنيعِ الفَخْمِ أنْ لم يَعْلُ فيه صَوْت ، ولا تَشكَّى منه فَوْت[3] ، فطال العَجَبُ مِن استوائه في مثلِ ذلك المَشْهد .

١٠

قال ابنُ حيَّان ، ولمَّا بَكرَتْ أفواجُ عِلْيةِ الناس إلى بابِ القصرِ مُستبَقين ، وغَشيَتهُ زُمَرُهم وزرافاتهم مُبتدِرين ، أُنزِلوا عن دَوابهم عنـد باب المنصب الأول ، فأَذِنَ لهم بالدُّخول على مَراتبهم ، فمشَـوْا وقد حَفَّهم سَراةُ الصَّقْلبِ الخِصيان ، وخَوَاصُّ الحَشَمِ والغِلْمان ، فأُجلِسـوا في الدارِ الأُولَى ذاتِ الحائرِ الريَّان . فلمَّا اكتملوا أُدخِلوا إلى المجلس الـكبير ، فلمَّا استقرَّ فيه جمعُهم خرجَت تَسْمِيَةٌ من الأميرِ المأمونِ بإدخالِ القُضاةِ والفُقهاء ، والعُدُولِ ومَن يَليهم مِن كِبارِ الناس ، دَعاهم لذلك ذُو الوَزارتين أبو الفرَج[4] ، فقاموا

١٥

---

(١) رسم الكلمة في الأصل : الامته . (٢) كذا .
(٣) في الأصل : قوت . (٤) في الأصل : أبي الفرج .

والسكينةُ عليهم ، يَقدُمهم قاضى القُضاةِ أبو زيد بنُ عيسى القُرطبى ، فأُدخلوا بتكريمٍ على تُؤَدةٍ ورِفْق ، وجِيءَ بهم إلى الدار الكُبْرى الثانيةِ ذاتِ الساحةِ الواسعةِ الزاهرة ، ثم وصلوا إلى مجلسٍ قد فُرِشَ بالدِّيباجِ التُّستَرِىّ المرقومِ بالذهب ، وسُدِلَت فوقَ حَنَاياه سُتورٌ من جِنسه تكاد تَلتمِعُ الأبصارَ بصناعةِ ألوانها وإشراقِ عِقْيانها . وقد جلسَ لهم الأميرُ المأمون فى جانبٍ منه ، وحفيدُه فى جانبٍ آخر ، فأكبَّ الناسُ عليه يهنّئونه ، ويلثِمون أطرافَه ، ويَتنَاغَوْن فيما قد روَّوْا وابتدهُوا ، وهو يَشملهم بإقبال طَرْفِه ويَعُمّهم بإجمال رَدِّه ، فينثَنُون منه إلى حَفيده يَدعُون له . ثم عُدِلَ بهم إلى مكانِ الأطعمةِ فى المجلس الأوّل — على ذاتِ اليَسارِ من تلك الدارِ — الواسعِ القُطرِ الرَّحْبِ الأبواب ، وقد فُرِشَ بالوِطَاء التُّستَرِىّ ، وعُلِّقت على أبوابه وحَناياه سُتورُ الطميم[1] المُثقَّلةُ ذاتُ الصُّورِ المُقيَّدةِ للألحاظ ، وقد مُدَّت فيه صُنوفُ الطعام . فأمعنت هذه الطائفةُ فى الأكل ازدِقامًا وسَرْطا ، واختِضامًا وقَضما ، وانتِهالاً وعَلّا . ووُصَفاءُ الموائدِ الحافُّونَ من حولهم يَطرُدُون الأذِبّةَ[2] عن مجالسِهم بطِوالِ المَذابِّ البديعةِ الصنعة ، المُقمَّعةِ الأطرافِ بفاخرِ الحِلْية . ولمّا مضَى لهم صَدْرٌ من أكلهم ، نَجَمَ لهم الأميرُ المأمونُ قائمًا فوقَ رُؤوسهم ، مُتهمِّما بشأنِهم ، مُبالِغًا فى تكريمهم ، قد حَفَّ به أذْواءُ الوَزارةِ وأهلُ الخِدْمة ، وأكابرُ الفِتْيانِ وأعاظمُ القُوادِ قائمين بقيامه . ولمّا قضَى وَطَرًا من القيام بمُكارَمتهم صَدَر راجعًا إلى مَرْتبته .

ولما فرغتْ تلك الطائفةُ جِيءَ بهم إلى المجلس المرسوم لوُضوئهم ، وقد فُرِشَ أيضًا بوِطاء الوَشْيِ المرقُومِ بالذهب ، وعُلِّقت فيه سُتُورٌ مُثقلةٌ مماثلةٌ ، فأخذوا مجالسهم منه ، وناولهم الوُصَفاءُ الطائفون بهم رفيعَ النُّقاواتِ[3] والذَّرائرَ المطيّبات

(١) كذا فى الأصل . (٢) فى الاصل : الاذنة . (٣) رسم الكلمة فى الأصل : المعاوناب .

فى الأقداح والأُشنانداناتِ[1] الفضيّات المُحْكَمةِ الصناعات ، كادَتْ تُغنيهم بطيبها عن الغَسْل . ثم أُدنِىَ إليهم إثْرَ ذلك الوضوء فى أباريقِ الفضّةِ المُحْكَمةِ الصَّنعة ، يَصبُّون على أيديهم فى طُسوسِ الفضّـةِ المُماثلةِ لأباريقها فى الحُسنِ والجلالة ، فاستوعبوا الوُضوء ، وأُدْنيتْ من أيديهم مَناديلُ تتضاءلُ لها ما عليهم من سَنِيِّ الـكُسوة . ثم نُقلوا إلى مجلسِ التّطييبِ أفخمِ تلك المجالس ، وهو المجلسُ المُطِلُّ على النهر العالى البِناء ، السّامى السّناء ، فشُرِعَ فى تطييبهم فى مَجامرِ الفِضّةِ البديعةِ بفِلَقِ العُودِ الهندىّ ، المشوبةِ بقِطَعِ العنبرِ الفُستُقىّ ، بعد أن نُدِّيتْ أعراضُ ثيابهم بشآبيبِ ماءِ الورد الجُورىّ ، يُصَبُّ فوقَ رُؤُسِهم من أوانى الزُّجاجِ المجدود ، وفيّاشاتِ البِلّورِ المحفُورة ، ثم أُدْنِىَ إليهم قواريرُ المها المحـكَمةُ الصَّنعةِ ، الرّائقةُ الهيْئة ، قد أُترِعَتْ بالغوالى الذكيّة ، النّامّةِ بسرّها قبلَ الخِبْرة ، المُتخذَةِ من خالصِ المِسْك التُّبّتىّ ، ومَحضِ العَنبرِ المغربىّ ، لاءمَ بينهما رَشْحُ البانِ البرمَكىّ ، فتناولوا من ذلك حتى لأقطرتْ سِبالَهم ذَوَبانا ، وأعادَتْ شِيبَهم شُبّانا . فلمّا استتمّ هؤلاء الخَلَّةُ نعيمَ يومِهم ، مِن طعمِهم وطِيبهم ، أُقيموا للدخولِ على المأمون ، فسـلّموا عليه ، ودَعَوْا له . فأقبلَ عليهم أحسنَ قبولٍ ، وردّ أجملَ ردّ ، وأسرَ بإدخالهم إلى سيّدِ مجالسه المسمّى المُـكرَم ، نَتيجِ هِمّته ، وبَديعِ حِكْمتِهِ ، السائرِ خبرُه ، الطائرِ ذِكرُه ، المعدومِ نِدِّه[2] ، ليُمتعوا أبصارَهم بالنُّزهة ، ولم يكن أكثرُهم رآهُ إلى يومِهم ذلك مع عُلوِّ وصْفِه بخواطرِهم ، فلما رأوْه صَغُرَ عندهم ما كانوا يستـكبرونَه من وصفِه ، ورجعوا أبصارَهم فيه ، ونبَّه بعضُهم بعضاً على دقائقِ مَعانيه .

قال ابنُ حيان — قال ابنُ جابر : وكنتُ ممن أذهلتْه فتنةُ ذلك المجلس ،

(١) فى الأصل : والأشنان . (٢) كذا بالاصل ونحسبها نظيره أو ما فى معناها .

وأغربُ ما قيَّـدَ لحظى مِن بَهِىِّ زُخْرفِه الذى كادَ يحبسُ عينى عن الترقِّى عنه
إلى ما فوقَه إزارُه الرائعُ الدائرُ بأسِّه حيثُ دار ، وهو مُتَّخذٌ من رفيعِ المَرْمَرِ
الأبيضِ المسنُون ، الزَّاريةِ صفحاتُه بالعاجِ فى صِدْقِ الملاسةِ ونَصاعةِ التَّلوين ،
قد خُرمتْ فى جُثمانِه صُوَرُ البهائمِ وأطيارٌ وأشجارٌ ذاتُ ثِمار ، وقد تعلَّق كثيرٌ
من تلك[1] التماثيلِ المصوَّرةِ بما يَليها من أفنانِ أشجار وأشكالِ الثمر ما بين ٥
جانٍ وعابث ، وعَلِقَ بعضُها بعضاً بين مُلاعبٍ ومُثاقِف ، تَرنو إلى مَن تأمَّلها
بألحاظٍ عاطِف ، كأنها مُقبِلةٌ عليه ، أو مُشيرةٌ إليه . وكلُّ صورةٍ منها مُنفَردةٌ
عن صاحبتِها ، مُتميِّزةٌ [من] شكلِها ، تكادُ تُقيِّد البصرَ عن التعلِّى إلى ما فوقَها .
قد فَصَل هـذا الإزارَ عمَّا فوقَه كِتابُ نَقْشٍ عريضُ التقدير ، مُخرَّمٌ مَحفُور ،
دائرٌ بالمجلسِ الجليلِ من داخله ، قد خطَّه المِنقارُ أبينَ مِن خطِّ التزوير ، قائمُ ١٠
الحروفِ بديعُ الشَّـكْلِ ، مُستَبِينٌ على البُعْد ، مرقومٌ كلّه بأشعارٍ حِسان ، قد
تُخيِّرتْ فى أماديحِ مُخترعِه المأمون . وفوقَ هـذا الـكتابِ الفاصلِ فى هذا
المجلسِ بُحورٌ مُنتظمةٌ من الزجاجِ الملوَّن المُلبَّسِ بالذهبِ الإبريز ، وقد أُجريت
فيه أشكالُ حيوانٍ وأطيار ، وصُورُ أنعامٍ وأشجار ، يُذهل[2] الألبابَ ويُقيِّد ٦٦|
الأبصار . وأرضُ هذه البحار مَدْحوّةٌ من أوراقِ الذهبِ الإبريز ، مُصوَّرةٌ ١٥
بأمثالِ تلك التصاويرِ من الحيوانِ والأشجارِ بأتقنِ تَصويرٍ وأبدعِ تقدير .
قال : ولهذه الدار بُحيرَتان ، قد نُصّتْ على أركانِهما[3] صُوَرُ أُسودٍ مَصوغةٌ من
الذهبِ الإبريزِ أحكمَ صِياغة ، تتخيَّل لمتأمِّلها كالحةَ الوجوه فاغرةَ الشُّدوق ،
يَنساب من أفواهِها نحو البُحيرَتَين الماء هَوْناً كرَشيشِ القَطْرِ أو سُحالةِ اللُّجَيْن .
وقد وُضع فى قعرِ كلِّ بُحيرةٍ منها حوضُ رُخام يُسمَّى المَذْبح ، مَحفُورٌ من رفيع ٢٠

(١) فى الأصل : « ذلك » .
(٢) فى الأصل : « يذل » . (٣) فى الأصل : « أركانها »

المرمر ، كبيرُ الجرم ، غريبُ الشكل ، بديعُ النقش ؛ قد أبرزت فى جنباته صُوَرُ حيوانٍ وأطيارٍ وأشجار ، وينحصر منها(١) فى شجرتى فضةٍ عاليتىِ الأصلين ، غريبتى الشكل ، مُحكمتى الصَّنعة ، قد غُرزت كل شجرةٍ منها وسط كلِّ مَذبحٍ بأدقِّ صناعة ، يَترقّى فيهما الماء من المذبحين فينصبُّ من أعالى أفنانهما انصباب رَذاذِ المطرِ أو رَشاشِ التندية ، فتحدُثُ لمخرجه نغماتٌ تُصبى النفوس ، ويرتفع بذروتها عمودُ ماء ضخمٍ مُنضغطِ الاندفاع ؛ ينساب من أفواهها ويُبلِّلُ أشخاصَ(٢) أطيارها وثمارها ، بألسنةٍ كالمبارد الصَّقيلة ، يُقيِّد حُسنُها الألحاظ الثاقبة ، ويدع الأذهانَ الحادَّة كليلةَ .

قال ابنُ حيَّان : إلى هذا المكان انتهى تلخيصى ووصفى ، وهو جَلَلٌ عند قِرانه بموصُوفاته ، ووَشَلٌ عند إضافته إلى منعُوتاته(٣) . وأبرأُ من عُهدة التقصير فيه ، وأُنهِجُه لمن تعاطى الاقتدار على الإبداع فى وصفه . قال : وتوالى إطعامُ أفواج الناسِ فى ذلك الإعذار ، مجلساً بعد آخر ، أياماً متوالية ، حتى استُدعِيَ له من بقايا أصنافِ الناسِ وأدونِهم حتى الجفلَى . وأُزعجوا إلى النعيمِ الذى لا عهدَ لهم به ، دَخلوا على التَّطليق ، وحُفظوا من ضَنْكِ المَضيق ، وأُوسِعَتْ ما كلُهم من غليظٍ ورقيق ، فالتهموا وازدردوا(٤) ، ونَهِلوا وعَلُّوا ، ووضَّئوا وطُيِّبوا .

مجلسُ الأُنس

قال ابن حيان : وذهَبَ المأمونُ إلى تتميم تكريم زُوّاره من رجالِ الأُمراء الذين استحضرهم يومئذٍ لشهُودِ فرْحته ، بمشاهدة مجلسِ خلْوته ، وتنعيمِ أسماعِهم بلذّاتِ أغانيه ، وقد علم أنّ فيهم مَن يُرخِّصُ فى النّبيذ

(١) لعل الصواب : ماؤها . (٢) فى الأصل : « أشخاصها طيارها » .
(٣) فى الأصل : « مغموضاته » . (٤) فى الأصل : « ازدرموا » .

ولا يسوغُ له نعيمٌ دونهُ ، فاحتمل حرج ذلك مُبالغةً فى تأنيسهم ، فاحتفل لهم فى مجلسٍ قد نُضّد وأُحضِرَ فيه جميعُ آلات الأُنس . فلمّا استوى بالقومِ مجلسُهم ، واشرأبّوا إلى الأخذِ فى شأنِهم ، قرّب إليهم أطعمةً طنوريةً[1] جَوَامدَ وباردَة ، وصُنوفاً من المُصُوصِ والأشربةِ والطياهج ، وَوائد مترعة اتخذوها بُسُطا لِنبيذِهم . ثم انثنوا إلى الشرابِ ونُفُوسُهم به صبّة ، وقد مُدّتْ ستارةُ الغِناء لأهلِ الحِجاب ، ونُظّمتْ نَوْبةُ المغنّين زُمَرًا ، فهاجوا الأطراب ، واستخفّوا الألباب ، ونقلوا الطِّباع فجاؤا بأمرٍ عُجاب ، بَذّهم فيه سابقُ حَلْبتِهم ، المُحسّدُ مِن جماعتِهم ، الإسرائيليّ ذى[2] ، الزائدُ إحسانُه على إبراهيمَ الموصلى ، صديقُ إبليس ، الطريفُ مِن [3] فِتْنته ، ومحاباه بالماحور فى المكنون [3] ، الذى اغتذى فى باطِلِه نسيجَ وحدِه ، يزدهى العيدانَ جَسُّه ، ويُخرِسُ الأطيارَ شَجْوه . قاتَله اللهُ مِن آخذٍ بالقُلوب ! فطربوا وطربَ المأمونُ ليلتئذٍ على وفُورِ حِلْمِه . وكان الذى غنّاه فيها ذى صوتاً شجيًا لحّنَه من خَفِيفِ الرَّمَل ، مُطلَق بالخِنْصَر ، فى مقطوعةٍ نَظَمها عبدُ اللهِ بنُ خليفةِ الملقبُ بالمِصرى ، وهى :

باكِرْ لبِكْرِ الدِّنانِ إنّ ... م هِداءَ العروسِ فى السّحَرِ
واشربْ عُقارًا[4] تَخالُ حُمرتَها ... تَحرِقُ أيدِى السُّقاةِ بالشّرَرِ
فإنّ يحيَى أحيَى بدولتِه ... ما قد محَاهُ تَصرّفُ القَدَرِ
مَلْكٌ هوَ الدهرُ فى عزيمتِه ... يَطلُعُ فينا بِطلعةِ القَمرِ

فطمحَ بابنِ ذى النُّونِ الإطراب ، حتى حنّ حنينَ النّاب ، وخَلعَ لوقتِه عليه ثوباً من التُّستَرِىّ الأخضر مُطرّزاً بالذهب ، ووصَلَه بمائتى دِينار ذهباً ، ثم فضّ

(١) كذا بالأصل ولعلها « تنورية » . (٢) كذا رسم هذا العلم فى الموضعين .
(٣ — ٣) كذا بالأصل ولعلها : ومحاباه فى الماخور بالمكنون
(٤) فى الأصل : عمارا .

الصِّلاتِ والخِلَعَ فى سائر الطبقات .

هذا آخرُ خطابِ ابنِ جابرٍ إلىّ بوصفِ ذلك الإعذار ، وجُمَلُه التى بَسطتها من إدماجه ، وسَبَكتُها من نَقْده . خلا أنه سامَنى ذِكرَ مقطوعاتٍ حَشا بها كتابَه إلىّ ، من صنعةِ صديقهِ عبدِ الله بن خليفةَ المِصرىّ ، تعاوَرَ المغنُّون فى تلك

٦٧ ٥ الليلةِ الغَنَّاء بها ، وجميعُها عندى فى نهايةٍ من الضَّعْف والتَّخلُّفِ والتَّبرؤِ من صَنعةِ الشعر ، يَبغى بها توشيحَ هذا المشهدَ الجليلَ الذى قِيلتْ فيه[١] بنظمِها[٢] فى عِقْده ، فلم أُسعِدْه على ذلك تَرفيعاً به عن هُجنتِها ، وتَبرئةً لنقدى على استجادةِ سَبْكها ، ومَذمّةً لزمنٍ غُفْلٍ أقحمَ قائلَها فى زُمرةِ الشعراء ، وجَسَّره على إنشادِ جِلّةِ الأُمَراء . وطالما عَنّانى هذا الرجلُ بذكرِ ابنِ خليفةَ هذا وإنمائه

١٠ إلى النِّسبةِ المصرية ، وعَزْوه له إلى المعارفِ الحِكْمية . وأنا أحسبُه مِصرىَّ التُّربة ، مُقطارِحَ الغُربَة ، مُستطيراً على بُعدِ النُّجعة ، مُرهَفَ الحدّ ، مُحتَنكَ التَّجرِبَة ، أرتاحُ لذكره وأودُّ لُقياه والأخذَ عنه . فأبرزَه الفحصُ لى قُرطبىَّ التُّربَةِ ، مَحلّىَّ[٣] الحُرْمَة ، سُوقىَّ الحِرفَة ؛ ابنُ جارٍ لى مِن تُجّارِ الخفّافين يُسمَّى خليفة ، عجمىٌّ نَبَز الأبَ بالمورته ، مُجفوُّ[٤] المِتَّة منذ سَنواتٍ قليلة . لم أعهدْ

١٥ ابنَه هذا يَرتسِمُ بأدَب ، ولا يسعَى لطَلب ، إلى أن رمَتْ به النَّوَى قريبًا إلى بلادِ العُدْوَة لابتغاءِ المعيشة ، فأطالَ بها الثَّواء ، ولَقِىَ الفُهَماء ، وتَقيَّلَ الجُسَراء ، فكَرَّ إلينا على زعمِه مصريًّا صليبيةً ، وأديباً باقِرَة[٥] ، وشاعراً باقِعةً ، وحكيماً نِطّيسًا ، وظَريفًا مُمتِعا . كلُّ ذلك من غيرِ طُولِ رِياضَة ، ولا تَقدِمةِ معرفَة .

(١) فى الأصل : « قوبلت به » (٢) فى الأصل : « ينظمها » .
(٣) فى الأصل : محال ، ولعل ما أثبتناه أقرب الاحتمالات
(٤) فى الأصل : « مفجوا المتمه » .
(٥) فى الأصل : « بقرة » .

وما إنْ يُستنكَر لقاسمِ الفضائلِ بينَ خَلْقِه أنْ يَجمعَ منها لواحدٍ مافرّق فى جماعة ، له القُدرةُ البالغةُ والحِكمةُ القاهرة !

وفى فصل له فى ذكر الشعراء

قال ابنُ حيّان : وصارَ من مَنا كِيدِ ذلك الصَّنيع المُلحِقةِ به عَيْبَ التقصير عُدْمُه لحُذّاقٍ مِن الشعراء يُجيدون القولَ فيه ، ويُحسنون وصفَه ، فيُوفُّون المُبدِعَ له حقَّه . إذْ ألْوَى بِبقاياهمُ الزمنُ العَصِيفُ المُطاوِلُ للفتنة ، وجاء بأشباهٍ له من شُعراء مُتكلفين مثلِ الخازِباز المضروبِ مُثْلة ، يُهينمون بما لا وَدْقَ[1] له مِن سَمائهم ، ويُفرغُون فى قَوالِبَ تَضيق عن إفراغِهم ، ويَجهدون فى حَشْو قَوافيهم دونَ إرهافٍ للفظٍ ولا استنباطٍ لمعنًى ، فلا يَسرُّون ناقدًا ، ولا يَهزُّون مُمتدَحًا[2] ، ولا يُنشِطون رَاويا . وأشقُّ ما على الحائز لهم غِلَظُهم فى أنفُسِهم ، واستِقصارُهم لمن امتدَحوه فى إخلاله وقُعودِه بهم ، وهى لو عَقلوا أقعدُ وأضيقُ وأقصرُ وأعكَس . فياوَيْحهم ماذا عليهم فى الإنصافِ من أنفُسِهم والاعترافِ بتقصيرهم ، أليسَ ذلك كانَ أولى بهم ؟ ! فما أحسنَ قولَ « لاأدرى » بمن يَدرى فضلاً بمن هو بِضدِّها تُصاب مَقاتِلُه . فلو قَلَّدُوا الزمنَ دونَهم ، ووَلَّوْه نقصَهم ، واعترَفوا لِبَلْواه ، لكانَ أعذرَ لهم . فجلسَ لهم المأمونُ مُتخِذُ تلك المَدْعاةِ الفخمةِ فى مَرتبتِه ببِرطيلِ المجلسِ الموصوفِ فى أُبّهةٍ فخمةٍ ورُتبةٍ[3] كاملةٍ مع كبارِ أهلِ مملكته من أذواءِ الوزَارَاتِ المُثنّاةِ[4] والمُفردَة ، ومِن أصحابِ الخُططِ العَليّات ، وأذِنَ لتلك الحَلْبةِ من شُعَراء [ ][5] من طارئٍ وقاطنٍ ، وهم

(١) فى الأصل : بما لاورق له من أسمائهم . (٢) رسم الكلمة فى الأصل : ممتونا .

(٣) كذا بالأصل ولعلها « وزينة » .

(٤) فى الأصل المثنية . (٥) بياض فى الأصل بقدر كلمة .

نَفَرٌ غيرُ مُنوَّهٍ بهم ولا بأسمائهم، ولا يُحاسَنُ(١) بِرُواتِهم، فدخَلُوا إليه على هيئتهم يَقدُمهم شيخُهم المُقدَّمُ من جماعتهم ذلك اليوم، محمدُ بنُ شرفٍ القيْرواني، القريبُ عَهْدُه بالهِجْرة، بعدَ خَبْطِه سَمُرات مُلوكِ الأندلسِ بِمِحجَنه، واعتصارِهم بقصعته(٢)، فأذِنَ لهم في الإنشادِ بحسَبِ تطبيقِهم، فتقدَّمهم ابنُ شرفٍ فأنشدَ قصيدةً أوَّلُها: «يُرِيني الهوَى أنّ الهوى لَيِّنٌ سَهْلُ»، ما إن هي لاحِقةٌ بعُيونِ شعره، أطالَ فيها التَّشبيبَ تخلَّصَ إلى التهنئة، وقد استفرغَ القريحةَ وطوَّلَ فما أتى بطائلٍ. ثم تقدَّم بعدَه البائسُ عبدُ الله بنُ خليفةَ الأندلسيّ المتمصِّرُ بزَعْمه، فيا بُؤسَ لسابقٍ صَلَّى بعدَه! فأنشدَ قصيدةً مُلفَّقةً، ذاتَ طنينٍ وقَعْقعة، كَثَّرَ أبياتَها، وقلَّلَ أقواتَها، أولها: «أرَى أثَلاتِ الجِزْعِ بالوَصْلِ تُورِقُ» تركه المأمونُ أيضًا يتصرَّفُ بها، ما إنْ هزَّتْ(٣) منه عِطفًا، ولا أبدت له بَسْمًا. وقام بعدَه محمدُ بنُ زكيّ الأُشبونيّ، فأنشدهُ شعراً أوّلُه: «اليومَ أبهجَ مِنْبَرٌ وسَرِيرُ» رَكِبَ فيها سَنَنَ مَن قبلَه. ولَحِقَ ابنَ ذي النُّونِ سآمةٌ مِن كُلَفِ يومِه، فأمرَ بأخذِ بطائقِ جميعِ مَن حَضَره من الشُّعراء، وأسلمها إلى وزيرِه الأثيرِ يومئذٍ عبدِ الرحمن بن مُثنَّى كي يتصفَّحها بفضلِ أدبِه، ويُطبِّقَ قائلَها بحسَبِ معرفتِه فيأمرَ لهم بما يجدُه. فبدَا على الشعرِ يومئذٍ انكسار، ولَحِقَ(٤) أحفافَه انهيار، وأصَمَّ به الناعي، مُسمِعاً يَندُب شجوَه بابنِ اليَماني، مُناديًا يُنادي: يا إدريساهُ! ولا إدريسَ يومئذٍ للقوافي، وكلُّ شيءٍ له حَتْفٌ مُوافي!

قال ابنُ حيان: وأكتب إثْرَ هذا الفصلِ بعضَ ما اخترتُه من قصائدِ هؤلاءِ الشُّعراءِ على ما خَيَّلتُ لئلا يَخلوَ جيِّدُ التآليفِ مِن مُخشلِها.

(١) الكلمة غير منقوطة بالأصل. (٢) كذا في الأصل.
(٣) في الأصل: همت (٤) في الأصل: ولحقت.

فمن قصيدة ابن شرف فى ذكر وطنه وحنينه قوله :

تذكّرتها واليمُّ بينى وبينها ومَوصولةٌ فيحُ ومهجورةٌ غُفْلُ
ومِنْ دُونِها حَرْبٌ عوانٌ وفارضٌ ولودٌ لها مِن نفسِها أبدًا بَعْلُ

ومنها فى ذكر قصيدته :

يُقِرُّ امرؤُ القيسِ بنِ حُجْرٍ لفضلِها ويُظهِرُ عنهـا العجزَ علقمةُ الفَحْلُ ٥
فلو وَصلتْ عُمرى اللّيالى لوقتِـه لقالت [له] الأشعارُ ما قالت النملُ[1]

قال ابنُ بسّام : وأثبتَ ابنُ حيّان فى كتابه لتلكَ الطائفةِ المُنشِدةِ يومئذٍ عدّةَ قصائد ، ولم يَسلُكْ فيها سبيلَ ناقدٍ . قال : وأمّا المُتكلِّفُ المصرىّ فَشُكُلُ[2] الحَلْبة ، فكانَ أبطأَهم جِراءً وأنآهُم عن الغاية ، لمّا اجتهدَ فى المَتح فجاء بقليلِ ماء ، فوّق ظَماءَه[3] بخمسين بيتًا سُدًى ، لفّقَها قصيدةً مُتخاذِلةً لم يفتُق فيها معنًى ١٠ حسنًا ، ولا قافيةً حُرّةً ، بل ما زادَ عَلَى أن صرّفَ النّسيبَ فى ستٍّ من الخَلّاتِ مُسمَّيات ، فَضَلَ فيهنّ إمامَ المُحْدَثين أبا تمّام بزيادةِ اثنتين ، ثم قطيع[4] المديح توسُّمًا ؟ معَ ما وجدَه هُناك مِن آجُرٍّ وجِصٍّ ، فهدَفَ منها فيما لم يُعِنْه عليه طَبْع ، ولا أسْعدتْه صَنْعة ، فكانَ الذى أبدَى كبيرَ نَفْحةٍ مِن خالصِ سَبْكه قولُه :

وقد كانَ لى [فى] مصرَ دارُ كرامةٍ ولكنْ إلى المأمونِ كنتُ أُشوّقُ ١٥
حَلَلتُ عليـهِ والمكارمُ جمّةٌ وسُحْبُ العَطايا برقُها يتألّقُ

انتهى ما لخّصتُه مِن كلامِ ابن حيّان .

جُملةٌ من أخبارِ بنى ذى النّونِ وذكرُ أوّليّةِ أمرِهم

قالَ ابنُ بسّام : ونَتْلو هذا الفصلَ بِنُبَذٍ لها بهذا الموضع موقع ، مِن أخبارِ

(١) هذا البيت كان مقدما فى النسخة . (٢) لم يظهر فى الأصل من الكلمة إلا « كل » ولعلها ما أثبتناه . (٣) فى الأصل . ضماه ، ولعلها ما أثبتناه .
(٤) كذا رسم الكلمة فى الأصل .

طُليطلةَ البائسةِ، وشَرْحِ الحالِ التى أبادتْ مصانعَها، وطيَّرت واقِعَها، وما آلَ إليهِ أمرُ المملكةِ القابضةِ للأنام، المبنيّةِ عَلَى هدْمِ دعائمِ الإسلام، المجموعةِ مِنَ افتراقِ الجماعة، المغلوبِ عليها أئمّةُ السّمْعِ والطّاعة. ونذكرُ طرفاً مِن حديثِ مآلِ أميرِها المُترَفِ المُسْرِف، الملقَّبِ — كان — مِنَ الألقابِ

٥ السّلطانية بالقادرِ باللهِ، جهلاً منْه بحقيقتِه، وتهاوُناً باللهِ وخليفتِه. خُطّةٌ ذادَهُ المِقْدارُ عن مُستقرِّها، ودعوَى دفعَ الّليلُ والنهارُ فى صدرِها. ونأتى أوّلاً بفصلٍ جوّدَه ابنُ حيّان فى ذكرِهِ جدَّه إسماعيلَ المتلقّبِ — كان — بالظّافر، رئيسِ الخِلاف، ورأسِ الانحراف، وجمهورِ الجوْرِ والإسراف.

قال ابنُ حيّان: وكانت أوّليّةُ نباهةِ بَنِى ذى النّونِ مِن جدّهم ذى النّون،

١٠ فى أيامِ الأميرِ محمّدِ بنِ عبدِ الرحمن. وقد اعتلّ لهُ خَصِىٌّ فى طريقِ قفولِه مِن الثغرِ فتركَه عِنْده بحصنِ أُقْليشَ يُمرِّضه، فلمّا أفاقَ لحِقَ بالحضرةِ معَ الخَصِىّ، فأخذَ له توقيعاً بتقديمِهِ عَلَى حِصْنه. ثمّ تداولَ تلكَ الخُطّةَ ولدُه إلَى أيّام الحكَم. فلمّا اضطلعَ بالدّولةِ ابنُ أبى عامر، تعلّق به المِضْراسُ بنُ ذى النّون وإسماعيلُ ابنُه معه. فلمّا انقرضتْ الدّولةُ العامريّةُ لحِقَ بالثّغر، وجمعَ إليهِ بنى

١٥ عمّه، وخطبَ مِن سُليمانَ وَلايةَ أُقْليشَ فولّاه إيّاه، ثم تهيّأتْ لهُ قلعةُ كُونكَه، وكانتْ بيدِ واضحِ العامرى، فلمّا ماتَ ضبطَها إسماعيلُ منتظِراً بزعمِه مَنْ يجتمعُ عليهِ النّاس، وتحتَ ذيلِه من غُلولِ واضحٍ كثير، حينَ لم يترُكْ إلّاأطفالاً وأمّهم حُرّتَه، ألقتْ بنفسِها إليه، مُعتنقةً بأمانه، فحصَلَ لإسماعيلَ البلَد. وسَطا عَلَى مُجاورِيهِ مِن قُوّادِ الثّغور، فاستقامتْ لَه الأُمور. وثَنّى لهُ الوزارةَ

٢٠ سُليمانُ وسمّاهُ ناصرَ الدّولة. فاستقلّ ذلكَ كلَّه، وآثرَ الفرْقة، واقتطعَ جانبَه، فكانَ أوّلَ الثّوارِ لمفارقةِ الجماعة، وفَرَطَهم فى نَقضِ الطّاعة. ثم اتّفقتْ له

أمورٌ اتَّسع بها عَمَلُه ، وكثُرت جِبايتُه وجَمْعه . وكانَ مِن البُخلِ بالمالِ ، والكَلَف بالإمساك ، والتَّقتيرِ فى الإنفاق ، بمنزلةٍ لم يكنْ عليها أحدٌ من مُلوكِ عصرِه . لم يرغَب فى صَنيعة ، ولا سارَع إلى حَسَنة ، ولا جادَ بمَعْروف ، فما أُعْمِلت إليه مَطيَّة ، ولا حَمَلتْ أحدًا نحوَه ناقة ، ولا عرّج عليه أديبٌ ولا شاعِر ، ولا امتدَحَهُ ناظمٌ ولا ناثِر ، ولا استُخْرِجَ مِن يدِهِ درهمٌ فى حَقٍّ ولا باطِل ، ولا حَظِىَ أحدٌ منه بطائل . وكانَ معَ ذلكَ سَعيدَ الجَدّ ، تنقادُ إليه دُنياه ، وتَصحَبُه سَعادتُه فينالُ صِعابَ الأمورِ بأهْوَنِ سَعيه . وهوَ كانَ فَرَطَ الملوكِ فى إيثار الفُرقة ؛ فاقتَدَى بهِ مَن بَعْدَه ، وأَمُّوا فى الخِلافِ نَهْجَه . فصارَ جُرثومةَ النِّفاق ، وأوّلَ مَنْ استَنَّ سُنَّةَ العِصيانِ والشِّقاق ، ومنه تفجَّر ينبوعُ الفِتَنِ والمِحَن . فتبارَكَ مَن أمْلَى له ، ولم يرضَ لهُ عُقوبةَ الدُّنيا مَثوبة .

فقد كانَ أصحابُه حَفِظوا عنـهُ كلماتٍ فى سبيلِ ذِكْرِ السَّلفِ الصّالح زيادةً إلى مَساوئه . وذلكَ أنّه نُوظِر فى شأنِ التّأميرِ لبنى أميّةَ فقال : واللهِ لو نازَعَنى سُلطانى هذا الصِّدّيقُ لقاتلتُه ولما سلّمتُ له ، فكيفَ أُسلِّمُ سلطانى لمنْ يُدعَى إليهِ مِن بنى أمية ، ممَّن لايوجبُ اللهُ طاعتَهم ، عِترةِ مَروانَ خَبْطِ باطل ، الذين لم يَسبِقْ لهمْ صُحبة ، ولا أدخلَهم السّلفُ فى شُورَى الإمامة ؟!

قال ابنُ حيّان : ومِن أشهرِ حكاياتِه فى ذَلك ، ما أخْبرَ عنهُ أبو العبّاسِ الشُّكرىُّ الإسكندرانىّ — رجلٌ مُمتِعُ الحديثِ طيّبُ المجالَسة — وحضرَ مجلِسَ ابنِ حمّودٍ بمالَقَه ، فسأَلَه إسماعيلُ بنُ ذى النّون عَن مجلسِه مَعه ، فأَثْنى عَليه ، فقالَ أَتُثنى على أدعياء ؟ فعلَ اللهُ بهم وَصنَع ! فبُهِت الإسكندرانىّ ، وقالَ : معذرةً إليكَ أيّدكَ الله ، فإنّى جهلتُ رأيَكَ فى هـذا الرّجُل معَ أنّى أَلزَمتُ نفسى ألاّ أذمَّ ذا سُلطانٍ البَتَّة ، وأنتَ غيرُ مُنازَعٍ فى أَمّتِكَ المَرْوانيّة ،

وهم أهلُ ذلكَ منك ، أقاديمُ الملوك ، وذوو العدلِ والسياسة . [ومضى][1] الإسكندرانيُّ فى إطرائهم ظنًّا أنه يسُرّه ، إذ كان يقولُ بدعوتهم فى ذلك الوقت . فقطعَ عليه ابنُ ذى النون بأسوأ من قطعِه على الهاشميين ، وانحنى على ذمّ بنى أميّة فلم يُبق ، ووصلَ كلامَه بأن قال : توارثوا هذه الإمارة مخرقةً وضعها قريشٌ لاستكمالِ[2] الناسِ والناسُ لأبٍ وأمٍّ ، والفخارُ باطل ، أحقّهم بالمُلكِ مَن استقلّ به . واللهِ ما أُولّى غيرَ نفسى ، ولا أقومُ إلاّ بسُلطانى ، ولو نازعنيه فُلانٌ وفُلان — وذكرَ السّلفَ الصّالحَ الذينَ كرّمَ[3] اللهُ ذِكرَهم — لضربتُهم دُونَهُ بسيفى ما استمسَكَ بيدى . فقامَ عنهُ الإسكندرانيُّ مبهوتاً وأفشاهُ فى غيرِ أرضِه . وأخبارُه فى مثلِ هذا كثيرة .

انتهى كلام ابن حيان .

فقلتُ أنا : ولِيَت إسماعيلَ هذا بَقِيَ وَوُقِى ، على فظاظةِ جانبه ، واختلافِ مذاهبِه ، وطولِ إعراضه عَنْ عواقبِه ! فلقد كانتْ عليهِ وقتَه قليلُ رُقبَه ، وعِنده بعضُ أُهْبَة ، لقُرْبِ عهده بأيّام الجماعة ، واستشعارِه عَوْدَةَ السّمعِ والطّاعة ، ولوفورِ مَن كانَ قبلَه يومئذٍ من مَشْيخةِ ذوى الهيئات ، وزُعماءِ سائرِ الطّبقات . ولقد أساءَ مَنْ جاءَ بعدَه ، ذهاباً فى الكِبْر ، وتهاوُناً بالأمر ، وقعوداً عن النّصر ، واستظهارًا بأحزابِ الكُفْر ، سَلْمُهُ باطلٌ وبَطالة ، وحَرْبه غوايةٌ وجهالة ، فى المشركين نُجومُه ودِيَمُه ، ولهم مواثيقُه وذِمَمُه ، وفى المسلمين هُمومُه وهِمَمُه ، وعِندهم بوائقُه ونِقَمُه[4] .

بلغنى أنّه لمّا ماتَ الظّافرُ إسماعيل ، كانَ حَمَلَةُ دولتِه ورُؤوسُ جِلّتِه[5]

(١) بياض قدر كلمة .
(٢) كذا فى الأصول ولعلها : لاستعمال أو لاستعباد .
(٣) فى الأصل : كرمهم . (٤) فى الأصل : « نعمة » .
(٥) رسم الكلمة فى الأصل « حلته » ، ويحتمل كذلك « حملته » .

الحاجّ بنَ مَحقُور وابنَ لَبُون وابنَ سَعيد بنِ الفرج . وكان آكَدُ ما عهده إلى ابنه يحيَى المتلقِّبُ بعدَه بالمأمون الاقتداءَ بهَدْيِهم ، والانتهاء إلى رأيهم . قال بعضُهم : فدخلنا عليه لأيّامٍ يَسيرةٍ مِن مَهلِكِ أبيه ، وهو [فى] إيوانٍ كبيرٍ قد ملأه بنُقَرِ الفضَّةِ حتّى لا فَضْلَ فيـهِ عَنْ مجْلسه ، فأمرَنا بالدُّنوّ ، فبعدَ لأْىٍ ما خلَصنا[1] إليـه لـكثرةِ ما كانَ مِن ذلكَ بينَ يدَيْه ، وقد امتلأتْ صُدورُنا عجبًا ، وتقيَّدتْ ألحاظُنا فما تجدُ مُتقلَّباً ، لهذا الاتِّفاقِ كيفَ وَقع ، ولهذا الشُّحْ مِن أينَ جُمِـع . فأخذَ يُفيِّل[2] رأىَ أبيهِ فى اختزانه ، ويُعرِّض بجُحودٍ[3] كانَ فى بَنانه ، ونحنُ نقولُ : لعلّه قد أنِفَ لضَياعِ ثُغوره ، وتَشعُّثِ أموره ، وانتشارِ الشِّرك بإزائه وظُهوره . وكأنَّه فَهِم ما نُحِير ، وعَلِم إلى أين نُشير ، فأظلَمَ ما بيننا وبينَه ، وازورَّ إزورارةً أنكرنا بها أثَرَه وعَيْنَه ، [وقال :] مِنْ حقٍّ مِثْل هذا أن يُصرَف فى مِثل ضُروبِ الحِلْيةِ الرائقة[4] ، وأنواعِ الآنيةِ الرائقة[4] . وأىُّ معنًى فى كَوْنِها نُقَر ؟ ما أعجبَ هذا وما أنكرْ ! هذه بالحجارة أشبَهُ منها بآلاتِ الإمارَة . فقال لهُ ابنُ مَحقُور ، وكانَ أشدَّهُم جُرأةً وأثقلَهُم وطأةً ، لعزَّةِ رُكْنه وإدلالِه بفَضلِ سِنّه : إنَّ هذه — أيّدكَ الله — إذا كانت نُقرًا بَقِيتْ ذَخيرةَ زمان ، وعُدَّةً لحَدَثٍ إن كان ، ولا تُحوَّل آلاتٍ إلاّ بعدَ نفقَة ، وتحيُّفٍ ن كلِّ طَبَقة ، ثم لا تَزالُ نُصْبَ عينِ مَن يرِدُ مِن رَسُول ، ويَنتابُ مِنَ ابنِ سَبيل ، ويَنْمِى خبرُها إلى الطاغيةِ فِرْذِلَند فتدعو السياسةُ إلى أن يُخصَّ مِنها بقِسْم ، ويُضرَبَ لهُ فى أنفسِها بِسَهم . فزوَى عنهم وجهَه ، ولم يأمنوا نَجْهَه ، وثقُلوا بعدُ عليه ، ويَئِسوا مِن شىء من الفَلاح يجرى على يدَيْه . وخالفَهم إلى ما أراد ،

(١) رسم الكلمة فى الأصل : « حاضا » ، ولعل ما أثبتناه أقرب إلى الصواب .
(٢) رسم الكلمة فى الأصل : « يقبل » . (٣) كذا ، ولعلها بجمود .
(٤) كذا فى الموضعين ولعل إحداهما « الفائقة » .

فأبدى فيه وأعاد ، وآلَتْ حالُه إلى ما قالَ الشيخُ ما نقصَ ولا زاد .

٧٠

ذِكرُ الخبرِ عَن بعضِ ما تناهَى إليه المأمونُ مِن تشييدِ البُنيانِ بقصورِ طُليطُلَة

قالَ ابنُ بسام : ثمّ أخذَ المأمونُ فى بِناء مجلسِه الكبيرِ المُكرَّمِ بِناءً باءَ
٥ بإثمِه ، وخلا سَريعاً من اسمِه ، لم يُخلِّدْه فى عَقِب ، ولا قَضى مِن لَدُنْه بِه كبيرَ
أَرَب وكانَ الذى تولّى له رَصفَ بَدائعه ، وإحكامَ مَصانعه ، رَجلٌ من مَهَرةِ
الفَعَلة ، أكثرُ خلقِ اللهِ صَلَفاً ، وأشدُّهم تتايُعاً[١] وسَرَفاً . وكانَ المأمونُ
لعَدَمِ نَظيرِه ، يحتمِلُ مِن اعتدائه وتَغريره ، وتهاوُنِه بجَميعِ أُمورِه ، ما لا مَزيدَ
عَليه ، ولا انتِهاءَ لأحدٍ إليه . واتَّفقَ له معَ ذلكَ الصانعِ أنْ وَعدَه بتَمامِ مجلسِه
١٠ المشيَّدِ قبلَ إطلالِ العيد ، فرشح ابنُ ذى النون للجُلوسِ فى صَدْرِه ، والاستظهارِ
عَلَى زينةِ عيدِه بالفراغِ مِن أَمرِه . وتقدَّم إلى مَن كانَ بحضرتِه مِن الشُّعراء ،
على قِلّتِهم ببابِه ، ونِفارِهم عَن جَنابِه ، لقِلّةِ نائلِه ، وتَفاهةِ طائلِه ، فى وَصفِ
مجلسِه ذلكَ وتقريظِ مَبانيه ، والثَّناءِ عَلَى مُخترِعِه وبانيه . ثمَّ إنَّ ذلكَ الصانعَ
استمرَّ عَلَى دَيدَنِه مِن الخِلاف ، وعَمِلَ على شاكِلتِه مِن التَّهاوُنِ والإخلاف .
١٥ واتفقَ أثناءَ ذلكَ أن ضَربَتْ خَيلُ الطاغيةِ فرذلنْد على بِلادِ المُظفَّرِ بنِ الأفطس ؛
وطِئتْها وَطأةً محَتْ رُسومَها ، واستباحَتْ حَريمَها ، واجتاحَتْ حَديثَها وقَديمَها ،
وأنسَتْ ما كانَ قَبلَها من جَبِّ[٢] الذِّروة ، وانصداعِ المَرْوَة ، وأيأسَتْ من
البَقاء ، وآذنَتْ بشُمولِ البَلاء . فأُخبرتُ عَن وزيرِه أبى المظفرِ بن مُثنّى أنه
كانَ يومئذٍ بمنزلِه بينَ الوُجومِ والإطراق ، وعلى نِهايةِ الحَذرِ والإشفاق ،

(١) فى الأصل : « تتابعا » . (٢) فى الأصل : « حب » .

إذ وَرَدتْ رُسُل المأمون عنه تَتْرَى ، وهَجمتْ عليه زُمْرةٌ بعدَ أُخرى . فدخلَ عليه فوجدَه قد استشاطَ حَنَقًا ، حتّى كادَ يتميَّزُ شِقَقا . فظنَّ أنَّ ذلكَ الضجرَ لِما كانَ وَردَ به الخَبرُ مِن ضَرْبِ الحَيلِ عَلَى بَلدِ المظفَّر ، وإخفارِ الذِّمم ، وزَلَّةِ القَدَم ، وانهتاكِ الحُرَم . فطَفِق ابنُ مُثنّى يَبسُطه ويَقبِضُه ، تارةً يُسَلِّيه وتارةً يُحَرِّضه ، وَطورًا يقولُ له : فيكَ الخَلَفُ مما فَات ، ومرّةً يقولُ : قد آن لكَ أنْ تُنكرَ على الطاغيةِ هذا الافتيات . فما[1] فهِمَ مَنْحَى ابنِ مُثنَّى منه ، وأعرَضَ عنه ، وقالَ له : ألا تَرَى هذا الصَّانعَ الفَاعِلَ الضَّائع[2] — يعني عَريفَ بُنيانه — صَبَرتُ له وأغضَيْت ، وفعلتُ به كَيْتَ وكَيْت ، فما زادَ إلاَّ تَنغيصًا للذَّتي ، واستخفافًا بإمْرتي ، وتصغيرًا لشاني ، واجتراءً على سُلطاني . وهبَّتْ ريحُه العقيمِ ، تَقعدُ فى غيرِ شيءٍ وتُقيم ، فسُقِطَ فى يدِ ابنِ مُثنَّى وانكسرَ انكسارةً تبيَّنَها ابنُ ذِى النونِ فيه . ولم يجدْ بُدًا مِن أنْ قالَ له : هوِّنْ عليكَ ، والكلُّ طَوعُ يديْك ، وناهيك ، وأنا أكفيك .

وخرجَ ومثَلَ بينَ يدَىْ ذلكَ الصانعِ يَعِدُه ويُمنِّيه ، ويُداوِرُه[3] ويُداريه ؛ والصانعُ مُقبِلٌ على شأنه ، ما أمرَه بالجلوس ، ولا زادَه على التجهُّمِ[4] والعبُوس . فبعدَ لأْىٍ ما ضرَبَ له مَثَلَ العامّةِ وهو قولهم : ما أفرَسَ الجالِس . ثم قالَ : وبالحَرِىِّ واللهِ أنْ يتمَّ إلى عيدٍ آخرَ ، فليَجْهدْ جهدَه ، وليأتِ بكلِّ ما عندَه . فرجعَ ابنُ مُثنَّى إلى ابنِ ذى النونِ وهوَّنَ عليه الشَّان ، وخفَّفَ لديْه ما كان . وخرجَ لا يَدرى مِن أىِّ الثلاثةِ يَعجب : أمِن اغترارِ ذِى النون وجهلِه ، أم إفضاءِ الضَّرورةِ بنفسه إلى خِدْمةِ مثله ، أم مِن جُرأةِ ذلكَ الصانعِ القَصيرِ اليدِ النَّزرِ العَدَد على ذُلِّ ذِى النونِ وذُلِّه .

(١) فى الأصل : « فلما » . (٢) فى الأصل : « الصانع » .
(٣) فى الأصل : «ويداريه» . (٤) فى الأصل : «التهجم» .

قالَ ابنُ بسّام : فتبارك مَن أحاطَ بالأشياء ، ولم يَخْفَ عليه شئ في الأرض ولا في السّماء ، ومَن جعلَ اليومَ ذلكَ القصرَ العجيبَ ببنيانه ، الهادمَ كانَ للدّين والدّنيا بنيانه[١] ، مَرْبطاً للأفْراس ، ومَلعبًا للأَعْلاجِ الأَرْجاس ، مِن رِجال الطّاغيةِ اذْفونشَ بن فرذلَنْد ، بدَّدَ اللهُ شيعتَه .

٥ ذِكرُ الخبرِ عَن مآلِ حَفيدِه المتلقِّبِ بالقادر

مع [ما] يتشبّثُ به مِن خبرٍ نادِر

قَد ذكرتُ في القسمِ الثاني مِن هذا المجموعِ مُلْكَ جَدِّه المأمونِ بقُرطبَة ، ويَعودُ بنا القولُ إلى ما بدأتُ به من ذِكرِ حَفيدِه المتّخَذِ لهُ ذلكَ الصَّنيعُ المعدودُ على الأيّامِ ذَنبُه ، الباقي في صَفحةِ الإسلامِ نَدْبُه . وقد ذكرتُ أيضًا في القسمِ الثالثِ منه مَهلِكَ حَفيدِه ببلَنْسِية وأوضَحتُ صُبْحَه ، واستوفَيتُ ١٠ شَرْحَه . وأُجرِّدُ هَهنا القولَ في أخذِ طُليطُلَة مِن يدَيْه ، ودَورانِ الدائرةِ السَّوْءِ بِها على المسلمينَ وعَليه ، وما تَعلّقَ بأذيالِ ذلكَ مِن غريبة ، وانخرطَ في سِلكه مِن أعجُوبَة .

كانَ يَحيي حَفيدُ ابنِ ذِي النُّونِ رَكِينَ المَجْلس ، ثَرِيَّ المغرس ، حُلوَ ١٥ |٧١ الحِوار ، ليِّنَ التصرُّفِ بينَ الإيرادِ والإصدار ، مَليحَ شَبَا الخطّ ، هذه كانتْ فضائِلُه فقط . لم يكنْ له ولِسَلفِه قبلَه باعٌ في الطّلَب . ولاحظٌ في الأدَب ؛ وكانَ — زَعموا — آيةً في قُرْبِ غَوْرِه ، وسُكونِ فَوْرِه[٢] ، والحَوْرِ بعد كَوْرِه ، إمَّعَةً إمَّرَة ، أَجْبنَ مِن قُبَّرَة ؛ إنْ حزَمَ لم يَعزِم ، وإنْ سدّى لم يُلْحِم ، إلى ما كانَ

(١) كذ في الأصول ولعلها بكيانه أو بطغيانه أو نحو ذلك .
(٢) في الأصل : « قووه » ولعلها ما أثبتناه .

يعرِضُه مِن غرَض ، ويلزَمُه أكثرَ مدّته من مَرَض ، مِن ذرَبٍ لازم — زعموا — كان لمعِدّته[1] ، واستحرارِ حاسِمٍ لِمِرّته[2] . وقد كانَ جَدُّه المأمونُ قسّمَ الحَضرةَ قِسمين ، وأدارَ سياستَها على رَجُلين ، فجعلَ تدبيرَ الأجنادِ ، والنظرَ فى طبقاتِ القُوّادِ ، إلى سائرِ الشُّئونِ السُّلطانيةِ ، والأعمالِ الديوانيةِ إلى ابنِ الفرَج ؛ وبَقيّةَ الإصدارِ والإيرادِ ، والنظرَ لجماهيرِ الناسِ وكوافِّ البِلاد ، والرأىَ والمشُورةَ ، والصغيرةَ والكبيرةَ ، إلى الفقيهِ أبى بكرِ بنِ الحديدى ، رَجلٍ كانَ له قدَمٌ وإقدام ، وعندَه نقْضٌ وإبرام . وكانَ قد عهِدَ لحفيدِه هذا المرشحِ لأمرِه متى وَرِثَ سُلطانَه ، وتبوّأَ مكانَه ، أن يَشُدَّ على ابنِ الحديدىّ كِلتا[3] يدَيْه ، ولا يَفتاتُ بأمرٍ من الأُمورِ عليه . وأخذَ المَوْثِقَ الغليظَ على ابنِ الحديدىّ ليَبلغنّ كلَّ مَبلغٍ فى شَدّ أزرِه ، وتثبيتِ أمرِه ، عِلماً باستقلالِه ، واستنامةً إلى يُمْنِ مَناقبِه وخِلالِه ، وحِفظاً لما[4] كانَ عندَه من يدِه فى إقامةِ أَوَدِه ، ومُمالأتِه على أهلِ بلدِه . وقد كانَ أكثرُهم فيما سلفَ نَفروا عنه ، وهمّوا بالاستبدالِ منه . فنكثَ[5] أبو بكرٍ هذا قُوى مَكرِهم ، وخاطبَ المأمونَ يومئذٍ إلى بَلنسيةَ بجَليّةِ أمرِهم ، خوفاً من الفتنةِ ، وتفادياً مِن المِحنَة . فانكدرَ المأمونُ مِن حِينِه إلى طُليطُلة وقد ضاقَ ذِراعا ، وكادَتْ نفسُه تذهبُ شَعاعا . وأدارَ الحيلةَ على مَشيخَةِ طُليطلةَ فى خَبرٍ طويل حتّى سجَنَ عامّتَهم بمطْبَقِ حِصنِ [وَبْذَه[6]] أخرَى قلاعِه المَنيعة ، ولم يزَالوا بها حتّى شابَ الشّباب ، وبَليتْ الأحقاب . وتلكَ اليدَ كانَ المأمونُ يُراعِى لابنِ الحَديدى ، فوضَعَ فى حياتِه زِمامَه بيدِه ، واستخلفَهُ بعدَ وفاتِه على بلدِه ووَلدِه .

---

(١) فى الأصل : لمعدته . (٢) فى الأصل : لمدته .

(٣) رسم الكلمة فى الأصل : كلتى .

(٤) فى الأصل : لمن . (٥) فى الأصل : فكث .

(٦) بياض بالأصل قدر كلمة ، وسيرد اسم هذا الحصن كما أثبتناه فيما بعد .

مَقتَل الفقيهِ أبي بكرِ بنِ الحَديديّ

فلما هَلَكَ المأمونُ بقُرطبةَ ونُعِىَ بطُليطلةَ وماجَ بعضُها فى بعضِها ، وانطبقَتْ سماؤها على أرضِها ، احتوشَتْ إلى حفيدِه ، اللابسِ لبُرودِه ، جُملةٌ ممن كانَ يتعلّقُ بسببِه ، ويُنسَبُ إلى وطْءِ عَقبِه . وطفِقوا يُغرونَه بأبى بكرٍ[1] جُماعِ أمرِه ، ومَظِنّةِ تأييدِه ونَصرِه ، لما كانوا يُدبِّرون من التقلُّبِ عليه ، ويتوهّمون من ضَعفِه على ما فى يدَيه . وخوّفوه غوائلَ خَتلِه ، وزعموا أنّ سُلطانَه لا يتمّ إلا بعدَ الفراغِ مِن قَتلِه . وقد كانَ أثيرُه أبو سعيد بنُ الفرَجِ ينهاه عن إخفارِ الذّمام ، ويخوِّفُه سُوءَ عَواقبِ الأيّام . فركِبَ هواه ، وخالفَ ناصِحَه وعَصاه ، وجرّدَ قِطعةً من جُندِه ، وأمرَها باستقبالِ تابوتِ جدِّه فى طَريقِهم مِن قُرطبة ، وأنهى إليهم سِرًّا قتلَ ابنِ الحَديديّ المستقلِّ بحِمْلِه ، الناظمِ لأشتاتِ فَلِّه . وقالَ لهم : إذا لَقيتُموه فكونوا حَولَه ، وعظِّموا قولَه ، فإذا أمكنتْكم[2] غِرّتُه ، وبدَتْ لكم ثُغرتُه ، فاقتلوه كيفَ أمكن ، وعلى ما ظهَرَ وبطَنَ . ونما الخبرُ إلى ابنِ الحَديديّ فكفَرَ بطاغُوتِهم ، ونفَضَ يدَيْه من تابُوتِهم ، ونكَبَ إلى بعضِ ضِياعِه ، فى لُمّةٍ من شيعتِه[3] وأتباعِه . فاضطرمَتْ الصُّدور ، وبطَلَ ذلكَ التّدبير . ثم وافَى البلدَ ليلةً وقد استوحشَ من أُنسِه ، وأوجَسَ خِيفةً فى نفسِه ، وأصبحَ فى المدينةِ خائفاً يترقّب ، ونادمًا يتتبّعُ ويتعقّب ، يَعَضّ يديْه ، ويحسبُ كلّ صَيحةٍ عليه . وطفِقَ أصحابُ ابنِ ذى النّون بزعمِه يقولون : قد حذِرَك ، وتيقّنَ خبرَك ، ولا يَصلُحُ لكَ أبدًا ، ولا يرُدُّ عن مكروهِك يدًا . ومشَتْ بينهما الرُّسُل ، وأُعمِلَتْ فى اجتماعِهما الحِيَل . فركِبَ إليه ذاتَ

---

(١) فى الأصل : يغزونه بأبى بكرة .

(٢) كذا ولعلها : أمكنتكم ليستقيم السجع . (٣) فى الأصل : شمته .

يوم وقد أخذَ حِذرَه ، وحشدَ عُرفَه ونُكرَه ، واستبْطَنَ[١] مَن كانَ تبعَه يومئذٍ من الدَّهماء ، وتعلَّقَ برِكابِه لمَشهَدِ أمرِه مِن الغَوغاء . فملأوا أفنيةَ القَصر أسرعَ مِن الماءِ إلى الصَّبَب ، وأهولَ مِن النار فى الحَطَب . فحِينَ ارتفعَتْ الأصوات ، وغصَّت بهم العَرَصات ، إنصاعَ[٢] ابنُ ذِى النُّون فأمرَ ابنَ الحديدىّ بالخُروجِ . فخرَجَ والدَّولةُ مُتعلقةٌ بأذيالِه ، وطَبقاتُ أعيانِها عن يَمينِه وشِمالِه ، والعامَّةُ بينَ يدَيْه ومِن خَلفِه يتَمسَّحون بآثارِه ، ويرفُلونَ فى غُبارِه ، وهو يَشكرُ صَنيعَهم ، ويَعُمُّ بالثناءِ جَميعَهم . وكانَ عندَما أذْكى عُيونَه ، وحشَرَ شَياطِينَه ، قد أوقعَ تُهمتَه على شَيْخينِ مِن شُيوخِ الخِدْمةِ يُدعيانِ مُؤمّلا وابنَ صَروم ، فأغرَى العامَّةَ باستئصالِهما ، وتحبَّبَ إليهم بنُهْبَةِ أموالِهما ، فكانا عُنوانَ الفِتنة ، وباكورةَ المِحنَة .

وقد حُدِّثتُ أنَّ ابنَه أشارَ عليه يومئذٍ بالفراغِ مِن شيعةِ ابنِ ذى النون ففيَّلَ رأيَه ، واستقصرَ سعيَه ، وبُودَّ[٣] طُليطلَةَ البائسَةِ لوأنَّه فعَل ، ولوأمضاها ما اختلَفَ بها اثنان ، ولا انتطَحَ فيها عنْزان .

وزيَّنَ هذا الحِزبُ المُعلِنُ بشَرِّه ، مِن شيعةِ ابنِ ذى النُّون المغْلوبِ على أمرِه ، لصاحبِهم اللَّجاجَ فى غَدْرِه ، والتَّمادِىَ على غُلَواءِ مَكرِه . وأرَتْه أنَّ ذلكَ مِن سَعيِها لا يَستوِى على سُوقِه ، ولا يَخْلُو بسَواءِ طَريقِه ، إلاَّ [بإطلاق][٤] تلكَ الطائفةِ المُغرِّبةِ بمُطبِق وبذه ، المحترِقةِ أفلاذُ أكبادِهم ، بنيرانِ دَمِهم وأحقادِهم : داءٌ دَفِينٌ ، وشرٌّ مَضمُون . وسوَّلوا له أنَّه إذا فكَّ أغلالَهم ، ووصلَ بحبلِ الحياةِ حِبالَهم ، غسَلَ جَوانحَهم ، وتألَّفَ نَصائحَهم ، وشارَكهم فى ذَواتِ

(١) فى الأصل : استبطاء ، ولعل الصواب ما أثبتناه .
(٢) فى الأصل : « أباع » ولعل الصواب ما أثبتناه .
(٣) الكلمة فى الأصل غير معجمة . (٤) بياض بالأصل بقدر كلة .

صُدورِهم ، واعتدَّ عَليهم مِنَّةَ نُشورِهم ، والبَعثة مِن قبورِهم . فأثارَ مِنهم مُدَى وشفارا ، [أعدَّ](١) بهم لخرابِ مُلكه أعْواناً وأنصارا . فأدخلهم البَلدَ سِرّاً من بعض مَداخِله الخفيّة . وقد سَتَرهم بالُّلثم ، وأَوهَم أنّهم بَعضُ الحُرم ، حتّى وَصَلوا إليه ، ومَثَلوا بينَ يَديْه ، وذلكَ اليومُ يومُ الجُمعةِ لعَشْرٍ خَلَتْ لمحرَّمِ ٥ سنة ثمانٍ وستين .

وكانَ الذى مالا ابنَ ذى النُّون على ذلك ، وسَهّل له — زَعموا — تلكَ المَناهِجَ الخَبيثَةَ والمسَالِكَ ، الفقيهُ ابنُ المشَّاطِ مُتولّى القَضاء كانَ يومئذٍ بقُونْكَه . وكانَ أبو بَكر بنُ الحَديدى [يألفه](٢) ويَسكُن إليه قَديماً ، فاستدرَجه بالأمان ، واستفزّهُ إلى مَصرعِه يومئذٍ بمُزوَّراتِ الأيْمَان ، حتّى جرَّعه رَداه ، وأسلمه إلى ١٠ عِداه . ودخلَ ابنُ الحديدىّ يومئذٍ القَصرَ ، والمِقدارُ يُزعِجُه ، والخائنُ الغدّارُ ابنُ المشّاط(٣) يَستدرِجُه . فلما أفضَى إلى مجلسِ ابنِ ذى النُّون رأَى وُجوهًا قد أمِنَها ممّا تخوّفَها ، وأنكرها مِن طُولِ ما عَرَفَها ، وأيقَنَ بالشرِّ لاخَلاص ، ولاتَ حِينَ مَناص . ثمّ وطنَ لمحنَتِه ، واتّكأَ فَضْلَ مُنّتِه ، فجاذَبَهم أطرافَ الخِصام ، وطلَعَ عَليهم مِن ثَنايا النَّقض والإبرام . فقامَ ابنُ ذِى النُّونِ مِن مَوضِعِه وابنُ الحديدىّ ١٥ مُتعلِّقٌ بأذيالِه ، مُستجيرٌ به مِن أقتالِه . فشَغَبوا عَليه وشَغَلوه ، وأحاطُوا به حتّى قتَلوه . فقُضِىَ الأمرُ ، وانقضَى العَجزُ والصَّدْر . ولمّا أحسَّت العامَّةُ بقَتْلِه ، وهمّتْ بسِلاحِها مِن أجلِه ، ثارَ أولئكَ المُخرَجون فى وُجوهِهم ، أطلالٌ فى أسمال . فأخذَ كلٌّ واحدٍ مِنهم بطَرَفٍ مِن الطريق ، وذَهبَ ممّن كانَ هُنالك مِن العامَّةِ بفَريق ، بينَ صَديقٍ لهم يُسَرّ ، وعدوٍّ يَفِرّ . وتَشاغَلوا بنَهبِ دُورِ بَنى الحَديدى

(١) بياض بالأصل قدر كلمة ، ولعلها فى معنى ما أثبتناه .
(٢) بياض بالأصل بقدر كلمة : (٣) فى الأصل : السقاط .

حينَ عجزُوا عَن نُصرتِه ، وعلِموا أنْ لا سَبيلَ إلى كرَّتِه . ولمْ يكن إلا كـ«لا» حتَّى أصبحَتْ حَبْلا[1] رَثًّا ، وهَباءً مُنْبثًا .

وظَنَّ ابنُ ذى النُّونِ [أنَّه] قد رَاعَ أحْشاءَ[2] الأيّامِ بفتكةٍ بَرَّاضيَّة ، وهتَكَ أستارَ الخُطوبِ عن حِيلةٍ عَمْريَّة . ولعَمرى لقد أراعَ ولكن آمنَ سِرْبَه ، ولقد هتَكَ ولكنْ حِجابَ قلبِه . أخْلَى وجهَه لشِرارٍ أغمار ، لم تكن لهم أحْلامٌ تحجُرُهم ، ولا حُلومُ توقِّرُهم ، أذبةٍ[3] شهوَاتٍ ، وفَراشِ ضلالات ، أغضَى الزمانُ لهم هُنَيَّةً فظنُّوا أنَّهم قد أعجزوه وانتهزُوه ، فوجدَهم مُغترِّين ليس لهم سِلاحٌ إلا مَقاتِلُهم ، ولا بِهِم حُوَيلٌ إلَّا تَدابُرُهم وتَخاذُلُهم . ونفَثَ على نفسه مِن أولئكَ المُخرجِين شَرارَ زِناد ، وأسرارَ عَداواتٍ وأحقاد ، خُلَّاسَ الشُّجونِ[4] والأهْوال ، وبَقايا القيُودِ والأغلال . فلم يَزِدْ بموتِ ابنِ الحَديدىّ وحَياتِهم على أنْ كانَ الشرُّ سَبَباً فأصبحَ أسبابا ، والناسُ حِزباً فتفرَّقُوا أحزابا . وانتبذَ ابنُ عبدِ العزيزِ لتلكَ الوَهْلةِ ببَلَنْسِيةَ مِن جَماعتِه ، وخلَعَ يدَه مِن طاعتِه ، إلا هُدْنةً على دَخَن يَتطارَدُ له بصَيْدِها ، ويُنْشِدُه عن كَيدِها :

أُحِبُّكَ فى البَتولِ وفى أبِيها ولكنِّى أُحبُّكَ مِن بَعيدِ

وفغَر الطاغيةُ أذْفُونش بنُ فرذَلَنْدَ فمَه على ثُغورِه المَثْغُورة ، فجعلَ لِوقتِه يَطويها طَىَّ السِّجلِّ للكِتاب ، ويَنهضُ فيها نهضةَ الشَّيبِ فى الشَّباب . وابن ذِى النُّونِ يُلقِمُه أفلاذَ كَبِدِه ، ويَرْجُمه بسَبَدِه ولبَدِه ، وادفُونشُ لعَنه الله لا يَقنَعُ منه بصَيْدِ العَنقاء ، ولا ببَيْضِ الأَنُوق ، بل يُكلِّفُه[5] إحضارَ الأَبلق

(١) فى الأصل : خيلا .
(٢) فى الأصل : أخشاع .
(٣) فى الأصل : أدبه .
(٤) لعلها : السجون .
(٥) فى الأصل : يكله .

العقوق ويسومه دَرْكَ الشمس، ويطالبه بردّ أمس[١]. فلما أكل الإنفاقُ ثبيجَ[٢] ماله، وأخذ الخناقُ بكظم احتياله، وأحسّ العدوُّ المشاةُ بذلك من حاله، سما إلى معاقله المنيعة، وذرى أملاكه الرفيعة، غدد الأنام، ودروب الإسلام، فما راهنه منها عليه غلق، وما رام أخذه من يديه لم يدركه حتى مزق.

٧٣ فرارُ حفيدِ ابنِ ذى النُّونِ مِنْ طُلَيطُلَةَ ودُخولُ المتوكِّل

٥

وانجرّت الحالُ بينه وبين أولئك الشيوخِ المُخرَجين من المُطْبَق بمقدار[٣] ما رقعوا خروقهم، وجمعوا فريقهم؛ فلما استوثق أمرُهم، وثاب إليهم شرُّهم، دلفوا لحزبه الذنونيّ[٤] الدبيس، تحت إحدى ليالى جديس[٥]؛ أرغى عليهم سَقْبُ[٦] السماء، وتمخّضت لهمْ بالداهية الدّهياء، ورؤوسهم بأيدي الولدان لعبا. وأتى ابنَ ذى النون صريخُهم تلك الليلة فصادف منه رأيا مغلوبا، وقلبا منخوبا، طار به الذُّعرُ ففرّ ودونه مِنْ عبيده أُسْدُ الشَّرى، والأسوارُ شامخة الذُّرى، كأنما ناجته القتالَ أضغاثُ حُلْمِه، أورأى وجوه الأقتال فى وجوه حُرَمِه، فجفل[٧] كالظَّليم، لايحفلُ بالعارِ المُقيم، ولا يُصيخُ إلى الصَّديقِ الحميم. حُدِّثت أنّ زوجه بنتَ المظفّر بنِ عامر — طريدِ جدِّه كان من بلنسية —، وابنته منها تبعتاه يومئذٍ راجلتين نيِّفاً على فرسخين، حتى أدركتا بمركوب، وقد أخذ الجهدُ منهما بأوفر نصيب. واجتمع مَشْيَخةُ طُليطلة بفِناء القصر، مُرتبكين بين اللَّجاجِ والذُّعر، عامّتهم تتطاولُ بزعمها إليه، وخاصّتهم تتخيّل المثولَ بين يديْه، وهمُ يظنّونه بحيثُ يرى ويسمع، ويتوهّمون أنه سيفعلُ ويصنع.

١٠

١٥

---

(١) فى الأصل: إنس

(٢) فى الأصل: «تيبح». (٣) فى الأصل: بمقدام.

(٤) فى الأصل: الدنونى البسبيس. (٥) فى الأصل: حديس.

(٦) فى الأصل: أرغب عليهم سقف. (٧) فى الأصل: تحفل الظليم.

فوجدوه قد أذعنَ للدَّنيّـة ، وخرجَ مِنْ بعضِ تلكَ المخارجِ الخفيّة ، ومشى القهقرَى ، قبلَ عَـيْرٍ وما جرَى . فاستأسدتْ كلابُهم لأكلِ لحمٍ ليسَ لهُ ناصِر ، وهَزَج ذُبابُهم أثناءَ رَوْضٍ ليسَ [له] واردٌ ولاصادر . وألْقوا (١ يومئذٍ فى تنُّورِ ١) الطاغيةِ أذفونش مِنْ تلكَ الجواهرِ المكنُونة ، والذَّخائرِ المَصُونة .

وتلاحقَ بابنِ ذى النّونِ بقيّةُ سِرْبِهِ المنفرّ ، وفلّ عسكرِه المُدْبِر ، بحصن مِن حُصونه . وأقامَ أهلُ طُليطلةَ بعدَه أياماً ولا كالسّائمةِ المُهْمَلةِ نامَ راعيها ، وأكْبثتْ مَراعِيها ، يتهادَوْن لحماً بين قديدٍ ومُعجَّل ، ويرتمُون بشحمٍ كهُدّابِ الدِّمقْسِ المفتّل ، فى هِياطٍ ومِياط ، ولَجَبٍ واختِـلاط ، ليسَ عليهم أمير ، ولا فيهم إلى الصَّواب مُشير . وتشاوَروا فى أىّ مُلوكِ الطوائفِ يُحكِّمونه فيهم ، ويُلقونَ إليهِ بأيْديهم ، فطارتْ طائرُهم ، واختلَفت بواطنُهم وظواهرُهم ، واشرأبَ مَنْ كانَ يَليهم مِنهم لملكةٍ لم يُحكِموا إليها أسبابا ، وغنيمةٍ لم يُوجفوا عليها خيْلًا ولا رِكابا (٢) .

وكانَ عِنْدهم يومئذٍ أبو محمّد يوسفُ بنُ القلّاسِ البَطَليوسىّ أحدُ عفاريتِ الضَّلال ، وأكلةِ الأموال ، مِن رَجُلٍ أجرأ خلقِ اللهِ على دَمٍ وهو أجبنُ (٣) مِن صافِر ، وأجسرِهم على رُكوبِ ثَبَجٍ (٤) محرَّمٍ وهو أضعفُ مِنْ لحظٍ فاتِر ، نبّهَت تلكَ الفتنةُ على قَدْرِه ورفعَ عُدْمُ الرِّجالِ صوتَه بذِكرِه ، فهبّتْ ريحُه شمالاً وصَبا ، واتّخذ سبيلَهُ فى البرّ والبحرِ عَجَبا . فعرَّض عليهم بصاحِبه المتوكِّلِ عُمرَ بنِ المظفّرِ بنِ الأفطس ، وأعربَ لهمْ عَنْ لينِ مَكْسرِه ، وضيقِ

(١ — ١) فى الأصل : «ولقوا يومئذ فى سؤر» ولعل ما أثبتناه أقرب الاحتمالات .
(٢) فى الأصل : ركاباً .
(٣) فى الأصل : أجس .
(٤) فى الأصل : « تبيح » .
(٥) فى الأصل : بهت .

مَسافةِ نَظرِه ، واشتغالِه باللّذاتِ عَنْ أكثرِه ، فقالوا بُرْدٌ كبُرْد ، ما أشبه سَعْداً بسَعد ! فأتاهُ سَفيرُهم وخَفَّ إليه عَيْرُهم ونَفيرُهم ، فجاءهم ينظرُ مِن خَفاء ، ويَمشِي على استحياء ، كَوْدَناً ساموهُ خُطَّةَ سِباق وحُبَيْنَةً[١] أقاموها على ساق . فدخلَ طُليطلةَ عقِبَ سنةِ اثنتين وسبعين ، وأقامَ عندهم نحواً مِن عشرةِ أشهر ، أضلَّ من يَدٍ في رَحِم ، وأذلَّ من لَحمٍ على وَضَم .

[و] قد كانَ ابنُ ذى النّونِ حينَ انفلتَ مِن يدِ المقتَنص ، انفلاتَ الحمامَةِ مِنَ القفَص ، تَهيّأَ لهُ دخولُ كُونكَة فى خبَرٍ طويل ، فثابَ إليه حِسُّه ، ورجَعَت قليلاً نفسُه ، وراسَلَ الطاغيةَ أذْفُونْش ، وهوَ بحيثُ يَنتهزُ الفُرصةَ ، ويَسمعُ القِصّةَ . فذكَّرَه ابنُ ذى النّونِ سالفَ عَهدِه ، وشهِدَ عندَه أنعُمَ جَدِّه ، فبالزِّنادِ الذَّنونيَّةِ — زعَموا — وَريتْ نارُه ، ومِن التِّلاعِ المأمونيَّةِ[٢] تَدَفّق تَيّارُه ، أيامَ كانَ اسمُ هذا الطاغيةِ مَحمولا[٣] ، وصَعْبُه ذَلولا ، بتغلُّبِ أخَوَيْه شانْجُه وغَرْسيّةَ عليه ، وأخذهما طَرَفَيْ سِلْكِه مِن يدَيْهِ ، فآواهُ المأمونُ ابنُ ذِى النّونِ ونَصَره ، واستقلَّ بسُلطانِ طاغوتِهِ حتى أظهره[٤] ، وعند الله جزاؤه موفور ، وإليهِ مُنقلَبٌ ومَصير . فلبَّى دعواه ، وسمعَ شكواه ، وأظهرَ الارتماضَ لما عَزَّه وعَراه . وأقبلَ معهُ إلى طُليطُلةَ يَرِدُ ماءً بماء ، ويُسِرُّ حَسْوًا فى ارتغاء ، يُوردُ وِرْداً إليهِ صَدَرُه ، ويحلبُ حَلَباً له أكثرُه . والمتوكِّلُ بها طَليحُ جِفان ، طَريحُ أكوابٍ ودِنان ، مُكِبًّا على قَمْشٍ ما بَقَّتهُ المِحنَة[٥] ، وتجافَت عَن انتهابِه الفِتْنة ، مِن فَرْشٍ فَخْم ، وسُرادقٍ ضخم ، وآنيةِ

(١) رسم الكلمة فى الأصل : « وحسنه » ، والحبينة دويبة .
(٢) فى الأصل : المأمونة . (٣) فى الأصل : محولا .
(٤) فى الأصل : أظهر .
(٥) رسم الكلمة فى الأصل : بحته ، ولعل الصواب ما أثبتناه .

وكتب ، وصعد من آلة الملك وصبب ، حتى اجتمع عنده من خبث زبرتها ، وغثاء غمرتها مع ما أدبوا [1] له صدر مقدمه من شحم سنامها ، وأفاضوا من قردها [2] وسلامها ؛ جملة علمته الجلوس فى الصدر ، وأرته الفرق بين الخل والخمر ، وأهل طليطلة الممتحنون فى غمرتهم ساهون ، وعلى أعقابهم ينكصون ، ٧٤| يخوضون ويلعبون ، ويخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين . ٥

خروج المتوكل من طليطلة ، ورجوع ابن ذى النون إليها

فلما تمكن المتوكل من الرى والشبع ، تذكر عواقب الطمع ؛ ورأى أنه إن زاد على ملء بطنه ، كان كالسراج المنغمس فى دهنه ؛ فكايدهم بفراره ، وأجلى [3] مبادراً إلى بطليوس دار قراره ، ينشد :

إن الله يرجعنى من الغزو لا أرى وإن قل مالى طالباً ما ورائيا ١٠

ومن غريب تأويل الأحلام ، أن رجلاً رأى المتوكل قبل دخوله طليطلة بأعوام ، كأنه يأكل فيها طعاماً فيه سلق مع رجل يسمى يوسف ، ففسرها الأديب أبو عمر بن فتح المعروف بابن برلوضه ، وقال : إن المتوكل سيدخلها على يد رجل يسمى يوسف ، وينالان من أعمالها [4] وذخائرها ، لكنهما يسلقان بالألسنة فيها ، ويقبح الحديث عنهما ، فخرجت الرؤيا كما فسر . ولما دخلها ١٥ وحصل إليه منها ما حصل فر وتركهم كالسفينة خانتها الريح ، والجسد بان عنه الروح ، بين ناب الطاغية أدفونش وظفره ، يقدح لهم نار الفتنة عن حجره ، ويريهم الموت فى أهول صوره ، مقسماً لا يبرح العرصة حتى يفى

---

(١) فى الأصل : أدابرا (٢) فى الأصل : « بردها » .
(٣) فى الأصل : وأجل . (٤) فى الأصل : عمالها .

لابنِ ذى النُّونِ بضمانِه ، ويُكافئه على سالفِ إحسانِه . وكانَ عاقَدَه ابنُ ذى النون أنه إذا ضَرَّج قذاها ، وأماطَ أذاها ، واقتضى دَيْنها[1] ، خَـلّى بينه وبينها . هذا [ما] أضمر ، فأمّا الذى أظهر ، فإنه وعدَه أداء جُمـلةٍ مِن المـال لا تَفِى به مُدّةُ الإقبال ، ولا إرخاءُ الحال ، راهنَه بها أبناءُ الأمجاد ، وبَقايا معاقِلِه الأفراد ، وألقَى أهلُ طُليطُلةَ بأيدِى الصِّغار ، على حينِ أيقنوا بالبَوار ، وضاقَتْ عليهم أُنشوطةُ الحِصار . فجاء ابنُ ذى النون يَقدُمه أدفُونش ، وهو يُظهِرُ من التزامِ بِرّه ، وإعذارِ نَصْرِه ، ما بَهَرَ العقول ، وكَثَّرَ القالَ والقِيل ، حتى زعموا أنه رَفعَ صوتَه يَدعو إليه ، وتَرجَّل يَمشِى بينَ يدَيْه ، وصارَ أعجبَ مَن تورّط فى حبائِلِ كَيْدِه ، وجَعلَ الضَّرغمَ بازياً لِصَيْدِه . وكم رامَ أهلُ طُليطُلةَ قتْلَ ابنِ ذى النُّون فى أثناءِ تلكَ الوَشَـلات[2] مِراراً ، ولـكنه بَلغَ مَداه ، وكرِهَ اللهُ لقاءَه فأبقاه ! وكانَتْ للهِ فيهِ مَشيئةٌ أمضاها ، وقَضِيّةٌ أنظرَ له[3] أناها ، لذلك ما خَبأتْه صروفُ الأيام ، وسَلِمَ من الحِمام إلى الحِمام . فلمّا كانَ يومُ النَّحْر سنةَ أربعٍ وسبعين ، نَهَدوا له فى عَدَدِهم وعَديدِهم ، وزحَفُوا إليه بحدِّهم وحَديدِهم ، فتجاوَلوا عامّـةَ يومِهم فى شوارِعها ، يترامَوْنَ بدَوامغِ الحُتوفِ وقوارِعها ؛ فأجلَتْ الحربُ عنهم قد شَرِقُوا بغُصّتها ، وخَلّوا بينَه وبينَ عَرْصتِها . وتساقَطوا على أدفُونش يَشكُونَ ابنَ ذى النُّون إليه ، ويَستصرِخُونه عليه . فرماهم بحجَر ، ولَبِسَ لهم جِلْدَةَ نَمِر . فتفرَّقُوا بكلِّ سَبِيل ، وطاروا على كلِّ صعبٍ وذَلول ، حتَّى ماتَ ابنُ مُغيث كبيرُهم الذى علّمهم السِّحر ، وطاغُوتُهم الذى شَرَع لهم

(١) فى الأصل : ديها

(٢) فى الأصل . الاسلاث ، وما أثبتناه أقرب الاحتمالات

(٣) فى الأصل : به .

الكُفر ، « بشيمول »[1] من أرض قَشْتِيلةَ بينَ الدِّنانِ والصُّلْبان ، فسارَ وإلى الله إيابُه ، وعليه حسابُه . ورجعَ بَنُوه أخيراً فانتزَوْا بمدينةِ مَجْرِيط والمحشَرَ إليه ذؤبانُ الوقائع وأذِبَّةُ المطامع ، فكانتْ بينَ ابنِ ذِى النُّون وبَينهم أيامٌ عدَّتهم له عِدًا ، وساقتهم إليه وِرْدا ، حتى بادَ جُمهورُهم ، وتلاحقتْ أعجازُهم وصُدورُهم . وبَلغَ ابنُ ذِى النُّون مِن هَدْمِ رُبوعِهم ، وصَلْبِهم على جُذوعِهم ، ما يُبرِدُ صدرَ المَوْتور ، ويُضحِكُ سِنَّ الموتِ المُبير .

بَقيّةُ الحديثِ عن شئُونِ ابن ذى النُّون بطُلَيطُلة وإسلامُها لظهيرِه الطاغيةِ أدفُونش ، وما انطوى فى ذلك مِن خبَر ، والتفَّ بهِ من قَبيحِ أثر

قال ابنُ بَسّام : وأخذَ ابنُ ذى النُّون أهلَ طُلَيطِلةَ لحينِ استقرارِه فيها بفَكِّ تلك المعاقِل ، وأداءِ ما كان ضَمِنَ لأدفُونش مِنَ الأموالِ الجلائل ؛ فضَرَبَ مُدبِرَهم بمُقبِلِهم ، وولّى آخرَهم بَبْرَأوّلهم ؛ حتى طَمِعَ فقيرُهم فى غنيِّهم ، واجترأ ضعيفُهم على قويِّهم ، وأصبحَ الرجلُ منهم يَرتاعُ مِن ظِلِّه ، ويَلتفِتُ وإنما هو بينَ أهلِه . وانكدرَ أدفُونش على طُلَيطُلةَ يَنتَسِفُ مَرافقَها ، ويَقعِدُ لجاليةِ أهلِها ثَناياها ومَضايقَها ، يأسِرُ ويَقتُل ، ويَحرِق ويُمثِّل . وسما السِّعْر ؛ وتفاقمَ الأمر ، وأنكرتِ المواردُ والمصادِر ، وبَلغتِ القُلوبُ الحناجِر . وكانَ مِن غريبِ ما اتَّفق ، وعجيبِ ما انتظَمَ مِن ذلك واتَّسَق ، أنَّ البُرَّ كان على زعمِهم يَمكثُ عندهم أكثرَ مِن خمسينَ سنةً لا يُؤثِّر فيه طُولُ القِدَم ، ولا يُخاف عليه آفةُ العدَم ، ولم يُرفَعْ مُدّةَ الفِتْنةِ من البيادرِ — على تعذرِ بَذْرِه ،

(١) كذا رسم هذا البلد فى النسخة وهو غير واضح ، و « قشتيلة » تقرأ فى الأصل « شثيلة » .

وضِيق الحيلةِ عن محاوَلةِ شئ من أمْرِه — إلّا وقد بَدَا البِلَي عليه، وأسرَعتْ الآفةُ إليه، أمرٌ مِن اللهِ لم يكُنْ له مُؤدّ، ولا مِنه بُدّ. ولمّا شَملَ البَلاء، وفَدحَتْ البأساء، وأتَى على أكثرِ أهلِ طُليطُلةَ القتلُ والجَلاء، وقَضَى الطاغيةُ أدفونش — قَصمه الله — قَضاءه من استباحةِ الحَريم، واستئصالِ الرّاحِلِ والمُقيم، وإتلافِ الموجودِ والمَعْدُوم، أسْرَى تحتَ الليل، فى قِطْعةٍ غيرِ وافرةٍ من الخَيْل، فنزَل المُنْيَةَ المُسوّرة[1] التى كانَ المأمونُ يَحشُدُ إليها كلّ حُسْن، ويُباهِى بها جَنّةَ عَدْن، ويَقلبُ الجَوْرَ[2] (؟) فى جَيِّدِ بنيانِها، والإشادةِ بشانها، ظَهْراً لبَطْن، فاتخذعرُوشَها مَرَابطَ لأفراسِه، وإيوانتَها مَلاعِبَ لأراذِلِته وأرجاسِه. وهَجَم الشتاء فمنَعه من مِيرةٍ تأتيه، أو مَددٍ يُوافيه، فأقامَ نَيِّفاً على شَهرَيْن لا يَسِيغُ الشّراب[3]، ولا يَملكُ المجىء ولا الذّهاب، ليسَ له شَوْكة إلّا ظلُّ لوائه، ولا مَددٌ إلّا ضَعْفُ مَن كانَ بإزائِه. ولولا اهتبالُ مُلوكِ الطوائفِ بإقامةِ مَرَافقِه، وإصفاؤُهم إلى هَدَرِ شَقاشِقه، لطَار شَعاعا، وذَهَبَ ضَيَاعا. وطَفِقَ أهل طُلَيطُلة يَستصرِخونَ مَن حَوْلَهم، ويُعمِلُون فى ذلك فِعْلَهم وقَوْلَهم، فيعكِفُون على طَلَلٍ بائِد، ويَضرِبُون فى حَديدٍ بارد. فلمّا نأى الشتاء بجانبِه، وخَلّى[4] بينَ كلّ[4] ذاهبٍ ومَذاهِبه؛ سالَ بأهل طُلَيطُلة سَيْلٌ لا يَقوم له سَهْلٌ ولا وَعْر، وطَلَع عليهم لَيلٌ لا يَلُوحُ لهم فيه صُبْحٌ ولا فَجْر. واضطرّ مَن أخطأَته الحوادِث، وتَخطَّته تلك الخُطوبُ الكوارِث، من امثلها[5] ضِيقُ الحِصار، وكَلَبُ البَوار، وإبطاءُ المرافقِ والأنصار، إلى مُداخلةِ الطاغيةِ أدفونش، فشَرعُوا فى ذلك غيرَ مُظهِرِينَ للاستِسلام، ولا مُتبرّئينَ مِن الصَّبْرِ

---

(١) فى الأصل : المصورة .
(٢) كذا فى الأصل .
(٣) فى الأصل : التراب
(٤ — ٤) فى الأصل : وحل بين كان
(٥) كذا فى الأصل ولعلها : « ممن شمله » أو ما فى معناها

عَلَى ضَنْكِ ذلكَ المُقَام ، طَمَعاً فى أنْ يُغروه ولو بإغلاء سَوْم ، ويَخدعوه[١] ،
على أذماء نُفوسِهم ولو ببياضِ يوم ، إشارةَ الغريقِ إلى الساحل ، واستراحة
المحتضَر إلى الطبيبِ الجاهل ! فأَبَى أدفُونش إلّا عَرْصَةَ الدار ، وأُمَّ الأوطار ،
ولجاجاً بينَ التمادِى والاستمرار ، لعلمه أينَ يَنتهِى طَلَقُهم ، وتَقدِيره[٢] لما
عَسى أنْ يَفِىَ به رمَقُهم . فخرجَ من أعيانهم جُمـلَةٌ إلى مَضرِب أدفُونش فى ٥
بعضِ تلك الأيام ، وقد ضاقَ المجـال ، وتَلَمّظت الآجال ، وأقبلت الحتُوفُ
تختال[٣] ، فقامَ الحُجّابُ دُونَه ، وقالوا : هو نائمٌ فـكيفَ تُوقظونه ؟ فعَدلُوا إلى
مضرب شِشْنَنْد ، سِرِّه[٤] العَتِيد ، وشيطانه المَرِيد ، وهامانه الذى أوقدَ له على
الطّين ، وعلّمه الدّفْعَ بالشكّ فى صَدْرِ اليَقين ، أحدِ أعلاجِ ابنِ عبّاد كان ،
من رجلٍ مُتوقّدِ جَمْرةِ الذكاء ، بعيدِ المذهب بينَ الجُرأةِ والنّـكْراء ، سفرَ بينَ المعتضدِ ١٠
والطاغيةِ فَرْذِلَنْد ، فعَقد وحَلّ ، ونَهَض بما حَمَلَ مِن ذلك واستقَلّ . ثم خافَ
المعتضدَ على نفسه ، فنزَع به عِرْقُ اللُّوم إلى المقرّ المذمُوم . واستقرّت قدَمُه
بجِلّيقيّة ، فاضطلَع بالدُّرُوب والثُّغور ، وغلَب على سائرِ السياسةِ والتّدبير . وصارَ
بَعْدُ قُصارَى مُلوكِ الطوائفِ بالجزيرةِ نَظْرَةٌ مِن اهتباله ، وأدنَى خَطْرةٍ مِن باله .
فأَدخَل على أدفُونش يومئذٍ منهم جماعة فوجَدُوه يَمسَح الـكرَى مِن عَيْنَيْه ، ثائرَ ١٥
الرأس خَبِيثَ النّفسَ ، وجعلوا يَنظُرون إليه وهو يَضغَثُ ثُغامَةَ رأسِه ، فَانَسوْا
ذفرَ أطمارِه ودَرَنَ أظفاره . ثم أقبَلَ عليهم بوجهٍ كَرِيه ، ولَحْظٍ لا يَشكُّون أنّ
الشرّ فيه ، وقال لهم : إلى متى تتخادعون ، و بأىّ شىء تَطمعون ؟ قالوا بِنا بَغيّة ،

---

(١) فى الأصل : ويخدعونه .
(٢) فى الأصل : وتقديرهم .
(٣) فى الأصل : تختل .
(٤) فى الأصل : شره .

[ولنا] فى فلانٍ وفلانٍ أمنيّة ، وسمّوا له بعضَ ملوكِ الطوائف ، فصفّق بيديه ،
وتهافت حتى فحص برجليه ، ثم قال : أينَ رُسُلُ ابنِ عبّاد ؟ فجىء بهم يرفلون
فى ثيابِ الخناعة ، ويَنبِسون بألسنةِ السمعِ والطاعة . فقال لهم : مُذْ كَمْ تحومُونَ
علىّ ، وتَرُومونَ الوصولَ إلىّ ؟ ومتى عهدُكم بفلان ، وأينَ ما جئتم بهِ لا كنتم
٥ ولا كان ؟ فجاؤا بجملةٍ مِيرَة ، وأحضروا بين يديه كلّ ذخيرةٍ خطيرة . ثمّ مازادَ
على أنْ رَكلَ ذلك برجليه ، وأمرَ بانتهابهِ كلّه ؛ ولم يَبقَ مَلكٌ من مُلوك
الطوائف إلّا أحضَرَ يومئذٍ رُسلَه ، وكانتْ حالُه حالَ مَن كانَ قبلَه . وجعَل
أعلاجُه يدفعونَ فى ظُهورِهم ، وأهلُ طُليطلةَ يعجبُونَ من ذُلِّ مَقامِهم ومَصيرِهم ،
فخرجَ مَشيخَتُها من عندِه وقد سُقط فى أيديهم ، وطمِع كلٌّ شىء فيهم ، وخلَوا
١٠ بينه و بينَ البلَد ، لثلاثةِ أيامٍ من ذلك المَشْهد . ودخَل طُليطلةَ على حُكْمِه ،
٨٦ وأثبتَ فى عرْصتِها قدمَ ظُلْمِه ، حكْمٌ مِنَ اللهِ ، سَبَق بهِ القدر ، فلم يكُنْ منه وَزَر !

وخرَج ابنُ ذِى النُّون خائباً مما تمنّاه ، شَرِقاً[1] بعُقبَى ما جَناه ، والأرضُ
تَضِجُّ من مُقامِه ، وتَستأذِنُ فى انتقامِه ، والسماءُ تودُّ لو لم تُطلِعْ نجماً إلّا
كدرَته عليهِ حَتْفاً مُبيدا ، ولم تُنشِئْ عارضاً إلّا طرَته فيه عَذاباً شديدا .
١٥ واستقرَّ بمحَلةِ[2] أدفونش مخفورَ الذِّمّة ، مُذالَ الحُرْمة ، ليسَ دُونه باب ،
ولا دُونَ حُرَمه سِتْرٌ ولا حِجاب . حدّثنى مَن رآه يومئذٍ بتلك الحال و بيدهِ
اصطُرلابٌ يَرصُد فيه أىَّ وقتٍ يَرحل ، وعلى أىِّ شىء يُعوِّل ، وأىَّ سبيلٍ
يَتمثّل ، وقد أطاف به النّصارى والمسلمون ، أولئك يضحكون من فِعْله ، وهؤلاء
يتعجّبون من جهْله .

٢٠ وعَتا الطاغيةُ أدفونش — قصَمه الله — لحينِ استقرارِه بطُليطلَة واستكبَر ،

(١) فى الأصل : سرفا . (٢) رسم الكلمة فى الأصل : بحملة .

وأخَلَّ بملوكِ الطوائفِ فى الجزيرةِ وقصَّر ، وأخذَ يتجنَّى ويتعتَّب ، وطَفِقَ يتشوَّفُ إلى انتزاعِ سُلطانِهم والفراغِ مِن شأنِهم ويتسبَّب ، ورأى أنهم قد وقفُوا دُونَ مَداه ، ودخَلوا بأجمعِهم تحتَ عَصاه .

وَوَلَّى شِشْنَنْد المذكورَ تدبيرَ طليطُلَة ، فهوَّنَ عليهم(١) الرزيَّة ، وَحبَّبَ إليهم إعطاءَ الدَّنيَّة ، بما أراهم مِن سُهولةِ مَرَامِه ، وبَسَطَ فيهم مِن عَدْلِ أحكامِه ، حتى استمالَ قُلوبَ أعلامِها ، وجَنَّبَ النظرَ إلى عامةِ طغامِها ، وفجأ المسلمين من اختلافِ أهوائِهم ، وتنصُّرِ سُفهائِهم ، ما ضاقَتْ عنه صُدورُ الأيام ، واضطربَتْ له قَواعِدُ الإسلام . وقد كان من رأى شِشْنَنْد الإبقاءُ على أهلِ طُليطلَة ، وقال لأذفُونش : لستَ تجِدُ بمَن تعمُرها ، ولا تظفرُ بعاملٍ أطوعَ مِن ابنِ ذى النُّون يُدبِّرُها . فأبى أذفُونش إلّا لَجاجاً فى سَفَهه ، وانحطاطاً فى حَبْلِ شرَهِه . فلمّا تهيّأ له مُلْكُها ، وانتثر فى يديهِ سِلْكُها ، قالَ له شِشْنَنْد : اخفضْ جناحَك لأهلِها ، واستَجلِبْ جاليتَها بما تمُدُّ مِن ظِلِّها ، ولا تُلِحَّ على مُلوكِ الجزيرة فلستَ تَستغنى عنهم ، ولا تجِدُ عُمّالاً أطوعَ منهم ، فإنك إنْ أبيتَ إلّا الإلحاحَ عليهم ، والتَّسرُّعَ بالمكروه إليهم ، نَفَّرتهم عن ذَرَاك ، وأحوجتَهم إلى مُداخَلةِ سواك . فكان من صُنعِ الله أن اتهمَ أذفُونش يومئذٍ مَنْحاه ، وخالفَه إلى رُكُوبِ هَوَاه ، وشَرَعَ لوقتِه فى تغييرِ المسجدِ الجامع بها، خاتمةُ النَّوائب، ونكبةُ الشاهدِ والغائب . فقال له شِشْنَنْد : إنك إنْ فعلتَ أوغرتَ الصُّدور ، وابطلْتَ التّدبير ، وسكَّنتَ(٢) مَن نَشَط ، وقبَضْتَ مَن انبسط ، فشمَخَ أذفُونش — لعنه الله — بأنفِه ، وثَنى من عِطفِه ، وأصغَى إلى طَنانةِ جُنونِه وسَخَفِه ، وأمَرَ

(١) فى الأصل : عليه .
(٢) فى الأصل : سلكت .

بتغيير المسجدِ الجامع يومَ [ ](١) لربيع الأول سنة ثمانٍ وتسعين وأربعمائة . وحدّثنى مَنْ شَهِدَ طواغيته تبتدِرُه فى يومٍ أعمى البصائرَ والأبصارَ مَنظرُه ، وليسَ فيه إلا الشيخُ الأستاذُ المُغامِى آخِرُ مَن صَدَر عنه ، واعتمده فى ذلك اليوم لِيتزوّدَ منه ، وقد أطافَ به مَرَدَةُ عفاريتِه ، وسَرَعانُ طواغيتِه ، وبينَ يديْهِ أحدُ التلامذةِ يقرأُ ، فكلّما قالوا له عَجِّل ، أشارَ هو إلى تِلميذِه بأنْ أكمِلْ ، ثم قامَ ما طاشَ ولا تهيَّب ، فسَجَد بهِ واقترَب ، وبكى عليه مَلِيًّا وانتَحب ، والنَّصارى يُعظِّمون شانَه ، ويَهابُونَ مكانَه ، لم تمتدَّ إليه يد ، ولا عَرَض له بمكروهٍ أحد . وقد حُدِّثتُ أنّ شِيعَةَ أذفونش — لعَنَه اللهُ وبَدَّدَها — أشاروا عليه يومئذٍ بلبسِ التاج ، وزَيَّنوا له زِيَّ مَن سَلَفَ بالجزيرةِ قبلَ فتحِ المسلمين إيّاها مِن أعلاج ، فقال : لا ، حتى أطأَ ذِروَةَ المُلْك ، وآخذَ قُرطُبتَهم واسِطَةَ السِّلْك . وكانَ أعدَّ لمسجدِها الجامع — حمَى اللهُ ساحتَه — مِن الخُطوب الروائع — ناقوساً تأنَّقَ فى إبداعه ، وتجاوزَ الحدَّ فى استنباطِه واختراعِه . فالحمد للهِ مُوهِنِ أيْدِه ، ومُبطِلِ كَيْدِه ، وجزى الله أميرَ المسلمين ، وناصِرَ الدِّين ، أبا يعقوب يُوسفَ بنَ تاشفين ، أفضلَ جزاء المحسنين ، بما بَلَّ مِن رِماق ، ونَفَّسَ مِن خِناق ، ووَصَل هذه الجزيرةَ مِن حَبْل ، وتجشَّم إلى تلبيةِ دُعائها واستنقاذِ ما بها ، من حَزَنٍ وسَهْل ، حتى [ثلّ](٢) عروشَ المُشرِكين ، وظَهَر أمرُ اللهِ وهم كارِهُون ، والحمدُ لله ربِّ العالمين .

---

(١) بياض بالأصل .

(٢) بياض بالأصل .

فَصلٌ فى ذِكْر الأديبِ الكاملِ أبى عبد الله محمدِ بن شَرَف وسِياقَةُ جملةٍ وافرةٍ من نَظْمِهِ ونَثرِهِ

قال ابنُ بَسّام : كانَ أبو عبدِ الله بنُ شَرَفٍ بالقَيْرَوان ، مِن فُرسان هذا الشان ، وأحدَ مَن نظَم قلائدَ الآداب ، وجَمع أشتاتَ الصواب ، وتلاعَبَ بالمنظُومِ والموزون [تَلاعُبَ] [1] الرياحِ بأعطافِ الغُصون ، وبينَه وبينَ أبى علىّ ابنِ رَشيق ماجَ بَحرُ البراعَةِ ودامَ ، ورَجَع نجمُ هذه الصناعةِ واستقام ، وذَهبا من المُناقَضةِ مَذْهبًا تنازعاه شرًّا طويلا ، وخلّداه ذِكْراً محمولا ، واحتَملاه — إنْ لم يَسمحِ الله — وِزراً ثقيلا . وكان أبو علىّ أوسعَهما نفَسا ، وأقربَهما مُلتَمسا ، ولابنِ شرفٍ أصالَةُ مَنزِعه ، وجَلالةُ مَقطَعِه ، ومَتانَةُ لفظِه ، وسعَةُ حِفْظِه ، فتسمعُ بشعرِه ملآنَ مِن وعوعَةٍ وجَعْجعَة ، ولكنْ ما أبعدَ ما يَرومُه وأبدَعه ! وسال سَيْلُ فِتْنةِ القَيْروان ، اللاعبُ بأحرارِها ، المُعَفِّى على آثارِها ، فتردّد على مُلوكِ الطوائفِ بالأندلس ، بعدَ مُقارَعةِ أهوال ، ومُباشرةِ خُطوبٍ طُوال ، وقد نبَتتْ شَفْرتُه ، وطُفِئَتْ جَمْرتُه . وقد قُلتُ فيما تقدّم إنه انتحَى مَنحَى القسطلّى فى شَكوَى الزمن والحديثِ عن الفِتَن . كانَ معَه كمَنْ تَصدَّى الرِّياحَ بجَناح ، وقابلَ الصباحَ بمِصباح . واستقرَّ أخيراً عندَ المأمونِ بنِ ذى النُّون ، فعليهِ خلَعَ آخرَ لَبُوسِه ، ونَثرَ بقيّةَ كِيسه . وكانتْ لعبّادٍ هِمّةٌ فى اصطحابِ الأحرار ، واستجلابِ ذَوى الأخطارِ ، يَنصِبُ لذلك الحبائل ، ويُعمِلُ فيه الحقَّ والباطل ، حتّى إذا عشَوْا إلى سُرُجِه ، واغترّوا بِزِبْرِجِه ، سامَهم رَدَّ قُبَيْس [2] على أبيه ، وأخذَهم بالسعايةِ بينَ الفرقَدِ وأخيه ،

(١) سقط بغير بياض فى الأصل . (٢) فى الأصل : رد أبى قبيس على أبيه .

فمَنْ أعياه منهم رُكوبُ الصِّعاب ، وعَضَّه التَّقلُّبُ بينَ المضايقِ والرِّحاب ، عَزَّه فى الخِطاب ، وأطاعَ به سُلطان الارتياب ، «أُيمسِكُه على هُونٍ أم يَدسُّه فى التُّراب» ؟! وقد ذكرتُ فى أخبارِ ابنِ عبدِ البَرِّ الكاتبِ أنه انسَلَّ مِن يدِ عبَّادٍ انسِلالَ الطَّيْف ، ونَجا منه واسأَلْه كَيْف .

٥ وكان ابنُ شَرَفٍ هذا مِمَّن فَهِمَ مَنْحاه ، وصَمَّ عن رُقاه ، فلم يَجْتمِع مع عبَّادٍ فى صَعيد ، ولا أهدَى له السلامَ إلّا مِن بَعيد . وستأتى أخبارُه معَه ومع سواه ، مُحرَّرَةَ النَّقْد ، مُقدَّرَةَ السَّرْد . ولأبى عبدِ الله عِدّةُ تواليفَ أفاضَها بِحارا ، وأطلَعَها شُموساً وأقمارا ، منها كِتابُه المرسوم «بأعلام الكلام» وكتاب «أبكار الأفكار» وقَلَبَ له هذه الترجمةَ بإشْبيلية بعضُ الوزراءِ الكُتَّاب. فجاء فى ذلك بالعَجَبِ العُجاب ، وقد أثبتُّ فى هذا الفصلِ مِن كلام

١٠ ابن شرفٍ ما يَشهَدُ بذكائه ، ويُغنِى عن إطرائه .

جملة من نثره ، مع ما يَتشبّثُ بِهِ مِن شِعْره :

بَلغنى أنه استَنهضَ صاحبَه ابنَ رشيق — معَ مُنافَرةٍ كانت بينهما — فى أن يَجتمِعَ العدوّان بالطريق ، ويجوزا معاً إلى الأندلس. فأنشدَه ابنُ رشيق :

١٥ مِما يُبغِّضُنى فى أرضِ أندَلُسٍ ... سَماعُ مُقتَدرٍ فيها ومُعتَضِدِ
أَلقابُ مملكةٍ فى غيرِ مَوْضعِها ... كالهِرِّ يحكِى انتفاخاصُورةَ الأسَدِ

فانشَدَ ابنُ شَرَف :

إنْ تَرمِكَ الغُربةُ فى مَعْشَرٍ ... قد جُبِلَ الطبعُ على بُغضِهِمْ
فدارِهِمْ مادُمْتَ فى دارِهِمْ ... وأرْضِهِمْ مادمْتَ فى أرضِهِمْ

٢٠ وتصرَّفَ ابنُ شرفٍ فى هذا المعنى فقال :

يا خائفاً مِن مَعْشَرٍ لا يُصطَلَى بنارِهِمْ

... ...[1]

أو تُرْمَ مِنْ أحجارِهِمْ وأنتَ فى أحْجارِهِمْ

فما بَقِيتَ جارَهُمْ ففِى هَواهُمْ جارِهِمْ

وأرضِهِمْ فى أرضِهِمْ ودارِهِمْ فى دارِهِمْ ٥

وكان أوّلُ ما بعثَ إلى المعتضد بإشبيلية خمسَ قصائدَ من شعْره مع رقعةٍ خاطَبَ بها وزيرَه أبا الوليدِ بنَ زيدون ، يقول فى فصلٍ منها :

الآدابُ — أعزّك الله — لأربابِها ، كالمحارمِ لِذوى أنسابِها ، تُبدِى البِنْتُ زينتَها لأبيها ، وترِفُ الأُختُ لأخيها ، ولِمَن كانَ له فى المَحْرمِ شبيها ، وكذلك حكمُ ذَوِى الآداب فيها ، يرفعون بينهم حُجُبَ التحفظِ بيدِ الاسترسال، ١٠ ويَدفعون سِترَ التقبُّضِ بأكُفِّ البِشْرِ والإقبال . وقد رفعتُ إلى حضرتِهِ الرفيعةِ خَمْسَ أبكارٍ عُرُب ، تَخدِمهنّ وَليدةٌ ذاتُ حُسْنٍ وأدَب ، خصَصتُ بالخمسِ الغرائض[2] خيرَ الملوك ، وبالوليدةِ برّ الحرّ المملوك . وهُنَّ وإن زِدْنَ على أرْبَعِ الشّرعِ واحدة ، فليستْ فى دِينِ الشِّعرِ بزائدة ؛ ولمّا جازَ أكثرُ مِن أربعٍ لخيرِ الأنام ، اقتدَينا بذلك فى خيرِ الكِرام . ١٥

ولمّا كنتَ — أعزّك الله — حسّانَه[3] المُقدّم رأينا ما رآه صلى الله عليه فى سِيرين . وقد كانت النِيّة ، لو[4] تمّت الأُمنيّة ، حُضوري بذاتى ، لِزِفافِ بُنيّاتى ، فمنَعَ من المُراد مانِع ، ودَفَع بيدِ الأقدارِ دافِع . ولمّا صار الفِعْلُ الماضى مُستقبلا ،

---

(١) بياض فى الأصل بقدر بيت .

(٢) فى الأصل : القرائض ، ولعل الصواب ما أثبتناه أو لعلها « الفرائد » .

(٣) فى الأصل : « حساب » (٤) فى الأصل : لم

وبقيتُ للحاقِ مُؤمِّلا ، وكانت بِهِنّ ذا مَحْرَمِهِنّ ، وأمِنتُ عليهن ابنَ [بجدتِهِنّ] [١] وهو الشيخ أبو فلان . فللوزيرِ الأجلّ علوُّ الرأىّ فى قبولِ ما عَرَضه وَلِيُّه المُدِلُّ على إكرامِه ومكارمِ أخلاقِه ، بما يَنِمُّ عليه مِن طِيبِ أعراقِه ، ويَقومُ بعُذرى إنْ وَهِمت ، وبِشكرى إن فهِمت . فهو بَدْرى إذا لَيْلى عَسْعَس ، وشَمْسِى إذا صُبْحى تَنفَّس . وأنا وإنْ بَعثتُ بالأقمارِ فى الأطمار ، وبالشُّموسِ فى خَشِنِ المَلْبُوس ، فهو برِفقِه ودَقيقِ حِذقِه يُلطِّفُ الهُجْن ، ويُحسِّن الخُشْن ، ويُقدِّم فى الغَيْبة ، ما يُعِينُ عندَ اللِقاء على الهَيْبة ، بقوىّ مُنَّتِه ، وعظيمِ مِنَنِه ، إن شاء الله .

فأُجيبَ ابنُ شرفٍ برقعةٍ من إنشاءِ الوزيرِ الكاتبِ أبى محمدٍ بنِ عبدِ البرِّ قال فيها :

رُبَّ أُمنيةٍ شَطَط ، قد أتاحها قَدَر ، ونَجيةٍ [٢] فَرَط ، قد أراحها ظَفَر .
وقد تُقرِّب الأمانى ما يظنُّه المرْء نازعاً بَعيدا ، كما تُفيتُ ما يَعتدُّه حاضرًا عَتيدا . وكانتْ أخبارُك — أبقاكَ الله — تَرِدُ علينا أرِجَةَ النسيم ، عَطِرةَ الشَّميم ، شَهِيَّةَ المَسْمُوع ، رَفيعةَ المحمولِ والمَوْضُوع ؛ وأشعارُك تَزُفُّ إلينا عَرائسَ الألباب ، ونفائسَ الآداب ، فنُفدِّيك على البُعْد بالأنفسِ والأقارب ، ونستدنيكَ بالأمانى ونَحسَبُها مِن الكواذِب ؛ حتّى أسمعَ الخبرُ باغترابِك ، وطَلَع البَشيرُ بارتقابِك [٣] ، ووافتْ رُوّادُ خِطابِك ، وقهقهه مُجلجِلِ سَحابِك ؛ وتَصدَّرتْ بحارُ الطّلبِ لسُقياك ، ونَمّت رياضُ الأدبِ برَيّاك ، وهزّ الكرمُ عِطفَه لِلُقياك ، ووَصَل المجدُ الأطرفُ طَرْفَه بِرُعياك ؛ وجُليتْ عليك [٤]

(١) بياض فى الأصل بقدر كلمه
(٢) فى الأصل « نحبه » ولعل الصواب ما أثبتناه
(٣) فى الأصل : « ارتعابك » (٤) فى الأصل : عليه .

عرائسُه الحالِيَةُ[١] فى مَعارضِ الشَّدْو والإنشاد ، فسَعِدَتْ من أكرمِ الأكفاء بالقَبُول والوِدَاد ؛ وحَظِيتْ عنده بالتّرفيعِ والإعزاز ، ووُضِعَ ثوبُها الأنفسُ فى يَدَىْ بزّاز . وقد استعملتُ معكَ فى اسمِ المُعتَضِد بالله بفضلِك — أيّده الله — مَذهباً مِن مذاهبِ رُواةِ الحديث يُسمّونه بالتّدليس ، وَيكادُ يُنسَب إلى الإشكالِ والتّلبيس ، لِعلمِ المحيطِ أنّ الكرَمَ مِن أسمائه وصِفاته ، والمجدَ من ألقابه وسِماته . وسَترِد ، فتَستَقصِرُ وَصْفِى بما تَجِد . فاقصِدْ قصدَه ، تَحُلَّ بطائلِ الإفادَة ، وأُمَّهُ وحدَه ، تحظَ بنائلِ الرِّفادَة . ولا تَبِعْ فى سُوقِ الكسادِ فالنَّفاقُ[٢] أمامَك ، ولا تَسُمْ بِبضاعَتِك فالسُّوقُ قُدّامَك . واذكُرْ ما أنكرَه ابنُ الزّيّاتِ على حَبيب ، وأنتَ المكتفِى بحالكَ عن الضَّمِير ، وبما خوّلكَ اللهُ عن المُشير . فذاتُك أنفعُ شُفَعائك ، وأدواتُك أرجحُ سُفَرائك . وقد خاطَبك مُستَقدِمًا ، وجَدَّ مُعتزِمًا ، ووجّه نحوكَ شيئاً يكون مِن زادِك إليه ، ويُعِينُ على مُؤنة طَريقكَ فى قُدومكَ عليه ، وذلك ثلاثُونَ مِثقالاً من ضَربِ السِّكّةِ قبلَه ، ولم يُرِدْ بها غيرَ ما أُعلِمك ، حتى تُوافِىَ إنْ شاء الله فتَستوفى . وعسَى أن يكونَ وصُولُكَ إسفارَ الفجرِ الذى صدَعتَه إلينا ، وحُلولُك نَهارَ الصُّبحِ الذى أطلعتَه علينا . وكانَ مِن البرِّ أن أُراجِعَ عن الشعر لكن لا أخطو فى مَيْدانك ولو كنتُ جريرا ، ولا أرجَحُ فى مِيزانك ولو احتَضنْتُ ثَبِيرا .

قالَ ابنُ بَسّام : والذى ذكرَ ابنُ عبدِ البرِّ مما أنكر ابنُ الزيّات على أبى تمام لمّا مدحه بقصيدتِه التى أوّلُها :

* لهانَ علينا أن نَقولَ وتَفعَلا *

وهى مِن أحسنِ شعرِه ، وقّعَ له على ظهرها :

(١) فى الأصل : الجالية . (٢) فى الأصل : فالنفائق .

رأيتُك سَهْلَ البَيْعِ سَمْحًا وإنّما يُغالَى إذا ما ضَنَّ بالشىء بائِعُهْ
فأمّا إذا هانَتْ بَضائِعُ بَيْعِهِ فيُوشِكُ أنْ تَبقَى عليه بَضائِعُهْ
هو الماءُ إنْ أجمَمْتَهُ طابَ وِرْدُهُ ويُفسِدُ مِنهُ أنْ تُباحَ شَرائِعُهْ

فاعتذَر إليه أبو تَمّام فى قصيدتِه التى يَقول فيها :

٥ أمّا القوافِى فقد حصّنتَ عِذرتَها فلا يُصابُ دَمٌ منها ولا سَلَبُ
ولو عَضلْتَ عن الأكفاءِ أيِّمَها ولم يَكنْ لكَ فى أطهارِها أرَبُ
كانَتْ بناتِ نُصَيْبٍ حين ضَنَّ بها على المَوالى ولم تَحفِلْ بها العرَبُ

وقد قِيلَ إنّ أبا تمام أجابَه بقوله :

أبا جعفرٍ إنْ كنتَ أصبحتَ شاعِرًا أُسامِحُ فى بَيْعِى لَهُ مَن أُبايِعُهْ
١٠ فقد كنتَ قبلى شاعِرًا تاجِرًا بهِ تُساهِلُ مَنْ عادَتْ عليك مَنافِعُهْ
فصِرتَ وزيراً والوزارةُ مَكْرَعٌ يَغَصُّ بهِ بعدَ اللَّذاذةِ كارِعُهْ
وكَمْ مِنْ وَزيرٍ قد رأينا مُسلَّطًا فعادَ[1] وقد سُدَّتْ عليهِ مَطالِعُهْ
وللهِ قَوْسٌ لا تَطِيشُ سِهامُها وللهِ سَيْفٌ لا تُفَلُّ قَواطِعُهْ

وقيل إنّ هذه الأبيات مَنحولَةٌ لحبيب ، وقيل قالَها ولم تَظهرْ إلاّ بعدَ مَوْتِهِ .

١٥ رجع . فتوقّفَ ابنُ شرَفٍ عن القُدوم بقَدمِه ، وكَلّفَ ذلكَ سِنَّ قَلمِه . وطَرَّرَ تأليفَه « أبكار الأفكار » باسم عبّاد ، وبعثَ به إليه على البِعاد . وقد كانَ وَسَمَه قبلُ باسم باديس بن حَبُّوس فى خُطْبةٍ طويلةٍ قال فيها : ما ظَنَنتُ الابتداعَ إلاّ بَلَغ ، ولا حَسِبتُ الاختراعَ إلاّ فرَغ ، حتى إذا استأثرتْ بُنيّاتُ صَدْرى ، ولطائفُ فِكْرى ، ببيتٍ واحدِ الجنسية ، ومعنًى غريب الأبنيَة ، قلتُ ٢٠ لنفسى هَيهات ! لاشك أنك سُبقت إلى هذه الغاية ، وعلّتُك قِلّةُ الرواية . وكَثَّرَ سُبّاقُ الروّاد ، وفُرّاطُ الوُرّاد ، فما تركوا للمتأخرين من الرّياضِ زَهْرَة ، ولا مِن

(١) فى الأصل : فكاد ، والتصحيح عن الأغانى ج ٢٠ ص ٥١ .

الحِياضِ قطْرَة ؛ كما أنَّ جَيْشَ الـكَرَمِ قد انهزَم ، وزائِرَ الشَّرفِ قد انصرَف ،
ومَرْكُوبَ المجدِ قد ندَّ ، فعِشْتُ أظنُّ هذا الظَّن ، حتى سافَرتْ إلينا رِفاقُ الأخبارِ
بشَهَاداتٍ زَكَّاها مُرورُ الأيام ، ودُؤوبُ الدّوام ، تَشهَدُ بسؤددٍ بانَ عن السؤددِ
العِصامىّ ، وحزْمٍ فاقَ الحزمَ الهِشَامىّ ، وجُودٍ جاوَزَ الجُودَ الـكَعبِىّ[1] ، و بأسٍ
٥ أنسَى البأسَ المُصْعَبىّ . ثم سفر لى الدهرُ عن سَفَرٍ إلى مَغْرِبِ الدُّنيا ومَشْرقِ ٧٩
العَلْيا ، والبُقْعَةِ المُبارَكةِ الباديسيّة ، والدولةِ المُظَفَّرية ، والمملـكةِ الشامخةِ
الحِميريَّة ، والحضرةِ الشريفهِ المُنِيفَةِ الغرناطيّة . فعايَنْتُ عالَمًا فى عَالِمٍ ، قد
شَرِكُوه فى النِّسبةِ إلى آدم ، وانفرَدَ مِن مُناسَبتِهم ، وشَذَّ عن مُجانَستِهم ، بجميلِ
طَرائق ، وحَميدِ خَلائق ، انفردتْ انفرادَ سُهَيْل ، وجمَعَتْ فى المرأى والمَسْمعِ
١٠ مازادَ على زَيْدِ الخَيْل . مُغرًى بالأدبِ المَهجُور بلِ المَطْرود ، سالِيًا عن المالِ
المَعشُوق بلِ المَعبُود ، مُنفِقًا للحَمْدِ الدَّفِين[2] المرسُوسِ ، إلى صُنوفٍ مِن
الفَضائل ، وأنواعٍ مِن الجلائل ، لا يُحيطُ بها الوَصْف ، ولا يَجمعُها الرَّصْف .
يُغنِى النَّقلُ الكافى والتَّواتُرُ الإجماعى عن تأتِيتها على ألسنةِ الأقلام إلى
أفهامِ الأنام . وقد قدحتُ زَنْدَ الفِكْر فأورَى شَرَرًا ، وامتحتُ[3] قليبَ
١٥ القلبِ فأجرَى نَهَرًا ، فرقَمتُ فى هـذا المجموعِ مِن الكلام المنثورِ المسجَّعِ
الأوساطِ والأطراف ، والمنظومِ المُكلَّلِ بتيجانِ القَواف ، ما استنبطتُه مِن
ذَوات صَدْرى ، واستنتجتُه من بَنات فِكْرى . فَغُررًا ابتدعتُها وسَجعتُها ،
ومعانِى حكاياتٍ اخترعتُها ، تُطرِّزُها الأقلام ، وتُرقِّمُ بها أرديةَ الـكَلام ،
وأنا أستَغنى بقراءةِ القارئ أصنافَها ، عن أنْ أُقدِّمَ أوصافَها . وهى بَنَاتُ
٢٠ مُؤلِّفها ، وأسجاعُ مُصنِّفها ، وليستْ كالأسجاعِ المَنسُوبةِ لابن أبى الزّلازِل ،

---

(١) فى الأصل : العكبي . (٢) فى الأصل : منقعا للحمد الدفيق .
(٣) فى الأصل : امتحنت .

وهى بَنَاتُ شتّى قبائل ، لم يَزِدْ على أنْ بَتر حكاياتها ، وطَمَس معالِمَ آياتها ، لِيَصِحّ له ما شَرَط فى السجع مِن الأعداد ، فأضاع ما يُرَاد لِصدْقِ الإيراد . وقد تجمَّل بغيرِ ثيابِه ، وأنفقَ مِن غيرِ اكتسابه ، وأنا أُنشِدُ قولَ أبى النجم :

* أنا أبو النجمِ وشِعْرِى شِعْرِى *

٥ وعلى أىِّ حالٍ كان مجموعُنا هــذا ، فَيشرِّفُه شرَفُ مَن له يُجمَع ، وإلى يدِه العليّةِ يُرفَع ، فمَسّته يُمناه ، ولحَظَتْه عَيْناه . فلو كانَ صَمْصَامَ عمروٍ لِسواه ، ما انتهى مِنَ الذِّكرِ مُنتهاه ؛ ولولا حاجبُ بنُ زُرارة ما ذُكِرتْ قوْسُه ، ولولا حَبيبٌ ما عُرِفَ أوْسُه ، وإنما عُرِفَ الطُّورُ بالـكَليم ، وشَرُفَ المَقامُ بإبراهيم .

ومِن كلامه فى صَدْرِ كِتابِه المُترجَمِ بـ « أعلام الـكلام » فصْل يَقولُ فيه :

١٠ قد أطلتُ[1] الوقوفَ بالعُـكوف ، على غيرِ ما تَصْنيف ، فى شتّى الأنواع ، فلم أرَها إلاّ ولَدًا عن والدٍ ، وطارِفًا عن تالد ، فلا تَـكاد تُرِيك غَريبةً ولا شارِدَةً إلاّ مَنقولة : « يحدثنى فلان ، وسمعتُ عن فلان » ، والمؤلِّفون قُصّاص بأقلامِهم ، وإن لم يَقصُّوا بكلامِهم ، وقد تَـكرّرتْ تَواليفُهم على الأبصار والأسماع ، والمُكرَّرُ مَمْلولٌ بالإجماع ، وللنّفسِ صَبابةٌ بالغَرائب ، وإن لم تَـكنْ مِن الأطايب ،

١٥ لانفرادِها عمّا سَئِمتْه القُلوب ، وتجافَتْ به الجُنوب ؛ إلا أن الابتداعَ والاختراع بينهما[2] وبين الاستطاعةِ حِجاب . وقد كنتُ حاوَلتُ منــه ما لم أُسبَقْ إليــه ، ولم أجعَلْ سوَى ناظِرِى مُعينى عليه ، فَصنّفتُ الـكتابَ المُلقَّبَ بـ « أبكار الأفكار » ، يشتمل على مائةِ نَوْعٍ من مَواعظَ وأمثال ، وحكاياتٍ قِصارٍ وطِوَال ، مما عَزوتُها إلى مَن لم يحـكِها ، وأضفتُ نَسجَها إلى مَن لم يحُـكْها ،

(١) فى الأصل : أطلب . (٢) فى الأصل : عليهما بينه وبين ... ، ولعلها : والاختراع باب ، بينه وبين الاستطاعة حجاب .

قد طُرِّزتْ بِلُمَح الجِدّ والهَزْل ، وحُسِّنتْ بمُقابَلةِ الضِّدِّ للمِثْل ، ليسَ فى ذلك كلِّه [روايةٌ] رويتُها عن قديمٍ ولا جديد ، ولا حُدِّثتُ بها عن قريبٍ ولا بعيد . وقد رفعتُ إليه البِكْر ، ابنةَ الفِكْر ، فى هودجها الفَرِج ، وجلبابِها الأرِج ، وأنتَ الكُفؤُ الكريم ، وأشرفُ مَن أُهدِىَ إليه الحَريم ، الذى لا يَشُوبه التَّحريم ، وعلى كَرمك القَبُول ، وما أهداه الوُدُّ فمقبُول . ٥

فلمّا وصلَ الكتابُ والخطابُ إلى المُعتضِد لم يَجِدْ بُدًّا مِن إنفاذِ صِلَتِه إليه على[1] البُعْد . وراجَع ابنَ شرفٍ برُقعةٍ من إنشاءِ ابنِ عبد البرّ أيضًا ، قال فيها : « وردَ كتابُك الأثير ، فاقتضبتَ مِن النثرِ البَديع ، والنّظمِ الرَّفيع ، ما يهُزُّ أعطافَ الضمائر ، ويَسْرِى فى حَواشى الخَواطر ، وتَتلقّاه النُّفوسُ تلقِّى ارتياحٍ إلى بدائعه ، وفِتْنةٍ بمَبادِيه ومَقاطِعه . ولا غَرْو ، فإنّك عَلَمُ العِلمِ الذى ١٠ لم يَزَل يحوِى قَصَبَ السَّبْقِ فى مَيادِينه ، ويُهدِى اليانعَ الغَضَّ مِن رَياحِينه . وقد كانَ لى نِزاعٌ إليك ، وحِرصٌ عليك ، وتَصوُّرٌ للأُنْسِ بك ، لولا مَن جَلا لك الغِشَّ فى بعضِ النصيحةِ إذْ حَسَد ، ولم يَشُكَّ فيما تَرِدُ عليه مِن صَلاحِ الحالِ فلم يَألُ أنْ أفسَد . ولا بدَّ لعقاربِ الحَسَدَةِ من دَبيب ، وما كلُّ مُؤتٍ نُصحَه بلَبيب — ولكَ مع توقُّفِك وأنّى سَلكتْ بك مَقاصِدُ تصرُّفِك — لدَىَّ ١٥ المحَلُّ الكريم ، فذِكْرُك فى نفسى الشاهدُ المُقيم . وتأدَّى مِن قِبَلِ الوزيرِ الكاتبِ التأليفُ الرائق ، والتّصنيفُ الفائق ، فأجاتُ نَظَرِى منه فى سِحْرٍ إلاّ أنّه حَلال ، وفتَقتُ به ثَبَجَ بحرٍ إلاّ أنّه زُلال . ورأيتُ كيفَ تَزْحَم[2] فى العِلْمِ بالمنكِبِ العَمَم ، وتأخذُ مِن البلاغةِ فى المَذْهبِ الأَمَم . فما شِئْتَ مِن مَثَلٍ سائر ، وبَيْتٍ نادر ، وفِقَرٍ مَحذُوَّةٍ بأمثالِها ، ونُكتةٍ غَريبةٍ مُضافةٍ إلى أشكالِها ، ٢٠ | ٨٠

(١) فى الأصل : عن . (٢) فى الأصل : تزدحم .

مما اتصلت به يدُ الإحاطة بِصحَّةِ البَراعة ، وتَزينت دِيباجةُ الطبع بِرَقْمِ الصِّناعة .
فهو مُؤنسى ، وشُغْلُ مجالسى . وقد وَجَّهتُ إليكَ مع الوزيرِ المُتقدِّمِ الذِّكْر ،
ما أُحِبُّ أنْ تَضع عليه يَدَ السِّتْر ، مكانَ لسانِ الشُّكْر ، فإنى أعلمُ أنه عَدَدٌ
يَقصُر عن قَدْرِك ، ويَقِلُّ فى جَنْبِ اللازمِ لك ، وذلك مائةُ مِثقالٍ من ضَرْبِ
٥ السِّكةِ قِبَلى . فتفضَّلْ بقَبُولها ، والإعلامِ بوصُولها .

قالَ ابنُ بَسّام : ومع وصُولِ هذه الصِّلةِ إلى ابنِ شَرَف ، لم يزَل على
مُلوكِ الطوائفِ يومئذٍ يتطوّف ، ويتَنقّل فى الدُّولِ مِن مَنْزِلٍ إلى مَنْزل ، ومن
بَلَدٍ إلى بَلَد ، إلاَّ حضرةَ المُعتضِد فإنَّه كان يُخاطِبُه ويُنشِدُه :

أُحِبُّكَ فى البَتُولِ وفى أَبيها ولٰكنّى أُحِبُّكَ مِن بعيدِ

١٠ وتوهم جملة[(١)] أنّ بوادى إشبيليَة تِمساحًا من تماسيحِ النيل ، وجعل هِجِّيراه
بيتىْ أبى نواسٍ حيث يقول :

أضمرتُ للنيلِ هِجْرانًا ومَقْلِيَةً إذْ قيلَ لى إنمــا التمساحُ بالنيل
فمَنْ رأى النيلَ رَأْىَ العينِ مِن كَثَبٍ فلا أرى النيلَ إلاَّ فى البَواقيلِ

وقد حُدِّثتُ أيضًا أنه خاطبَ المعتضدَ بهذه الأبيات :

١٥ أأنْ تَصيَّدتَ غيرى صَيْدَ طائرةٍ أوسعتَها[(٢)] الحَبَّ حتى ضَمَّها القَفَصُ
حَسِبتَنى فُرْصةً أُخرى ظَفِرتَ بها هَيْهاتَ ما كلُّ حِينٍ تُمكِنُ الفُرَصُ !
وظاهِرٌ حسَــنٌ أيضًا لقِصَّتِها لٰكنْ لها باطِنٌ فى طَيِّه قِصَصُ
لكَ الموائدُ للقُصّادِ مُترَعَــةً تُروِى وتُشبِـعُ لٰكنْ بعدَها غُصَصُ
ولستُ أعجبُ مِن قَوْمٍ بها انتَشبوا لٰكنما عَجَبى مِن مَعشَرٍ خَلصُوا
٢٠ ولم يَطِبْ قَطُّ لى مَنٌّ يَلَذُّ ولا سَلْوَى إذا كانَ فى عُقباهما مَغَصُ

(١) كذا بالأصل . (٢) فى الأصل : أو صفتها .

قال هذا لتَواتُرِ الخَبرِ عن المعتضدِ بازوِرَارِ رُكْنهِ ، وخُشونَةِ حَزْنهِ ، فأضرَبَ عن ضَرَبهِ ، ولم يتعرَّضْ للُنشْبَةِ فى حَبائلِ نَشْبهِ ، خوفاً أن يُورِّطَه الهَوَى فى هَوَان ، ويَسقُطَ العَشاءُ به على سِرْحان ، ويَطِيحَ فى جُملةِ مَن طاحَ على يديهِ من الخُلَطاء والنُدَماء .

فُصول مِن نَثرِه فى أوصافٍ شتّى

فصل : جَرَى بكَوْدَنهِ إلى غايةٍ تَتباطأُ عنها السَّوابِق ، وتتطأطأُ عن سُموِّها السَّوامِق ، فلم يُحِطْ بوصفِها[1] ابنُ صَفْوان ، ولا سَحَبَ فيها لِسانَه[2] سَحْبان . وأينَ لسانُ باقِل مِن سَحبانِ وائِل ؟! فالفُصَحاء فى العَجْزِ عنها مَعذُورون ، فكيفَ المُعذَّرون ؟!

فصل : كَم[3] حاولَ دَفْنَ الشمسِ فى الرَّمْس ، وردَّ الأمسِ بالخَمْس ، ونَيْلَ النجمِ باللَّمْس !

فصل : أوضحُ مِن جبال تِهامَة ، لِعينَى زَرْقاء اليَمامَة . أشهرُ مِن النارِ على المَنار ، والليلُ كالقار . أبيَنُ مِن الكَعْبةِ للطائِفين ، ومِنَ المساجدِ للعاكفين . أشهرُ مِن الزِّبرِقانِ عندَ جَرْوَل ، ومِن الأبْلَقِ الفَرْدِ عندَ السَّموأل . أظهرُ فى العينَيْنِ مِن الهَرَمين . أشهرُ فى العَطاء من الطائى ، وفى الأيادى مِن الإيادى . أشهرُ مِن الآسِ فى الأعراس . أوضحُ مِن النُّجومِ لبَطليموس ، والطبُّ لجالينوس ، والعاجِ فى الآبنوس .

فصل فى ضِدّه : هو أخفَى مِن نُقطَةِ الجيم ، ومِن بيَاضِ المِيم . أخفَى مِن الأسرار عندَ الأحرار . أخفَى من السُّهَى ، ومِنديل الرُّها . (الرُّها مَدينةٌ بالشام وكانَ أهلُ الإنجيلِ يُخفون هذا المِنديلَ فى كَنيستِها ويَزعُمون أنَّه مِنديلُ عيسى

(١) فى الأصل : بصفوها . (٢) فى الأصل : لسان . (٣) فى الأصل : كما

ثمّ سُرِقَ واشتُرِيَ فعُدِمَتْ بَرَكَتُه). أخفى من نَفَسِ الجَبان [إذا التقت] [(١)] حَلْقَتا البِطان. أخفَى من بَيْضتَيِ الخائف، وقد أحسَّ بالطائف. أخفَى مِن تَفسيرِ شِعْرِ لَبيد، على فَهْمِ البَليد. أخفَى من عُطارِدٍ على المُطارِد. أخفَى من السُّوسَةِ فى العُود، ومِن السِّرِّ فى الرُّعود.

٥ فصل: قدْحُه [(٢)] مُعلَّى، وسَيْفُه مُجلَّى، ورياضُه أرِجَه، وحُلاَه مُدبَّجة؛ وطِباعُه مُهذَّبة، وخلائقُه مُؤدَّبه، وعُقَدُه مُوَرَّبة، وأرضُه مُعشِبَة، وألفاظُه رائقةٌ مُعْجِبة. لا يَملُّه جَليسُه، ولا يَجفُوه أنيسُه. عَقْلُه أحنَفِيٌّ، وعِلْمُه سُرَيْجِيٌّ، وذكاؤه إياسيٌّ، وأدبُه خليليٌّ.

فصل: يُقدِّم الحَزْم، ويُثنِّى بالعَزْم. يُواكِبُ الكواكب، ويَتعقَّبُ ١٠ العَواقِب. يُشاوِرُ ذَوِى الألباب، على أنّ رأيَه لُبَاب. يَثِبُ وُثوبَ اللّيث، ويَتدفَّقُ دُفُوق [(٣)] الغَيْث، ويُراوِثُ [(٤)] بينَ العَجَلِ والرَّيْث. نَوْمُه غِرَار واضطرار، وحاجاتُه سِرارٌ ثم اقتدار. لا تُثَبِّطه الظُّلَلُ ولا الظِّلال، ولا تَطَّبيه الكَلَلُ ولا يَثنيه الكَلال. عَزَمَاتُه شِهابيّة، وإضباباتُه عُقابيّة. رأيُه قبَسُه، وعَزْمه فَرَسُه. بَصيرتُه بَصَرُه، وصَدْرُه وِردُه وصَدَرُه.

١٥ فصل: هَرِمُ الجُود، على العِلاّتِ والوُجُود. كَفُّه غَيْث، لا يُبالِي مِن حَيْث. (٥ مالُه أكثرُ جُودِه، على جُنُوده. أغنَى جيشَه ٥). لذّاتُه فى الإكثار والإيثار، والأخذِ بالثار. يُزيحُ الأغلال، ويُبلِّغُ الآمال. يُحدِّث بمكارمه الرَّكْب، ويُنسَى بِفَرْطِ سَماحِه حاتمٌ وكَعْب.

---

(١) بياض بالأصل: ورسم الجبان فى الأصل الجنان.
(٢) فى الأصل: قد حمل.
(٣) فى الأصل: ويتوقف وقوف.
(٤) كذا، ولعلها: يراوح.
(٥ — ٥) كذا بالأصل ولعل بالعبارة سقطا.

٨١| فصل : أسدٌ وحدَه ، ودَعْ جُندَه . قلبُه يُخرِجُه عن القَلب ، وضرائبهُ تقتادُه إلى مكانِ الطَّعْنِ والضَّرْب . يَحملُ إذا مالوا ، ويَثبُتُ إذا جالوا . تارةً هو للمَيْسَرة يَمين ، وتارةً للمَيمنة كَمين ، وتارةً للقَلْبِ حِصْنٌ حَصين . تستأسِدُ به الذُّؤبان ، ويَشجُع بقُرْبهِ الجَبان . عُيونُ عسكرِه ، إلى مِغفرِه . تُعلِّيُّ[1] السِّهام ، عَبْسيُّ الإقدام ، بِسطاميُّ المِرباع ، عامِريُّ الطِّباع ، عِصاميُّ السِّيادَة ، ٥ مُصعبِيُّ الجَلادة .

فصل : عادلٌ ولا مُجادِل . مُنصِفٌ مُنتَصِف . سُلطانُه رَحْمة ، وسِيرتُه نِعْمة . يأخُذ الحقَّ ويُعطِيه ، ويَرْمِي الغَرَض فلا يُخطِيه . يُنصِفُ المملوكَ مِنَ المُلوك ، ويأخذُ للرئيسِ مِنَ الصُّعلوك . مَرفُوعُ الحِجَاب ، منزوعُ رِداءِ الإعجاب . ١٠ يُقيمُ الحَقَّ على شَقِيقه ، ويحكُم بالعدلِ لِعدوِّه على صَدِيقه ، سَواءٌ عنده البعيدُ والدَّاني ، والقَحطانيُّ والعَدْناني ، سِيَّانِ عنـدَه القُرشيُّ فى الحقِّ والعُـكْلِيّ ، والعَنْسيُّ والسَّلُوليّ ؛ لا فرْقَ عندَه بينَ مُضَرَ فى الحق ، وحِمْيَر وسائرِ الخَلْق . الغُرْبَةُ عندَه قُرْبَةٌ قَريبة ، ما لم تَصْحَبها رِيبَه . لا يَغلُو فى الهاشميَّة ، ولا يَعدُو على الأمويَّة ، ولا يَلتفِتُ إلى الأهاجي الباهليَّة . (سَلُول وعَنس وعُكل وباهلة ١٥ ألأمُ قبائلِ العَرَب . وقيل إنَّ سببَ ذلك أنَّ الشعراءَ هَجَتْها ولم يكن لهم شعراءُ يَذبُّون عنها فلبِسَهم الذمُّ وأكلَهم الهِجاء) .

فصل : أميرٌ يأمره حِلمُه فيُطيع ، ويُحمِّلُه ما لا يُستطاع فيستَطِيع . كم أعطِيَ الظفرَ فغَفَر ، وجُرِّع الصبرَ فصَبَر . له حِلْمُ مُعاوِيَة ، على الأعداءِ العادِيَة . له ثَباتُ يَلَمْلَمَ ، وتَحنُّكُ الجَذَعِ الأزْلَم[2] . قلبُه قَليبٌ واسِع ، وغَوْرُه ٢٠ بَعيدٌ شاسِع .

(١) فى الأصل : تعلى . (٢) فى الأصل : الألزم .

فصل : وزيرٌ يُديمُ أميرَه ، مُستوطِنًا سريرَه . مُتحوِّلٌ[١] وهو قارٌّ ، ويُرَى جالسًا وهو مارٌّ ، كالنّجمِ يُرَى وهو ساكِن ، وقد تحرَّكتْ بهِ أماكِن .

فصل : كاتب ، فَضْلُه راتِب ، وحقُّه واجِب . أقلامُه رِماح ، ورسائلُه فِصَاح ، وأخلاقُه فِسَاح . إن قَرطسَ أصاب ، وإن سُئِلَ أجاب ، وأصابَ عَيْنَ الصّواب . لِسانُه لسانُ المُلْك ، ومكانُه واسِطةُ السِّلْك .

فصل : قائدٌ عليه عِبءُ التّعويل ، فى أوّلِ الرَّعيل ، إذا الصبرُ عِيل . لا يُباحُ ما حَمَى ، ولا يُشوِى إذا رَمَى . عَوْدٌ إذا زَحَف ، وطَوْدٌ إذا وقَف ، وسَيْلٌ إذا حَمَل ، وكَتيبةٌ إذا اعتزَل . حُسامُه إمام[٢] ، يَهدِى فى ظُلْمةِ القَتام ، ويَهتَدِى إلى مَسالكِ الحِمام . لا تَردَعُه لامِعةُ السُّيوف ، ولا تفزِعُه مُصارعَةُ الحُتُوف . رِماحُه نُجومُ ظَلامِ القَتام ، ونُجومُه رُجومُ شياطينِ الأنام . لا تَرُدُّ حاجاتُ مواضِيه ، ولا تمطلُه عندَ تقاضِيه المغافرُ المَتِينَة ، ولا الدُّروعُ الموضُونَة .

فصل : قاضٍ يَشهدُ له عَدْلُه ، أنَّ غِلَّه سَريعٌ حَلُّه . يَقسِمُ نَظرَه بالقِسْطاس ، بينَ جميعِ الناس . حَفِظَ رِسالَةَ عُمر ، وعَمِلَ فيها بما نَهَى وأمَر . لا يَبيعُ القضايا بالهَدايا . به عَشَى ، عن الرُّشَى . يَنام الخَصمان ، وهوَ يَقْظان . إنْ عَجِلَ فعن استِدْلال ، وإنْ عَجَز فَلِتأمُّلِ إشكال . سُرَيجىُّ الإجابَة ، عِمْرانىُّ الإصابَة .

فصل : زُهّادٌ تَركُوا العَرَض ، وأصابُوا الغَرَض . اقترحوا القَنا ، واطَّرحُوا الغِنَى . رفضُوا المُزَايل ، وطَلَبوا الطايل ، وأعرضُوا عما يَبيد ، وأقبلُوا على ما يُفيد[٣] . لم يُزاحِموا على الجِيَف ، ولا استخدَموا بُطونَهم فى تعميرِ الكُنُف . تَركُوا ذلك لِمَن تَركُوا ، وقَنعوا بأقلِّ ما ملَكُوا ، وجَعلُوا الزّادَ

(١) هذه الكلمة غير واضحة بالأصل تماما ، وما أثبتنا أقرب الاحتمالات
(٢) فى الأصل : أمامه . (٣) بالأصل : يعيد .

إلى الجَنَّة ، الأنَّة بعدَ الأنّة ، وظمأ الهَواجِر ، فى شهرٍ ناجر . فكَرُّوا فبكَّروا . عَلِموا فسَلَوا من العِقال ، وتركوا أعناقاً لحَمْلِ الأثقال . رَجَوْا فنجَوْا ، وبَنَوْا فعلَوْا ، ومهَّدُوا فرَقَدُوا ، وعَمِلوا فوجَدُوا .

وذكرتُ بهذا الفصلِ حديثَ أبى هُريرةَ قال : قال لى رَسُولُ اللهِ عليه السلام : « يا أبا هُريرة ألا أُرِيكَ الدُّنيا جَمْعاءَ بما فيها ؟ قلتُ بَلَى يا رَسُولَ الله . فأخذَ بيَدِى ، وأتَى وادِيًا مِن أودِيةِ المدينة ، فإذا مَزْبَلةٌ فيها رُءوسٌ وعَذِراتٌ فى خِرَقٍ وعِظام ، ثم قال : يا أبا هُريرَة ، هذهِ الرُّءوسُ كانَتْ تَحرِصُ كحِرصِكُم ، وتَأمُلُ آمالَكُم ، ثمّ هىَ اليومَ عِظامٌ بلا جِلْد ، ثم هى صائِرةٌ رَمادًا . وهذهِ العَذِراتُ ألوانُ أطعمتِهم اكتَسَبُوها مِن حيثُ اكتَسَبُوها ، ثم قذَفُوها مِن بُطونِهِم ، فأضحَتْ والناسُ يتحامَوْنَها . وهذهِ الخِرَقُ البالِيَةُ كانت رِياشَهم ولِباسَهم ، أصبحَتْ والرِّياحُ تُصفِّقُها . وهذهِ العِظامُ عِظامُ دَوابِّهم التى كانوا يَنتَجِعون عليها أطرافَ البِلاد . فمَنْ كانَ باكِيًا على الدُّنيا فليَبْكِ ! » قال : فما بَرِحنا حتّى اشتَدَّ بُكاؤنا .

ووقفَ سُقراطُ على كَسَّاحٍ وقد خرجَ من الحُشِّ بكُساحةٍ[1] فقال : يا أهلَ أثينا ، هذا الذى كنتم تُغلِقُون عليهِ الأبواب ، وتُقيمونَ لحِفظِهِ الخُزّان ، وكانَتْ شهَواتُكم تَستَخدِمُ عُقولَكم فى إعدادِه ، واليومَ نفوسُكم آنِفَةٌ منه ، وطِباعُكم نافِرَةٌ عنه !

فُصولٌ له فى الذَّمّ وبعضِ ما تقدَّم

فصل : فُلان غَوْرُه أقرَبُ قَرِيب ، وقَلْبُه مَوْرُودُ القَلِيب ؛ فسَرائرُهُ

(١) فى الأصل : من الجسر بكساد .

مَكشوفة ، ودَخيلَتُه مَعرُوفة ؛ كِتمانُه إخبار ، وتَدْبيرُه إدبار ، رأيُه وَرَاء ، وساحتُه عَراء[١] . حِسُّه هامِد ، وفَهْمه جامِد . لا يَعرِفُ الرُّشْدَ مِنَ الغَيّ ، ولا يُفرِّقُ بينَ التَّقْبيل والكَيّ . طَلَلٌ بال ، لا يَخطُر على بال . الشمسُ عنده سُهَى ، والحُمْقُ نُهَى . لا يَعلَمُ راسُه ، مِن أينَ أنفاسُه ؛ ولا يَدرِى دِماغُه ، أينَ أصداغُه .

فصل : هَمُّهُ جَوازُ يَوْمِه ، وحَلاوَةُ نَوْمِه . أعلَى هِمَّتِه ، إرجالُ جُمَّتِه ، واعتِدالُ عِمَّتِه ؛ وأسرُّ سُرورِه ، تَناهِى قُدوره ، وتَرويقُ خُمُوره . أعداؤه سِمانٌ ، فى أمان ؛ وأولياؤُه فى هُزَال ، وانتظارِ النَّكَال . حَسَنُ الظنِّ بالزَّمان ، وضُروبِ الحَدَثان . رَائِحُ القَرائِح ، ساكِنُ الجوَارِح . مَسرُورٌ مَغرُور . ثانى العِطْفِ عن الناصِح ، مُتَعامٍ عن الأمرِ الواضِح . مُستَغنٍ بِعَبْدِه ، عن جُنْدِه . مُتشاغِلٌ بالأنياب الطاحِنَةِ فى فَمِه ، عن الأنيابِ الوالغةِ فى دَمِه . يَنامُ عن مُشهِراتِ الأنام ، وعن جَبِّ الغارِبِ والسَّنام . فِكرَتُه ساهِيَة ، وخَواطِرُه لاهِيَة ، وقَواعِدُه واهِيَة ، حتى تَبْغتَه الدَّاهِيَة .

فصل : يَجُود الجُلْمود ، ولا يَجُود ، ويَعُودُ إلى إثمارِه يابِسُ العُود ، وهو لا يُبدِى ولا يُعِيد . كِيسُه مُغْلَق ، وبَنانُهُ مُطبَق ، ودارُه سَمْلَق ، وجَيْشُه مُمْلِق ، وميزانُه حَبيسٌ لا يُطلَق . كِفتاه[٢] كَكَفَّيْه لا تُذيبُهما[٣] النار ، ولا يَعرفانِ الدِّرْهمَ ولا الدِّينار . وأكياسُه كالنَقِد ، قد خنَقَتْها العُقَد . يَدُه حافِرٌ وَقَاح ، وقُفْلُه ليسَ له مِفتَاح . تَمرُّ الأيام ، ولا يُشَمُّ له طَعَام . لو مَلَكَ طُوفانَ نُوح ، لم يَسْمحْ منه بشَربةٍ لظمآنَ مَجْروح .

(١) رسم الجملة فى الأصل : وشاهه غراء .

(٢) فى الأصل : كفتيه . (٣) فى الأصل : تذيبها .

فصل : هوَ يومَ المُطاعَنة ، وَلَدُ الملاعنة . لا حَسَبَ يُقاتِلُ عنه ، ولا نَسَبَ يَستحى منه . يَرَاعةٌ تَرْعَد ، وتَقُوم وتَقْعُد . إذا الحَرْبُ دَعَتْ أبطالَها ، وزُلزِلَتْ الأحشاء زِلزالَها ، نَخَبَ مابينَ جَنبَيْه ، وغابَ السَّوادُ[1] مِن عَيْنَيْه . مَهزمَةٌ لجنُودِه ؛ ومَهدَّةٌ لعُدَّتِه وعَدِيدِه . يُوسِعُ أعذارَ الفِرار ، ولا يَرَى على الجُبَنَاءِ مِن عار . بَيْنَاهُ[2] فى أوَّلِ الرَّعيلِ ضارِب[3] ، إذا به وَرَاءَ الساقَةِ هارِب . يَزحَفُ عندَ الزَّحْف ، إلى خَلْف ، ويَرُوعُه الواحِدُ وهوَ فى ألف . لو كانَ سُورَ مدينةٍ لَسَار ، ولو رُبِطَ إليه الطُّورُ لطَار . إنَّ هذا فى الحربِ من بَنِى العَنْبَر ، وَأَدْهَشُ مِن مُسْتَطْعِمِ الماءِ على المِنْبَر . إذا ثارَ القَتَام ، سَقَط من كَفِّه الحُسَام .

(وخَبَرُ بَنِى العَنْبَر ، أشهرُ مِن أنْ يُذكَر ، وقُرَيْظٌ منهم ، ولمّا استَنْجَدَهم فلم يُنْجِدُوه قال :

لَكِنَّ قَوْمِى وإنْ كانوا ذَوِى عَدَدٍ ... لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فى شىءٍ وَإنْ هانا

يَجزُونَ مِنْ ظُلْمِ أهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً ... وَمِنْ إساءَةِ أهلِ السُّوءِ إحسانا

كأنَّ رَبَّكَ لم يَخلُقْ لِخَشْيَتِه ... سِوَاهُمُ مِنْ جميعِ النّاسِ إنسانا

ومُسْتَطعِمُ الماءِ على المِنْبَرِ خالدٌ القَسْرِىُّ عامِلُ هِشامِ بنِ عبدِ الملكِ على العراق . دَهِشَ يومَ الجُمعَةِ فى حَرْبِ الخَوارِجِ وهو على المِنبَرِ، فقال : أطعِمُونى ماءً ! فقِيلَ فيه :

هتَفتَ بِكلِّ صَوْتِكَ أطْعِمُونى ... شَرَاباً ثُمَّ بُلْتَ على السَّرِيرِ

فصل : أضرَمَها[4] على الأنام ، على قَدِيمِ الأيّام ، العَصَبيَّةُ فى الجاهِليَّةِ

---

(١) فى الأصل : السودان . (٢) كذا ولعلها : بينا هو .
(٣) فى الأصل : يضرب . (٤) فى الأصل : أضرها .

والإسلام . فما لهذا السلطان ، وخراب الأوطان ! والعصبيّة تُفسِدُ بينَ الأولياء ،
وتكثر فى الأدعياء . وأبو نُواس كانَ أشدَّهم فيها قولا ، وهو قِنٌّ مَوْلى ،
تعصّبَ لليمنِ على مُضر لكونِ سَعْدِ العَشيرةِ مِنَ اليمن وهُمْ مِن مَواليهِ ، فهجا
قبائلَ مُضر ، وغضّ مِنْ قُرَيْش ، هذا وهو مَوْلًى مُلْصق ، وليستْ سَعْدُ العَشيرةِ
٥ له بعَشيرة ، بل لها منه الجَريرة .

سُلْطَانٌ يَشْتَرِى بدينِهِ ودَمِهِ ، رِضَا ابنِ عَمِّه . خاسِرُ التَّجْرِ ، مَحْرومُ الأجْر .
لا يُساوى بين أهلِ القِبْلَةِ وهم سَوَاء ، وَلَا يَتَكافأ عنده المُسْلِمُونَ وهم عندَ [الله]
أكفاء . وجِبلَّةُ التّفاوتِ أفاتَتْ جِبلَّةَ الرُّشْد ، وحَمِيَّتُه أحمَتْ عليهِ دارَ الخُلْد .
تعَصُّبٌ جاشَتْ له صُدُورُ الجيْش ، وتَكَدَّرَ بهِ صَفاءُ العَيْش . والمُساعَدَةِ فى
١٠ العَصَبيةِ طَارَتْ الرُّءوسُ والسَّواعِد ، وتهدَّمَتْ الذُّرَى والقَوَاعِد ، وَحالَفتْ
رَبيعَةُ الأَباعِد .

فصل : قد يَتَسَمَّى بوزيرٍ مَنْ شُغْلُه الهَمُّ والزِّير . يُعْجِبُهُ اللَّهْو ، ويَغلِبُه
السَّهْو . دَمارُ مَنْ [سَكَنَ] إليه ، وبَوَارُ مَن عوّلَ عليه . إن دَبَّرَ أَدْبَر ، وإنْ
ترَكَ هَلَكَ . خِدْنَ لَوَاعِب ، وزيرُ كَوَاعِب . لَيْلُه ناعِس ، ونَهارُه بالِس . لم
١٥ يَعْلَقْ به مِنَ الوَزَارة إلّا [١] حُسْنُ الشَّارة ، ورُكوبُ الهماليجِ [٢] المسْيَارة ،
وشِدَّةُ الإعجابِ ، والدُّخُولُ على سُلطانه بلا حِجاب ، والأكلُ بملءِ فيه ، هذا
جميعُ ما فيه ، حتى إذا طرقتْ السَّرَايا ، وسِيقَتْ السَّبَايا ، وَنفرَ النَّافِر ، ٨٣
وضجَّ البادِى والحاضِر ، ونزَع ثُباتُ [٣] الأجناد ، فتفرّقُوا فى البلاد ، فُزِعَ
إلى الوَزِير ، فى وَجْهِ التَّدْبير ، فكانَ جوابُه دُمُوعَه ، وصَوابُه هُلوعَه ، فحينئذٍ

(١) فى الأصل : إلى .
(٢) فى الأصل : المهاليج .
(٣) فى الأصل : تقاب .

دارَتْ الدّائرة، واضطرَمتْ النائرة، وانصرَمتْ الدُّوَل، وتبدَّلت الحلَل.

فصل: كاتبٌ ما عرَفَ قطّ، كيفَ البرْيَةُ والقطّ، ولا نسَخ قطُّ سطرا، إلا مَسَخ منه شطرًا. ألفاظه مَلْحُونة، ومَعانيه مَلْفُونة، ومَقاصده خفيّةٌ مَكنُونة، وحُروفُه مَطمونة. إنْ تهجّى هجَا، وإنْ تكلّم شجّ وشجَى. ألفاتُه سُجُود، ولاماتُه رُقود، ومِيماتُه عُقَدٌ لا عُقُود، وقافاتُه واوَت، ونوناته راءات. يرْفعُ بالنّواصِب، ويُكثر[1] النُّقط الكواذب، ويُعْمِى عينَ المعنى الجليّ، ويُخاطبُ العدُوَّ مُخاطبَةَ الولىّ. وتقرُّ كُتبُه بما فيها مِنَ الفَسَاد، بأنَّه قُرَّةُ عُيونِ الأعداءِ والحُسّاد.

فصل: ولايتُهُ القضاء، مِنْ سُوءِ القضاء. جائرٌ حائر. إن جارَ فعَنْ تعمُّد، وإن حارَ[2] فعَنْ قِلّةِ تعهّد. لَيْلُه مُنْتَشٍ، ونَهارُه مُرْتَشٍ. تُعْجبُه العَيْنُ فى النِّقاب، ولا يُفكّر فى العِقاب. إذا رأى الأمْرَدَ تمرّدَ على خَصْمِه، ومالَ عليهِ بحُكْمِه. يُزْرِى باختيارِ سُلْطانه، ويستخِفُّ بفُقهاء زمانِه. يجُورُ فى نَظَرِه المقْسُوم، ويَبصُقُ فى وجهِ الخُصُوم، ويرْكُلُهم برِجْلِه، ويَلْطِمهم بنَعْلِه.

فصل: إخوانٌ أخْوَنُ مِن السَّراب للعَيْن، ومِنْ أهْلِ الكُوفَةِ للحُسَيْن، وأشَدُّ مِن طالبِ دَيْن، على صِفْرِ اليَدَيْن. ليسَ فيهم نَفْعٌ ولا دَفْع، إن استَنصَرْتَهم خذَلوك، وَإن سُئِلوا إسلامَكَ بَذَلوك.

فصل: تبَسَّمْ للعَدُوِّ العابِس، وَلِنْ لِتخلُّقَ اليابِس. عامِلْ ظالمَكَ بالصَّبْر، واجعَلْ صَدْرَكَ كالقبْر، لا يَدْرى ما فيه رَحْمَةٌ أمْ نِقمَة، وَبلاءٌ أمْ نِعْمَة، حتّى تُمكِّنَكَ الوثْبَةُ عليه، فتُلّه لِجَبينِه ويَدَيْه.

---

(١) بعد كلمة «يكثر» بياض بقدر كلمة لعلها «من».

(٢) فى الأصل: خان.

ومن ترسيله

فَصْل له مِن رُقْعةٍ خاطَبَ بها المُظفّر بنَ الأفْطَس

كتبتُ وشَوْقى إلى شَرَفِ لُقياه، وشَيْمِ[1] سُقياه، شوقُ القارظَيْن إلى سكون وسكَنى، والقَيْسَيْنِ إلى لَيْلى ولُبنَى واعتلاقى بذِكْرِه اعتلاقُ مالكٍ بعَقيل، وقِفا نَبْكِ بالمَلِكِ الضِّلّيل، وبلالٌ بِشامةَ وطَفيل، واللهُ ببُلوغِ الأمَلِ خَيْرُ كَفِيل. وحالُ وَلِيِّهِ بالناحيةِ التى استقذرتُها حالُ مَن ذَهبتْ منه اللّذاذةُ والفُتاء، والشيخِ يَهدِمُه الشِّتاء. وقد رأيتُ طُوفانَ قُرطبَةَ يُقيمُ دَهرا، وإنما أقامَ طُوفانُ نُوحٍ شَهرا. وأمّا صيفُها فكما قال:

لم أستتِمَّ عِناقَه لِقُدومِه حتّى ابتدأتُ عِناقَه لِوَداعِهِ

وله من أُخرى:

لى رَغْبَةٌ إلى مَفاخِرِه، وتَطارُحٌ بينَ يَدَىْ مآثِرِه، وإدلالٌ على سَماحَةِ سَجاياه، وتَحامُلٌ على احتمالِ عُلياه. وذلك أنَّ شيخًا يَفنًا قَصَد قِبابِلى، فبكَى حتّى بَلّ بفَضْلِ دُموعِه رِدائى، ومَنَعه الشَّوْقُ بشَجاه، مِنَ الكلامِ على ما ارتجاه. ثُمّ ذَكَر أنه كاسِبُ نُسيَّات، وأبو بَنِينَ وبُنيَّات، فنسَبْتُهُ فقال: أنا أبو جَعْدَةَ نَهشَل، وذَكَرَ مَوْلانا المُظفَّرَ فوصَف خيرًا كثيرًا هو أكثرُ منه، ودَعا بخيرٍ أجابَه اللهُ عنه، ووَصَف أنّ بُغاةً بَغَوْه، وحسَدَةً آذَوْه، وتفَضّل مِن ذُنُوبٍ قَرَفُوه بها، ومولاى أعلمُ بِصِدْقِها مِن كَذِبِها. ولم يُظهِر حِرْصًا إلّا فى المِيتةِ الأهليّة، والتُّربةِ الوَطَنيّة. فبكَى — عَلِمَ اللهُ — مع باك، وشَكا منّى إلى شاك؛ وذُو الشَّكْوَى يَرحَمُ الشَّكْوَى، لعلمِه بمَرارَةِ

(١) رسم الكلمة فى الأصل: شم.

البَلْوى . ولا شكَّ أنه سيبلغه تفضُّلُ المُظَفّرِ بالالتفاتِ إلى ذِكرى ، والعنايةِ ببعضِ أمْرى ؛ فلا يظُنّ أنّ ذلكَ باستحقاقى ، وإنْ رقّانى مِن الشَّرفِ هذهِ المَرَاقى ، ومَنْ يَسمَعْ يَخَلْ ، وما كُلُّ ذِى سِلاحٍ بَطَل . وقد تَاطفتُ له بإذنِ اللهِ فى القَوْل ، وبَرِئتُ إليه تعالَى مِن القُوّةِ والحَوْل ، ووقَفْتُه على رَأْى المُظَفّرِ المُوفّق ، وحُكْمِه العَدْلِ المُحقق . وبُودّى لو تكفّلتُ[1] بآماله ؛ وجمعتُ بينَه وبينَ أطفاله ، فهو فى عُقودِ[2] لُبَد ، وهامةُ اليوم أو الغد ؛ إلّا أنّى — أيّده الله — لا أُوثِرُ مُرادى على مُرادِه ، ولا أُشارِكُه فى العِلْمِ بأهلِ بلادِه ؛ إلّا أنْ يتفضّلَ بالأحسنِ الأجمل ، علىّ وعلى أبى جَعْدَةَ نَهشَل ، فيَعودَ — أيّده الله — بفَضيلةِ الإيثار ، ويَكتَسى[3] فى الناسِ أطيبَ الأخبارِ والآثار . ولقد هَجمتُ فى العِنايةِ بما لا أعلمُ ثِقةً بما أعْلم ؛ وهو المُتطوِّلُ إن شَفَع ، والمعذُورُ إن دَفَع . والجوابُ عَلَى هذهِ السُّطور ؛ المُحتويةِ[4] عَلَى هذه الأُمور ، بالأقْوالِ والأفعال ، مِن كَمالِ الإحسانِ والإفْضال .

فأجابَه المُظفّرُ برُقعةٍ من إنشاء الوزيرِ أبى مَروانَ بنِ قُزْمان ، قالَ فيها :

وردَ كتابُكَ المبتدَأُ خِطابُه مِن الشِّعرِ بما هو السِّحرُ الحَلال ، والمُصدَّرُ مِن القَريضِ بما شَهِدَ لك بالجلال . لو قصدَ الطائيّانِ قَصْدَه لأَجْبَلا ، أو حَذا الحَمّادانِ حَذوَه لأدْبرا فيه وما أقْبلا . لم تَدَعْ فيه فنًّا مِن الحِكمةِ إلّا أهْدَيته ، ولا مَعنًى لَطيفاً إلّا أبديته ، ولا نوعاً مِن الأدبِ إلّا جَلَبتَه ؛ ولا غَريباً من المَثلِ إلّا ضربتَه . فلِلّه بِلادٌ غذاكَ هَواؤُها ، ورُؤَساء تَطابقَتْ عليكَ أهواؤُها .

(١) فى الأصل : تكلفت .

(٢) رسم الكلمة فى الأصل : عقدد ولعلها ما أثبتناه .

(٣) فى الأصل : ويكسى . (٤) فى الأصل : المحوية .

لقد بانَ فضلُهم على أهلِ الزمان ، كما ظهرَ تبريزُك فى هذا المَيْدان . ومَن[1]
انتحلَ الأبيات ؛ فبمثلِ شعرِك فَلْيات ، وهَيْهات ! ما أبعدَ الأرضَ مِن السماء !
ورأيتُك قد شفعتَ القريضَ بشفاعة ؛ وقرَنته برغبةٍ أعطتْك مقاليدَ
البلاغةِ والبراعة . وأسعفتُك فى الشَّيخِ اليَفن ، والأشيبِ البَدَن نَهْشل .
٥ فليُشرِعْ بالإقبالِ إلى بلدِه ، وليلحقْ بأهـلِه وولدِه ، وليأتِ إليهم ذا ألانا ،
وليشكُرْنا سِرًّا وإعلانا . واللهُ المانُّ بك بردِّه إلى وطنِه وأهليه ، يبلغكَ
ما ترتجيه ، ويعيدُ حالَك إلى عهدِها ، والجمعِ بينَك وبينَ الطبقةِ التى كنتَ
واسطةَ عقدِها .

ولابنِ شرَفٍ مقاماتٌ عارضَ بها البديعَ فى بابه[2] ،

١٠ وصبَّ فيها على قالبه

مِنها مقامةٌ فيها بعضُ طُول ، لكنَّه غيرُ مَمْلول ، آخِذةٌ بطرَفٍ مُستطرَفٍ
مِن أخبارِ الأُدَباء ، وذكرِ الشِّعرِ والشُّعَراء .

قال[3] : جاريتُ أبا الريَّانِ فى ذِكرِ أهلِ النِّظام ، ومَنازلِهم فى الجاهليَّةِ
والإسلام ، فقالَ عددُ الشُّعراءِ أكثرُ مِن الإحصاء ، وأشعارُهم أبعدُ من شُقَّةِ
١٥ الاستقصاء . قلت : لا أُعنتُك بأكثرَ مِن المشهورينَ مِثلِ الضِّلِّيلِ والقَتيل ،
ولَبيدٍ وعَبيد ، والنَّوابغِ والعُشْى ، والأسودِ بنِ يَعفُر ومَن سِواه من العُمْى ،
وابنِ الصِّمَّةِ دُرَيد ، والرّاعى عُبَيْد ، وزيدِ الخَيْل ، وعامرِ بنِ الطُّفَيْل ،

---

(١) فى الأصل : وما . (٢) فى الأصل : باله .
(٣) نشر هذه المقامة حسن حسنى عبد الوهاب باشا وهى ضمن « رسائل البلغاء » التى جمعها الأستاذ محمد كرد على (طبع مصر سنة ١٩١٣) ، كذلك نشرها الخانجى (مصر سنة ١٩٢٦) .

والفَرزدَقِ وجَرير ، وجَميلٍ وكُثَير ، وابن جَنْدَل وابن مُقْبِل ، وجَرْوَل الأَخْطَل ، وحسّانَ فى أهاجيه ومِدَحه ، وغَيْلانَ فى مَيَّته وصَيْدَحِه ، والهُذَلىِّ أبى ذُؤَيْب ، وسُحَيم ونُصَيْب ، وابنِ حِلِّزَةَ الوائلىِّ ، وابنِ الرِّقاعِ العامِلىِّ ، وعنترةَ العَبْسِىِّ ، وزُهَيرٍ المُزَنىِّ ، وشُعَراءِ فَزَارَة ، ومُفْلِقِى بَنى زُرَارَة ، وشعراءِ تَغلِبَ ويَثْرِب ، وأَمْثَالِ هذا النَّمَط الأَوْسَط ، كالرَّمّاحِ والطِّرِمّاح ، والطَّثْرِىّ والدُّمَيْنى ، والكُمَيتِ الأَسَدِىّ ، وصَريعِ الأَنْصارِىّ ، ودِعْبِلٍ الخُزَاعى ، وابنِ الجَهْم القُرَشى ، وحَبيبٍ الطائىّ ، والوَليدِ البُحْترىّ ، وابنِ المُعتزِّ العَباسىّ ، وأَبى نُواسٍ وابنِ الرُّومىّ .

ومِنَ الطبقَةِ المُتأخِّرةِ فى الزَّمان ؛ المتقدِّمَةِ فى الإِحسان ، كأبى فِراسِ بن حَمْدان ، والمتنبّى بنِ عَبْدان ، وابن حَدَّار المِصرىّ ، وابنِ الأحنفِ الحَنَفىّ ، وكُشاجِم الفارسىّ ، والصَّنوبَرِىّ الحلَبىّ ، ونَصْرٍ الخُبزَرُزّى ، وابنِ عَبْدِ ربِّه القُرطبىّ ، وابنِ هانىءٍ الأندلُسىّ ، وعلىّ بن العباس الإيادىّ التونسىّ ، والقسطلّىّ .

قال أبو الرّيان : لقد سَمَّيتَ المشاهير ، وأبقيتَ الكَثير ؛ قلتُ : بلى ، ولكن ما عندك فيمن ذكرتُ ؟

قال : الضِّلِّيلُ مُؤَسِّسُ الأَساس ؛ وبُنيانُه عليه الناس . كانوا يقولون « أَسِيلَةُ الخدّ » حتى قال « أَسِيلَةُ مَجْرَى الدَّمْع » . وكانوا يقولون « تامّةُ القامَة وطويلةُ القامة ، وجَيْدَاء وتامّةُ العُنُق » ، حتى قال « بَعيدَةُ مَهوَى القُرْط » . وكانوا يقولون فى الفَرَسِ السابقِ « يَلْحَقُ الغزالَ والظَّليم » وشِبْهَه ، حتى قال « قَيْدُ الأَوابِد » . ولم يَكُن قبلَه مَن فَطِنَ لهذه الإشارات والاستعارات غيرَه فامتثلوه بعدَه . وكانت الأشعارُ قبلُ سواذِج ، فبقِيَتْ هذه جُدُداً وتلك نَواهِج[1] ؛

(١) فى الأصل : جذذا ... نهراج .

وكلُّ شعرٍ بعدُ ما خلاها فغيرُ رائقِ النّسْج ، وإنْ كانَ مُستقيمَ النّهج .

وأمّا طَرَفة فلو طالَ عمرُه ، لطالَ شِعْرُه ، وعلا ذِكْرُه . ولقد خُصَّ بأوفرِ نَصيبٍ مِن الشِّعْر ، على أيسرِ نَصيبٍ مِن العُمْر ، فملأ أرجاءَ ذلك النصيب بصُنوفٍ مِن الحِكْمة ، وأوصافٍ مِن عُلو الهِمّة ، والطَّبْعُ مُعلِّمٌ صادِق ، وجَوادٌ سابِق .

وأمّا الشيخُ أبو عقيل فشِعْرُه يَنطِقُ بلسانِ الجزالة ، عن جَنانِ الأصالة ، فلا تَسمعُ له إلاّ كلاماً فصيحاً ؛ ومَعنًى مُبيناً صَريحاً ؛ وإن كانَ الشَّيخُ والوَقار ، والشَّرَفُ والفَخار ؛ لهادياتٍ في شِعْرِه ؛ وهي دلائلُه ؛ قبلَ أن يُعلَم قائلُه .

وأمّا العَبْسيُّ فمُجيدٌ في أشعاره ؛ ولا كمُعلَّقته ، فقد انفردَ بها انفرادَ سُهَيْل ، وغبَّرَ في وجُوه الخَيْل ، وجمَعَ فيها بينَ الحلاوةِ والجزالة ، ورِقّةِ الغزَلِ وَعِلْظَةِ البَسالة ، وأطَالَ واستطَال ، وأمِنَ السآمة والكَلال .

وأمّا زُهَيْر : فأيُّ زَهْرٍ بين لَهَواتِ زُهَيْر ، حِكَمُ فارِس ، ومَقاماتُ الفَوارِس ، ومَوَاعِظُ الزُّهاد ، ومُعْتَبَراتُ العُبّاد ، ومِدَحٌ تُكسِبُ الفَخار ، وتَبقَى بَقاءَ الأعصار ، ومُعاتَباتٌ مَرّةً تَحسُن ، ومَرّةً تَخشُن ، وتارةً تَكون هَجْوًا ، وطَوْرًا تَكادُ تَعودُ شَكْوى .

وأمّا ابنُ حِلّزة : فسهّلَ الحزُون ، قامَ خَطيبًا بالمَوْزون ، والعادةُ أنْ يَسْهُلَ شَرْحُ الشِّعْرِ بالنّثر ، وهذا سهّلَ السَّهْلَ بالوَعْر ، وذلك مِثلُ قوله :

أَبْرَمُوا أمرَهم عِشاءً فلمّا ... أصبحوا أصْبَحَتْ لهم ضَوْضاءُ

مِنْ مُنادٍ وَمِنْ مُجيبٍ وَمِنْ ... تَصْهالِ خَيْلٍ خِلالَ ذاك رُغاءُ

فلو[1] اجتَمَع كلُّ خَطيبٍ ناثِر ، مِن أوّلٍ وآخِر ، يَصِفُون سَفرًا نَهَضوا

(١) في الأصل : فلما .

بالأسحار ، وعَسْكَرًا تُفادِي بالنُّهُوضِ إلى طَلَبِ الثار ، ما زادوا على هذا إن لم يَنْقُصوا منه ، ولم يُقصِّروا عنه . وسائرُ قصيدته فى هذا السِّلْك ؛ شِكايَةٌ وطِلابُ نَصَفة ، وعِتابٌ فى عِزَّةٍ وأَنفة ، وهو من شُعَراءِ وَائِل ، وأحَدُ أَسِنَّةِ هاتيكَ القبائِل .

٥ وأمَّا ابنُ كُلْثُوم : فصاحِبُ وَاحِدَة ، فلا زائِدَة ، أَنْطَقَه بها عِزُّ الظَّفَر ، وهزَّه فيها جِنُّ الأَشَر ، فَقَعقعتْ رُعُودُه فى أرْجائِها ، وَجَعجعتْ رَحاهُ فى أثنائِها ، وجَعَلَتْها تَغلِبُ قِبْلَتَها التى تُصَلِّى إليها ، ومِلَّتَها التى تَعْتَمِدُ عليها ، فلم يَترُكُوا إعادَتَها ، ولا خَلَعُوا عِبادَتَها ، إلَّا بعدَ قولِ القائل :

أَلْهَى بَنِى تَغْلِبٍ عن كلِّ مَكْرُمَةٍ ... قَصِيدَةٌ قالَها عَمْرُو بنُ كُلْثُومِ

١٠ على أنَّها من القَصَائدِ المُحَقَّقات ، وإحدَى المُعلَّقات .

وأمَّا النابِغَةُ زِياد : فأشعارُه الجِيادُ لم تَخْرُجْ عن نارِ جَوانِحِه حتى تَناهى نُضْجُها ، وَلا قُطِعَتْ مِن مِنْوالِ خَواطِرِه حَتّى تَكاثَفَ نَسْجُها ، لم تُهَلْهِلْها مَيْعَةُ الشَّباب ، ولا وَهاءُ الأسباب ، ولا لُؤْمُ الاكتِساب ؛ فشِعْرُه وسائِطُ سُلُوك ، وتِيجانُ مُلُوك .

١٥ وأمَّا النَّابِغَةُ الجَعْدِى : فَنَقِيُّ الكَلام ، شاعِرُ الجاهِلِيَّةِ والإسْلام ، واستحسَنَ شِعْرَه أفصَحُ الناطِقِين ، ودَعا له أصدَقُ الصادقِين ؛ وكانَ شاعرًا فى الافتخارِ والثَّناء ، قَصِيرَ الباع ، لِشَرَفِه ، عن تَناوُلِ الهِجاء . وكانَ مَغْلُوبًا فيه فى الجاهليَّة ، وطَرِيدَ لَيْلَى الأَخْيَلِيَّة .

وأمَّا العُشْىُ بأَجْمَعِهِمْ : فكلُّهُمْ شاعِرٌ ، ولا كَمَيْمُونِ بن قَيْس ، شاعِرِ ٢٠ المَدْحِ والهِجاء ، والبأسِ والرَّخاء ، والتَّصرُّفِ فى الفُنُون ، والسَّعْىِ فى السُّهُول

والحُزُون . نَفَّقَ مدحَه بنَاتِ المُحَلَّق ، وكانَ فى فَقْرِ ابنِ المُذَلَّق ، وأبكَى هَجْوُه علقَمَة ، كما تَبْكِى الأَمَة .

وأمّا الأسودُ بن يَعْفُر : فأشعرُ الناسِ إذا ندَبَ دَوْلَةً زالَتْ ، أو بَكَى حَالَةً حالَتْ ، أو وصَفَ رَبْعًا خَلا بعد عُمْرَان ، أو دارًا درَسَتْ بعدَ سُكَّان ، فإذا سَلَكَ [غيرَ] [1] هذهِ السَّبِيل ، فهوَ مِن حَشْوِ هذا القَبِيل ، كَعَمْرٍو وزَيْدٍ ، وسَعِيدٍ وسَعْد .

وأمّا حسّان : فقد اجتثَّ [2] بَوَاكِرَ غسّان ، ثم جاءَ الإسلام ، وانكشَفَ الإظلام ، فحَاجَشَ عن الدِّين ، وناضَلَ عن خاتَمِ النَّبِيِّين ، فشَعَرَ وزاد ، وحسَّنَ وأجاد ، إلّا أنَّ الفضْلَ فى ذلك لربِّ العالمين ، وتَسْدِيدِ الرُّوحِ الأمين .

١٠ وأمّا دُرَيْدُ بنُ الصِّمَّة : فَصِمَّةُ صِمَمَ ، وشاعِرُ جُشَم ، وغزِلُ [3] هرِم ، وأوّلُ مَن تغزَّل فى رِثاء ، وهزَلَ فى حُزْنٍ وبُكاء ، فقالَ فى مَعْبَدٍ أخيه ؛ قصيدَته المشهورةَ يَرْثِيه :

« أَرَثَّ جَدِيدُ الحَبْلِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ »

وهى مِن شاجِيَاتِ النَّوائِح ، وباقِيَاتِ المَدائح .

١٥ وأمّا الرّاعى عُبَيْد : فَجُبِلَ على وَصْفِ الإبِل ، فصارَ بالرّاعى يُعْرَف ، ونُسِيَ مَالَه مِنَ الشَّرَف .

وأمّا زَيْدُ الخَيْل : فَخَطِيبُ سَجَّاعَة ، وفارِسُ شُجَاعَة ، مَشْغُولُ بذلك ، عمّا سِواهُ مِنَ المَسالِك .

وأمّا عامِرُ بنُ الطُّفَيل : فشاعِرُهم فى الفَخَار ، وفى حِمايَةِ الجار ، وأوصَفُهم لِكَرِيمة ، وأنعَتُهُمْ لحميدِ شِيمَة .

٢٠

(١) هذه الزيادة تقتضيها صحة السياق (٢) كذا ولعلها : اجتنى .
(٣) فى الأصل : عزل .

وأمّا ابنُ مُقْبِل : فَقَدِيمٌ شِعْرُه ، وصَلِيبٌ نَجْرُه ، ومُغْلًى مَدْحُه ، ومُعَلًّى قِدْحُه .

وأمّا جَرْوَل : فَخَبِيثٌ هِجَاؤُه ، شَرِيفٌ ثَنَاؤُه ، صَحِيحٌ بِناؤُه ، رَفَعَ شِعرُه مِنَ الثَّرَى ، وحطَّ مِنَ الثُّريَّا ، وأعادَ بلطافة فِكْرِه ، ومَتَانَة شعرِه ، قَبِيحَ الألقاب ، فَخْرًا يَبْقَى على الأحْقَاب ، ويُتَوَارَثُ فى الأعقَاب . ٥

وأمّا أبُو ذُؤَيْب : فَشَدِيدُ أَسْرِ الشِّعْر حَكِيمُه ، شُغْلُهُ فيه التَّجْرِيبُ حَدِيثُه وقَدِيمُه ، وله المَرْثِيَةُ النَّقِيَّةُ السَّبْك ، المَتِينَةُ الحَبْك ، بَكَى فيها بَنِيه[1] السَّبعة ، ووصَفَ الحِمَارَ فطوّل ، وهى التى أوّلُها :

« أَمِنَ المنونِ وَرَيْبِهِ تَتَوَجَّعُ »

وأمّا الأَخْطَلُ : فَسَعْدٌ مِنْ سُعُودِ بنى مرْوَان ، صَفَتْ لهم مِرآةُ فِكْرِه ، ١٠ وظَفِرُوا بالبديعِ مِن شِعْرِه ، وكانَ باقِعةَ مَنْ هاجاه ، وصاعِقةَ مَنْ حاجاه[2] .

وأمّا الدّارِمِيُّ هَمَّام : فَجَوْهَرُ كلامِه ، وأَغْرَاضُ سِهامِه ، إذا افتخر بمَالِكِ ابنِ حَنْظَلة ، وبِدَارِمٍ[3] فى شرَفِ المنزِلة ، وأطوَلُ ما يكون مَدًى إذا تطاوَلَ اختيالُه[4] جَرِير عليه بقليلِه على كَثِيرِه ، وبصَغِيرِه على كَبِيرِه ، فإنّه يُصادِمُه حِينَئِذٍ بِبحرٍ مادٍّ ، ويُقاوِمُه بسَيْفٍ حادٍّ . ١٥

وأمّا ابنُ الخَطَفَى : فزُهْدٌ فى غزَل ، وحجْرٌ فى جَذَل[5] ، يَسبَحُ أوّلاً فى ماءٍ عَذْب ، ويَطِيحُ آخِراً فى صَخْرٍ صُلْب . كَلْبٌ مُنابِحة ، وكَبْشٌ مُناطِحة ، لا تَفُلُّ غَرْبَ لِسانه مُطاوَلَةُ الكِفاحِ ، ولا تُدْمِى هادِيَه مُداوَمَةُ النِّطاح ،

(١) فى الأصل : بنوه (٢) فى الأصل ماجاه .
(٣) رسمها فى الأصل : بدوام .
(٤) فى الأصل : اختيار ، ولعل الصواب ما أثبتناه .
(٥) رسم الكلمة حذل ، ولعلها ما أثبتناه .

جَارَى السَّوَابِقَ بمطيَّة ، وفاخَرَ غالبًا بعطيَّة ، وبَلَّغَتْه بلاغتُه إلى المُساواة ، وحملته جُرأتُه عَلَى المُجاراة[1] . والناسُ فيهما فريقان ، و بينهما عندَ قوم فُرقان .

وأمّا القَيْسانِ وطبقتهما : فَطبقةٌ عَشِقَةٌ تَوِقَة ، استحوذَتْ الصَّبابةُ على أفكارِهم ، واستفرغَتْ دواعِى الحُبِّ مَعانِىَ أشعارِهم : فكلُّهم مَشغولٌ بهَواه ، لا يَتعدّاه إلى سِواه .

وأما كُثَيِّر : فحَسَنُ النّسيبِ فَصيحُه ، لَطيفُ العِتابِ مَليحُه ، شَجِىُّ الاغترابِ قَريحُه ؛ جامِعٌ إلى ذلك رَقائقَ الظُّرَفاء ، وجَزالةَ مِدحِ الخُلَفاء .

وأما الكُمَيتُ والرمَّاح ، ونُصَيبٌ والطِّرمَّاح ، فشُعراءُ مُعاصِرة ، ومُناقَضاتٍ ومُفاخَرة ، فنُصيبٌ أمدحُ القَوْم ، والطِّرماحُ أهجاهم ؛ والرَّماحُ أنسبُهم نَسيبا ، والكُمَيْتُ أمسُّهم تَشبيبا .

وأمّا بَشّار بنُ بُرْد : فأوّلُ المُحدَثين ؛ وآخِرُ[2] المُخضرمين ؛ وممّن لَحِقَ الدولتَيْن ، عاشِقُ سَمْع ، وشاعِرُ جَمْع ، شِعرُه يَنفُق عندَ ربّاتِ الحِجال ، وعندَ فُحولِ الرِّجال ، فهو يَلِينُ حتّى يَستعطِف ، ويَقوى حتى يَستكشِف[3] ، وقد طالَ عُمْرُه ، وكَثُر شِعْرُه ، وطَمَا بَحْرُه ، ونَقَبَ فى البلادِ ذِكْرُه .

وأمّا ابنُ أبى حَفْصَة ، فمن شُعراءِ الدَّولتَيْن ، وممَّن حَظِىَ بالنِّعمتَيْنِ ، ووَصَل إلى الغِنَى بالصِّلتين ، وكان دَربَ المِقْوَل ، ذَرِبَ المِقْوَل ، والِدَ شُعَراء ، ومُنجِبَ فُصَحاء .

وأمّا أبو نُواس : فأوّلُ الناسِ فى خَرْمِ القِياس ، وذلك أنه تَرَكَ السِّيرَةَ الأُولَى ، ونَكَبَ عن الطَّرِيقةِ المُثْلَى ، وجَعَل الجِدَّ هَزْلا ، والصَّعْبَ سَهْلا ،

---

(١) فى الأصل . المجار (٢) فى الأصل : وأحد

(٣) فى الأصل : ينكسف ، والتصحيح عن نشرة الخانجى .

فهلهل المُسرَّد ، وبلبلَ المُنضَّد ، وخلخلَ المُنجَّد ؛ وترك الدَّعائم ، وبَنى على الطامي والعائم[١] ، وصادفَ الأفهامَ قد نكلتْ ، وأسبابَ العربيَّة قد تخلخلتْ وانحلّتْ ، والفصاحاتِ الصحيحةَ قد سُئمتْ ومُلّت ، فمالَ الناسُ إلى ما عرفوه ، وعَلِقتْ نفوسُهم بما ألِفوه . فتهادَوْا شِعْرَه ، وأغلَوْا سِعْرَه ، وشُغفوا بأسخفِه ، وكَلِفوا بأضعفِه . وكانَ ساعِدُه أقوى ، وسِراجُه أضوى ، لـكنه عرضَ الأنفق ، وأهدى الأوفق ، وخالفَ فشُهِرَ وعُرِف ، وأغربَ[٢] فذُكِرَ واستُطرِف . والعوامُّ تختار هذه الأعلاق ، وأسواقُهم أوسعُ الأسواق ، فشِعْرُ أبى نُواس ، نافقٌ عندَ هذهِ الأجناس ، كاسدٌ عند أنقدِ الناس . وقد فطِنَ إلى استضعافِه ، وخافَ من استخفافِه ، فاستدركَ بفَصيحِ طَرَدِه ، [٣]طرفًا [من] جِدّ اللّسانِ الأوّلِ وجَدَدِه[٣] . وهو مجدودٌ فى كثرةِ التّظاهُر ، على مَن غضَّ منه بالحقِّ الظاهر ، ليس إلاّ لخِفّـة رُوحِ المجُون ، وسُهولةِ الـكلامِ الضّعيفِ الملحون ، على جُمهورِ العَوام ، لا على خَصائص الأنام .

وأمّا صَرِيع : فـكلامُه مُرصّع ، ونِظامُه مُصنّع ؛ وجُملةُ شِعْرِه صَحيحةُ الأصُول ، مُصنّعةُ الفُصول ، قليلةُ الفُضول .

وأمّا العبّاسُ بنُ الأحنف فمعتزِلٌ بِهوَاه ، وبِمعْزِلٍ عمّا سِواه . رَفع نفسه عن المدحِ والهِجاء ، ووضعَها بين يدَى هوَاه منَ النِّساء . قدْ رقّقَ الشّـغفُ كلامَه ، وثقّفتْ قوةُ الطبعِ نظامَه ، فلَهُ رِقّةُ العُشّاق ، وحَوْكُ الحُذّاق .

وأمّا دِعْبِل : فمُدْبِرٌ مُقْبِلٌ ، اليومَ مَدْح ، وغدًا قَدْح ، يُجيـدُ فى

(١) فى الأصل : والقائم . (٢) فى الأصل : فأعرب .

(٣ — ٣) رسم هذه العبارة فى الأصل : طرفا حد اللسان وحده ، وفى رسائل البلغاء « حدوده » بدل « حده » ، وفى نشرة الخانجى : طرفا جذ اللسان الأول وحده .

الطريقتين ، ويُسيء في الخليقتين ، وله أشعارٌ في العصبيّة . وكان شاعرَ عُلماء ، وعالِمَ شعَراء .

وأمّا عليُّ بنُ الجهم : فرَشيقُ الفهم ، راشقُ السَّهم ، استوصَلَ شعْرُه الشُّرفاء ، ونادمَ الخُلفاء ؛ وله في الغزَل الرُّصافيّة ، وفي العِتاب الدّاليّة ، ولو لم ٥ يَكُنْ له سواهما ، لـكانَ أشعَر الناس بهما .

وأمّا الطّائيُّ حبيب : فمُتَكلِّفٌ إلّا أنّه يُصيب ، ومُتْعبٌ لـكنْ له مِن الراحةِ نَصيب . وشغْلُه المُطابَقةُ والتَّجْنيس ، جيدَ ذلك أو بيس ، جزْلُ المعانى ، مَرْصُوصُ المبانى[1] . مَدْحه ورِثاؤه ، لا غزَله وهِجاؤه ، طرَفا نَقيض ، وخُطَّتا[2] سَماء وحَضيض . وفي شِعْره عِلمٌ جمٌّ مِنَ النَّسَب ، وجُمْلة وافِرَةٌ من ١٠ أيّام العرَب . وطارَتْ له أمثال ، وحُفظَتْ له أقوال ، وديوانه مَقْرُوٌّ ، وشعْرُه مَتْلوٌّ .

قال ابنُ بسّام : أمّا صِفَتُه هذه لأبى تمّام ؛ فصِفَةٌ لم يَثْنِ عِطفَها حَمِيّة ، ولا تعلّقَتْ بِذَيْلِها عصَبيّة ، حتّى لو سَمِعَها حَبيب لاتّخذَها قِبْلَة ، واعتمَدَها مِلّة . فما آلَمَ[3] مَنْ أدَّبَ وإن أوْجَع ، ولا سَبَّ مَنْ صَدَقَ وإن أقذَع . ١٥ رجع .

وأمّا البُحتريّ : فلَفظُه ماءٌ ثجّاج ، ودُرٌّ رَجْراج ، ومَعناه سِراجٌ وَهّاج ، على أهْدَى مِنهاج . يَسْبِقُه شِعْرُه ، إلى مايَجيشُ به صَدْرُه ، يُسْرَ مُراد ، ولِينَ قِياد . إنْ شَرِبْته أرْوَاك ، وإن قدَحْته أوْرَاك . طَبْعٌ لا تَكلُّفَ يُعْيِيه[4] ، ولا العِنادُ يَثْنِيه ، لا يُمَلُّ كَثيرُه ، ولا يُسْتَكفُّ غزيرُه ، لم ٢٠ يَهْفُ أيّامَ الحُلم ، ولم يَصِفْ زمنَ الهرَم .

(١) في الأصل : « الهانى » . (٢) في الأصل : خطبا .

(٣) في الأصل : ألام ، وفي رسائل البلغاء والخانجى : لام . (٤) في الأصل : يعتيه

وَأمَّا ابنُ المُعْتَزِّ : فمِلِكُ النِّظَام ، كما هو مَلِكُ الأنام ، له التشبيهاتُ المثليّة ، والاستعاراتُ الشكليَّة ، والإشاراتُ السِّحْريَّة ، والعباراتُ الجهريَّة ، والتَّصاريفُ الصُّنوفيّة ، والطرائقُ الفنونيَّة ، والافتخاراتُ الملوكيَّة ، والهمّاتُ العُلويّة ؛ والغزَلُ الرائق ، والعِتابُ الشائقُ ، ووَصْفُ الحُسْنِ الفائق .

٥ وخيرُ الشِّعْرِ أكرمُه رِجالًا وشرُّ الشعرِ ما قال العَبِيدُ

٨٧| وأمّا ابنُ الرُّومى : فشَجَرَةُ الاختراع ، وثَمَرَةُ الابتداع . وله فى الهِجاء ، ما ليسَ له فى الإطراء ، فتح فيه أبوابا ، ووصَلَ فيه أسبابا ، وخَلَع منه أثوابا ، وطوّقَ فيه رِقابا ، تبْقَى أعماراً وأحقابا ، يطولُ عليها حِسابه ، ويُمْحَقُ بها ثوابُه . ولقد كانَ واسِعَ العَطَن ، لَطِيفَ الفِطَن ، إلاّ أنّ الغالِبَ عليه ضَعْفُ

١٠ المَريرة وقُوَّةُ المِرَّة .

وأمّا كُشاجِم : فحكيمٌ شاعِر ، وكاتِبٌ ماهِر ، له فى التشبيهاتِ غرائِب ، وفى التأليفاتِ عجائب ، يُجيدُ الوَصْفَ ويُحقّقه ، ويَسْبِكُ المعنى فيُرقِّقُه ويُروِّقُه .

وأمّا الصَّنَوْبَرىّ : ففَصِيحُ الكلامِ غريبُه ، مَلِيحُ التّشبيهِ عجيبُه ، مُسْتَعْمِلٌ لشَواذِّ القَوافى ، يَغسِلُ كُدْرَتَها بمِياهِ فَهْمِه الصَّوافِى . فيَجِلُّ

١٥ ويَدِقّ ، ويَعْذُبُ ويَرِقّ . وهو وحيدُ جِنْسِه فى صِفَةِ الأزهار ، وأنواعِ الأنوار . وكانَ فى بعض أشعارِه يَتخالَع ، وفى بعضِها يَتشاجَع . وقد مَدَحَ وَهجا ، وَسَرَّ وشَجَا ، وأعجبَ شِعْرُه وأطرَب ، وشَرَّقَ وغَرَّب . ومَدَحَ من أهلِ إفريقيَّةَ أميرَ الزَّاب جعفرَ بنَ علىّ ، مُنفِّقَ سِلَعِ الأدب ، فوصَلَه بألفِ دينار .

وأمّا الخُبْزَرُزِّىّ : فخَلِيعُ الشِّعْرِ ماجِنُه ، رائقُ اللفظِ بائنُه ، كثيرةٌ

٢٠ محاسِنُه ، صحيحةٌ أصُولُه ومَعادنُه ، رائقة البِزّة ، مائلة[1] إلى العِزّة ، تُسليه عن

---

(١) غير موجودة بالأصل وهى فى الرسائل والخانجى .

الحبِّ الخيانة ، ويرُبقه[١] الوفاء والصِّيانة . وله على خُشُونة خَلْقه ، وصُعُوبة خُلُقه ، اختراعاتٌ لطيفة . وابتداعاتٌ طريفة ، فى ألفاظٍ كثيفة ، وفصُولٌ قليلة الفضُول نظيفة[٢] . حتى إنَّ بعضَ كُبراء الشُّعَراء اهتدَمَ أشياءَ مِن مبانيه ، واهتضَمَ طرَفاً[٣] من معانيه ، وهو مِنْ مُعاصريه ، فقلَّ مَن فطِن لمرامِيه .

٥ وأمّا أبو فراسِ بنُ حَمْدان : ففارسُ هذا الميْدان ، إن شئْتَ ضرْباً وطعْناً ، ولفظاً ومعنى ، مَلَكَ زمانا ، ومُلِكَ أوانا ، أشعرُ الناس فى المملكة ، وأشعرُهم فى ذُلِّ المَلَكَة[٤] . وله الفخريّاتُ التى لا تُعارَض ، والأسريّاتُ التى لا تُناهَض .

وأمّا المُتنبِّي : فقد شغلَتْ به الألْسُن ، وسَهِرتْ فى أشعاره الأعْيُن ، وكثُرَ الناسخُ لشِعْرِه ، والآخذُ لذِكْرِه ، والغائصُ فى بحْرِه ، والمُفتِّشُ فى قعْرِه ،

١٠ عن جُمانِه ودُرِّه . وقد طالَ فيه الخُلْف ، وكثُر عنه الكشْف ، وله شيعَةٌ تغلُو فى مَدْحِه ، وعليه خوارجُ تتغايا فى جرْحِه . والذى أقول إنَّ له حسَنات وسيّئات ، وحسَناتُه أكثرُ عددا ، وأقوى مددا . وغرائبه طائرة ، وأمثالُه سائرة ، وعلْمُه فسيح ، ومَيْزُه صحيح ، يرُوم فيقْدِر ، ويَدرى ما يُورِدُ ويُصْدِر .

وأمّا ابنُ عَبْدِ ربِّه القُرطبيّ : وإنْ بعُدتْ عنّا ديارُه ، فقد صاقبَتْنا أشعارُه ،

١٥ ووقفْنا على أشعارِ صَبْوته الأنيقة ، ومُكفِّراتِ[٥] توْبته الصَّدُوقة ، ومدائحه المرْوانيّة ، ومطاعنِه فى العبّاسيّة . وهو فى كل ذلك فارسٌ مُمارِس ، وطاعِنٌ مُداعِس . وأطلعَنا فى شِعْرِه على عِلْمٍ واسِع ، ومادّةِ فهْمٍ مُضىء ناصِع . ومن تلك الجواهرِ نظَمَ عِقْدَه ، وتركَهُ لمنْ تجمّلَ بعدَه .

وأمّا ابنُ هانِئٍ محمّدٌ الأندلُسيُّ ولادةً ، القيرَوانيُّ وفادةً وإفادةً :

---

(١) فى الأصل : يريقه (٢) فى الأصل : نضيفه .
(٣) فى الأصل : تطرفا . (٤) فى الأصل : الملك .
(٥) فى الأصل : تكفرات ، وفى النسختين السابقتى الذكر : تكفيرات .

فرَعْدِيُّ الـكلام ، سَرْدِيُّ النِّظَام ، إلّا أنّه إذا ظَهرَتْ مَعَانِيه ، فى جزالة مَبانيه ، رَمَى عن مَنْجَنِيق ، يُؤثِّر فى النِّيق . وله غَزَلٌ قَفْرِىٌّ لا عُذْرِىٌّ ، لا يَقْنعُ فيه بالطَّيْف ، ولا يَشْفَعُ بغَـيرِ السَّيْف . وقد نَوَّهَ به مَلكُ الزّاب ، وعظَّمَ شأنَه بأجزلِ الثّوَاب ، وكانَ سيفَ دَوْلتِه ، فى إعلاءِ مَنزلتِه . من رجلٍ يَسْتَعِينُ على صَلاَح دُنياه بفسادِ أُخراه ، لرداءةِ عَقْلِه ، ورِقَّةِ دِينه ، وَضَعْفِ يَقِينِه ، ولو عَقَلَ لم تَضِقْ عليه مَعانى الشِّعْر ، حتّى يَسْتَعِينَ عليها بالـكفر .

وأمّا القَسْطَلِّىُّ : فشاعِرٌ ماهِرٌ عالِمٌ بما يَقُول ، تَشْهَدُ له العُقُول ، بأنه المؤخَّرُ بالعَصْرِ ، المتقدِّمُ فى الشِّعر . حاذِقٌ بوَضْعِ الـكلامِ فى مواضعه ، لا سيّما إذا ذَكرَ ما أصابه فى الفِتْنة ، وشكا ما دَهاهُ فى أيامِ المِحْنة . وبالجُمْلةِ فهو أشعرُ أهلِ مَغربه ، فى أبعدِ الزَّمانِ وأقربه .

وأمّا علىٌّ التُّونسىّ : فشِعْرُه المَوْرِدُ[1] العَذْب ، ولفظُه اللؤلؤُ الرَّطْب ، وهو بُحترىُّ الغَرْب . يَصِـفُ الحَمام ، فيَروقُ الأَنام ، ويُشبِّبُ ، فيُعشِّـقُ ويُحبِّب ، ويَمدحُ ، فيَمنحُ[2] أكثرَ مما يُمنَح .

هذا ما عِندى فى المتقدِّمين وَالمتأخِّرين ، على احتقارِ المُعاصِر ، واستصغارِ المُجاوِر ، فحاشَ لِلّهِ من الاتصافِ[3] بقلّةِ الإنصاف ، للبَعيدِ والقَريب ، والعدوِّ والحَبيب .

قلتُ يا أبا الرّيان ، وُقيتَ مُرورَ الحَدَثان ، فلقد سُبِكتَ فَهما ، وحُشِيتَ عِلما .

مَقامَةٌ له أخرى

حدَّثنى الجُرجانىُّ قال : كانَ فتًى بجُرجانَ من أبناء الأقيال ، قد جمعَ إلى النِّهايةِ فى المالِ الغايةَ فى الجمال . وكانَ مَألفاً للأُدباء ، ومَأوًى للغرباء ، ورِزقاً

(١) فى الأصل : المورود (٢) فى الأصل : فتمتح (٣) فى الأصل : الأوصاف

للفقراء، فلا يخلو مَنزلُه من أهلِ الإعدام . فإنّي لعندَه فى بعضِ الليالى إذْ استُؤذِنَ عليه لضَريرٍ فقيرٍ فأمَر بإكرامه وإطعامه . فلمّا فرَغ من شانه ، استدعاه إلى إيوانه ؛ فدخلَ علينا رجلٌ شَيخٌ وافرُ السِّبال ، قد عمّه البياضُ بالكمال ، مَطموسُ العَيْنين ، مُستَرخى الحاجبَين ، قد صَلِعَتْ هامتُه ، ورَكعتْ قامتُه ، وقصُرتْ مَسافةُ خُطاه ، وثَقُلَ جِسمُه على عَصاه . فسلّم بصوتٍ ضئيل ، ودَعا بلسانٍ ثقيل . وأقبلَ يذكرُ شَبابَه ، ويَتذكَّرُ أحبابَه ، ويَنوحُ على سالفِ زَمانِه ، ويَندبُ ثِقاتِ إخوانِه . فرقَّ له الفتى فأدناه ، حتّى أجلسَه على يُمناه ، وصَبّره وسَلّاه . ثمّ سَمَرنا إلى وقتِ النَّوم ، فرَقَدَ سائرُ القوم ، ونامَ الفَتَى فى مَكانِه ، مُراعاةً لحقِّ ضيفانِه .

وكنتُ أدنَى مِن الفَتَى مَرقَدا ، كما كنتُ أدنَى منه مَقعدا ، ولى عينٌ أخفُّ العُيونِ هَجْعة ، وأقربُها إلى الانتباهِ رَجْعة . فأيقظتنى نَبرةٌ لم أكنْ عَهِدتُ من الفَتَى مِثلَها ، ولا أجراها مع ضَيفٍ قبلَها . فعجِبْتُ مِن خَرْقِ العادَة ، وأصغيتُ ألتمسُ [الإفادةُ] . فسمعتُ الأعمى يَقول : ياسيّدى أنا صَرورَة ، وثَمَّ ضَرورَة ، وقد طالتْ الغُربة ، واضطرّتنى العُزْبة . فقالَ له الفتى : فما وَجدتَ لضَرورتِك سِواى ، ولا لِعزبتِك حَاشاى ؟ قالَ له : فإن أبيتَ إلّا أن تمنعَ ، فدُلَّنى عَلى ما أصنَع . قالَ له الفتى : أرَى لكَ أنْ تتَسرّى . قالَ : ومَن للصُّعلوكِ بالمملوك ؟ قال : فتَتزَوّج . قال : والمُحْوِجُ كيف يَتزوج ؟ قالَ له الفتَى : فإنّك لو خَضْخَضْت ، لكانَ أشبهَ مما إليه تعرّضت . قالَ الأعمى : واللهِ يامَولاى لا يسعُه خُفٌّ ، فكيفَ كفٌّ ؟ فصاحَ الفتَى : السِّلاحَ السلاحَ : « ألا أيُّها النوّامُ وَيحكمُ هُبّوا » قالَ الجُرجانىُّ فقلتُ : « فللشيخِ زُبٌّ ليسَ يُشبهه زُبٌّ » . فقالَ الفتى : أسمعتَ العَجبَ العُجاب ؟ قلتُ نعَم ، وحَفِظتُ العتاب . وجَعلتُ أقول : ما سألكَ الشَّيخُ فى عَسير ، ولا حَملكَ على خَطير ، فهلّا قَضيتَه فأرضيتَه ! ؟

قالَ: فحسِبَ الأعمى كلامى رَدّا، وظنّه جِدّا، فقالَ: فَديتُك أيُّها الناصِر، حِينَ خذَلنى الأواصِر، واحتقدَنى المُعاصِر، ثم تنهَّدَ وقالَ: آه واهرَماه! بَقِينا حتّى شَقِينا، آه. طاحَ أهلُ البَذلِ والسَّماح، وبَقِىَ أهلُ البُخلِ والجِماح. أُنظرْ أىَّ أجناس، بعدَ أىِّ ناس، لكنَّ الفقيرَ حَقِير، قَلّ المال، وذَهبَ الرجال. سَمِعنا فطَمِعنا، يا فتى، أخبرنا عنكَ خَبرا، ما رأينا له أثَرا، وربَّ منسوبٍ إلى حَال، مَرجوعُها إلى مُحال! أينَ الكرَمُ الذى ذُكر، والخُلقُ الذى شُكر؟! هَبْ ما سألناكَ يَشُقُّ، أينَ الحقُّ الذى يَحق؟ كَذبَ رائدُنا، وقلَّتْ فَوائدُنا. فقالَ له الفتى: ويحَك! اتقِ اللهَ خالقَك، فقد آنَ أنْ تَترك خَلائقَك.

فقال: يامَوْلاى! لو ترَكتْنى الشَّهوةُ لترَكت، لكنْ حرَّكتنى فتحرَّكت. إنّى وإنْ سبَقَنى جُمهورُ الأترابِ إلى التُّراب، فلى قلبٌ[1] لَهِبٌّ، وجِسمٌ ذَهَبىٌّ، لا يغيِّرُهما إدمانُ الزَّمان، ولا يَؤُودهما حَديثُ الحَدَثان. ولَو عادتْ إلىَّ ساعةٌ من أيامى، أو حَصلَت فى يَدى إبرةٌ مِن حُسامى، لسبقَتْ كُلُومى فيكم كَلامى. وسأجْهدُ بهذِه العَصَا، فأجاهدُ مَن عَصا. ثم اهتزَّ كأنَّه نَسْرٌ مَقصوص، أو حِمارٌ مَرْهُوص، فقُمنا وتركنَا جانبَه، وجعلَ يَضرِبُ بعصاهُ ما قارَبه. فتركناه وشانَه، وأدمَنّا عِيانَه، نُصعِّدُ فيه ونُصوِّب، ونَعجَب ونُعجِّب. فلم تَزلْ شِقشِقتُه تَهدِر، وعَصاه تتكسّر، حتّى كلّت يَداه، وانحلَّت قُواه. ولاحَ وجهُ الصَّباح، وجِئنا إليه بالمِصباح، فإذا هو كالجِدارِ المَهدوم، والجِذْرِ المَهشوم؛ قد فارقَ النَّفسَ النَّمرُودِيَّة، وماتَ المِيتةَ الجاهليَّة. فدفنَه الفتى فى أطماره، وسألَنا كِتمانَ أخباره. وأفْنَ لَعمرى أىَّ أفْن، أن يُطمعَ لخبَرِ هذا فى دَفْن، بل هو مَنشور، إلى يَومِ النُّشور.

(١) فى الأصل: قلبى.

ما أخرجتُه من شِعْر ابنِ شرفٍ فى أوصافٍ شتَّى

النسيبُ وما يُناسِبُه :

قد كنتَ فى وَعْدِ العِذارِ فأنْجَزا وقضَى لحُسنِكَ بالكمالِ فأوجَزا
وأتَى لنصرِ الحُسْنِ إلاّ أنَّه وَلّى إلى فِئةِ الهوَى مُتحيزًّا
٥ عطفٌ تعلَّمَ منكَ عِطفُكَ عَطفَه وَجدَ الفُؤادُ بهِ السبيلَ إلى العَزا
لم يَكفِ وجهَكَ حُسنُه وبَهاؤه حتّى اكتسَى ثوبَ الجَمالِ مُطرَّزا
سُبحانَ مَن أعطاكَ حُسْناً ثانياً وبثالثٍ من فِعْلِ حُسْنِكَ عزَّزا

وقال :

تَصعُّدُ نَفْسٍ لا صُعُودُ تنفُّسٍ وتَرديدُ رُوحٍ فى حُشاشةِ مَكروبِ
١٠ فَلا القُرْبُ يُحْيِينى ولا البُعدُ قاتِلى ولا الهَجرُ يُسلِينى ولا الصَّبرُ يلوِى بى
وأصبحتُ ذا ضُرٍّ ولُقياكَ مُبْرِئٌ لِضُرِّى ولكنْ أينَ عِيسَى مِنَ أيُّوب ؟!

وقال : بينَ أجفانِكَ سِحْرُ وعلى غُصنِكَ بَدرُ
جرَّدتْ عَيْناكَ سَيْفينِ (م) لذا أمرُكَ أمْرُ
فعَلَى خدِّكَ مِن نَثْرِ (م) دَمِ العُشَّاقِ أثْرُ
١٥ ومن الكُثبانِ شَطر لكَ[1] والأغصانُ شَطرُ
وسَواءٌ قُلتُ دُرٌّ ما أرَى أو قُلتُ ثَغرُ
وبماذا أصِفُ الخَصْرَ وما إنْ لكَ خَصْرُ
بكَ شغْلِى واشتِغالى ومَضَى زيدٌ وعَمرو

(١) فى الأصل : لك وعلى الأغصان . .

وقال :

وَشمسٍ تَرَاخَتْ أن تَغيبَ لِقبْلَتى ... كما أمسكتْ فيما مَضَى شمسُ يُوشَعِ

فيا قاطِعاً وَصْلى ويا واصِلاً غَدى ... بأمسِى وَيَوْمى فى العَذابِ المُمتّعِ

صَرَفتَ رَجائى عَن لَعلَّ وعَن عَسَى ... وأبْعدتَنى باليَأسِ مِن كُلِّ مَطمَعِ

أَعنِّى بإطماعِ الوِصالِ على النوَى[1] ... إذا لم تُقاتِلْ يا جَبانُ فشَجِّعِ

لَديكَ فؤادٌ مالَه من مُطالبٍ ... أأُطلبُ فى بَعْضى وقد بانَ أجمعِى؟!

وَديعَةُ مَيْتٍ أَنْتَ فيها مُحَكَّمٌ ... وإن شِئتَ فاحفَظْها وإن شئتَ ضَيِّعِ

أرَى مُهجَاتٍ فى يَديكَ فما تَرَى ... بمَنْ شِئتَ أَوْقِعْ أو بما شئتَ وَقِّعِ

قوله « إذا لم تُقاتِلْ يا جبانُ فشجِّعِ » مَثلٌ من أمثالهم ، وإليه أشار أبو نُوَاس بقولِه : فَكأنِّى وما أُزيِّنُ مِنها ... قَعدِىٌّ يُزيِّنُ التَّحْكيما

وقال :

واذْكُرْ لَيالِيكَ التى ذَهبَتْ لنا ... نَهبًا وعَيْشًا كانَ كالتَّهْويمِ

يُسْعِدْكَ وَابِلُ أدْمُعٍ فى أرْبُعٍ ... شَرِبَتْ مِياهَ الدَّمْعِ شُرْبَ الهِيمِ

أيّامَ شَمْسُ المَشْرِقَيْنِ ضَجيعَتِى ... فيها وبَدرُ المَغرِبَيْنِ نَديِمى

وَنُجُومُ كاساتِى طَوَالعُ بالمُنى ... والسَّعْدُ يَسْتَغنى عن التَّقْويمِ

مَحمودُ عَيشٍ جادَ لِى دَهْرِى به ... ثمّ استرَدَّ فكانَ فيه خَصِيمِى

وَلَّى وخَلَّى جَمْرَةً مَشْبوبَةً ... تُذْكِى على الأحشاءِ نارَ سَمومِ

فإذا رأيتَ لَهِيبَها وسَلامتى ... فاذكُرْ بذلك نارَ إبراهيمِ

يَنظرُ معنى البيتِ الرابعِ مِنْ هذه إلى قَوْلِ أبى الطيِّب :

يُقِرُّ له بالفَضْلِ مَنْ لا يَوَدُّه ... ويَقْضِى له بالسَّعْدِ مَن لا يُنَجِّمُ

(١) فى الأصل : الثوى .

ولأبى أحمد البَصْرى من أناشيدِ الثعالبى :

كنتُ إذا ما سِرتُ فى حاجَةٍ أُطالِعُ التقويمَ والزِّيجا
فَصارَ لى الزِّيجُ كتَصحيفهِ وعادَ لى التقويمُ تَعويجا

وقال بعضُ أهلِ عَصرِنا وهو أبو بكرٍ الدَّانى :

٥ وبمُهْجَتى نَجْمٌ له فى مُهْجَتى مَسْرًى وَلِى فى نُورِه تَعديلُ
حَوَّلْتُ عَهْدَ مُناخِهِ بمَناخِه فقضَى بتحويلى له التَّحْويلُ

وقولُه : « محمودُ عيشٍ جادَ لى دَهْرى به » من مُتداولاتِ المعانى ، منها قول محمد بن هانى :

وهَبَ الدَّهرُ نَفيسًا فاستَرَدْ رُبَّمَا جادَ[1] لئيمٌ فحَسَدْ

١٠ وأخذَه بعضُ أهلِ عصرِه فقال :

يَهَبُ القَليلَ وقد يَرَى استرجاعَه هِبَةُ اللئيمِ أقلُّ منه وأنزَرُ

ومن قصائدِه المُطوَّلةِ فى المدح وما يَتشبَّثُ به من سائرِ الأوصاف

قال فى المنصور حفيدِ ابن أبى عامر :

١٥ مَرَّ بى غُصْنٌ عليه قَمَرٌ مُتَجَلٍّ نُورُه لا يَنْجلِى
هَزَّ عِطفيهِ فقُلنا إنّه ذُو الفقارِ اهتزَّ فى كفِّ علِى
ورأيتُ الناسَ صَرعَى حولَه فكأنَّ اليومَ يومُ الجَمَلِ
تلكَ أخبارُ زمانٍ قد مَضى وأُمورٌ فى السِّنينِ الأُوَلِ
زَمَنُ المنصورِ قَوَّى مُنْيَتِى وسَرَا هَمِّى وأحْيا جَذَلِى

(١) رسم الكلمة فى الأصل « داد » ، والتصحيح عن الديوان ص ٢٤٥

وَسُرورُ النفس مِن بعد الصِّبا ناشِرٌ عَصْرَ الصِّبا والغزَلِ
فاستُطِيبَ العيشُ فى بَلدتهِ فكأنَّ الناسَ فى قُطْرُبُّلِ
وكأنَّ الشمسَ مِن بهْجتِها أبدًا فيها بِبُرْجِ الحَمَلِ

وله من أُخرَى فى عبَّاد :

٥ فما جَشأتْ نَفْسى عَشيَّةَ مُشْرِفٍ ولا احتَلبتْ عَيْنَىَّ حُزْوَى وفَيفاء
ولا لِغُرابىْ دِمْنَةِ الدارِ[1] ظَلْتُ ذا سُؤالٍ وما عندَ الغُرابَيْنِ أنباء
مَقامُ زَمانٍ ماتَ عُرْوَةُ حَسْرَةً عليهِ وظَلَّتْ تَسْفَحُ الدَّمْعَ عَفْراء
فلو نالَ حظًّا منه غَيْلانُ لالتقتْ له صَيْدَحٌ فيـــهِ ومَىٌّ وَدَهْناء

ومنها فى ذِكْرِ طِفْلَيْن له :

١٠ أُجَشِّمُهم لَيْلَ القِفارِ وظُلمةَ الـ بِحارِ وكم رِيعُوا وللسَّيْرِ إرْخاء
ولى منهما سهمانِ هذا ابنُ أُرْبَعٍ وهذا ابنُ سِتٍّ كلَّما كان إغفاء
أضمُّهما واللَّيلُ داجٍ كأنَّما هُما نُقطَتا ياءٍ وجِسْمى هوَ الياء
فَطوْرًا يُغشِّيهمْ على ذِكْرِكَ الكَرَى فتُصْبِحُ أَضْواءٌ عليهم ولألاء
وطَوْرًا يَمجُّون الدُّجى ومطَالَه وما كانَ للغاياتِ مَطْلٌ وإرجاء
١٥ فتَضجَرُ منهم أنفُسٌ ربَّما بكتْ بُكىً هو للصُّمِّ الجلاميدِ إبكاء

ومنهـا :

فإن أفحمتنا هَيْبةٌ عُمَـرِيَّةٌ لديكَ لها فى الشِّعْرِ كسْرٌ وإقْواء
بَذلتَ انبساطاتٍ لنا عَلَوِيَّةً لها بعـدَ مُوماتِ المهامِه أفياء[2]

صَيْدَحُ التى ذكرها ناقةُ غَيْلانَ ، والدهناء وطَنُه ، ومَىٌّ صاحِبتُه ، وكان

(١) فى الأصل : ولا لغراب الدار . . .
(٢) فى الأصل : أمناء ، ولعل الصواب ما أثبتناه .

٩٠ ذو الرُّمَّة يَلْهجُ بذِكْرِ هذه الثلاثةِ فى شِعْرِه . وقولُه « ولا لغُرابَى دِمْنَةِ الدارِ » البيت ، أشار إلى قولِ عُروةَ بن حِزَامٍ العُذْرِىّ فى عَفْراءَ بنتِ مالكٍ العُذْرِىّ ، وتُنْشَدُ الأبياتُ لحسْنِها ، ولكونِ المعنَى فَرْعاً مِنْ غُصْنِها .

أَلا يا غُرَابَىْ دِمْنَةِ الدَّارِ خَبِّرَا ... أَبالهجْرِ مِن عَفْراءَ تَنْتَحِبَانِ ؟

٥ فإنْ كانَ حقًّا ما تقولانِ فانهضَا ... بِلَحْمِى إلى وَكْرَيْكما فكُلانى

ولا يَعْلَمَنَّ الناسُ ما كانَ مِيتَتِى ... ولا يأكُلَنَّ الطَّيْرُ ما تذَرانِ

جعلتُ لِعرّافِ اليمامةِ حُكْمَهُ ... وَعَرّافِ حُجْرٍ (١) إنْ هُما شَفَيانى

فقالا : شفاكَ اللهُ ، واللهِ ما لنا ... بِما ضُمِّنَتْ مِنكَ الضُّلوعُ يَدانِ

وضَرَبَ المَثَلَ بهيبةِ عمرَ بنِ الخطابِ ، وكانَ مشهورًا بها ، وبانبساطِ علىّ بن

١٠ أبى طالبٍ رَضى اللهُ عنهما .

وله من أُخرَى فى ابنِ طاهرٍ أميرِ مُرسِيَةَ وقتَه :

وعاجُوا على عُسفانَ والليلُ أَلْيَلٌ ... وهَزُّوا بذاتِ البَيْنِ والصُّبحُ مُسفِرُ

وحازَتْهمُ حُزْوَى ضُحًى وترَوَّحُوا ... بِمُنعِجَ واستَعلَوْا أَبانًا فَغَوَّرُوا

ولمّا توافَقْنا بِذِى سَلَمٍ بَدَا ... سَلامٌ لِسَلْمَى ظَلَّ يَخْفَى ويَظْهَرُ

١٥ شَعرْتُ له والرَّكْبُ حَيْرانُ غافلٌ ... وما شاعرٌ أمرًا كمَنْ ليس يَشْعُرُ

رَأَتْ ظبيةَ الوَعْساءِ عَيْنِى فهَيَّجَتْ ... لها ذِكْرَهمْ والشىءُ بالشىءِ يُذْكَرُ

سأبكى طُلولاً كنتِ فيها مُطِلَّةً ... عليها وكلُّ الليلِ تحتكِ مُقْمِرُ

تَصرَّمَ ذاكَ العيشُ إلاّ ادكارَه ... وإلاّ كَذُوبًا فى المَنامِ تُزَوِّرُ

فتًى طاهِرِىٌّ طاهرُ الثوبِ ذِكْرُه ... مِن المِسْكِ أذكَى أو مِن الماءِ أطهرُ

(١) كذا ورواية الأغانى : نجد .

وله من أخرى فى المعتضد :

لولاهمُ لحججتُ أوّلَ حِجّةٍ حَرَمَ الكرامِ وطالَ فيهِ طَوافى
ولزُرْتُ خِمْصَ العُرْبِ أعرِبَ زائرٍ بغرائبٍ كالحُلّةِ الأفوافِ
وزحمتُ واديَها بمثلِ عُبابِهِ من سلسبيلٍ فى القلوبِ سُلافِ
وأريتُه بحرًا يُفاخرُ قعرُه بلآلئٍ فيهِ بلا أصدافِ ٥

ومنها فى مدحه :

يا حاسديهِ على عُلًى خُطّتْ له سَبَقَ القضا بالنُّونِ[1] بعدَ الكافِ
يُخلِى الدِّيارَ من الجُسومِ ويجتنى ثَمرَ الرُّءوسِ وطُرْفَةَ الأطرافِ
فكأنّما[2] الأجسامُ بعدَ رُءوسِها أبياتُ شِعْرٍ ما لهنّ قوافِ

قال ابن بسّام : أظنّ ابنَ شرَف ، فيما وصف ، شبّه الأجسامَ دُونَ رُءوسِها ١٠
بأبياتِ شِعْرِه فى هذه القصيدة ! فليستْ لها مَبادِى ولا قَوافى ، وما أمترى أنّ
الغُرْبةَ فلّتْ غَرْبَ طَبْعِه ، وغسلتْ عن[3] جوانحه ، وأطفأتْ نارَ قرائحه .

ومن أشبهِ مَدائحِه قولُه فى علىّ بن أبى الرّحّالِ بعضِ أُمراءِ القَيْروانِ
من قصيدة :

جاوِرْ عليًّا ولا تَحفِلْ بحادِثةٍ إذا ادّرعْتَ فلا تَسألْ عن الأسَلِ ١٥
اسْمٌ حكاهُ المُسمّى فى الفِعالِ فقد حازَ العَلِيَّيْنِ من قَوْلٍ ومن عَمَلِ
فالماجِدُ السيِّدُ الحُرُّ الكريمُ له كالنّعْتِ والعَطْفِ والتوكيدِ والبَدَلِ
زانَ العُلا وسِواهُ شانَها وكذا للشمسِ حالانِ فى المِيزانِ والحَمَلِ
وربّما عابَه ما يَفخرون بهِ يُشنا من الخَصْرِ مايُهوَى من الكَفَلِ

(١) فى الأصل : القضاء النون . (٢) فى الأصل : كأنها .
(٣) كذا بالأصل ولعلها : « حر جوانحه » .

سَلْ عنه وانطِقْ بهِ وانظرْ إليه تجِدْ مِلءَ المسامعِ والأفواهِ والمُقَلِ

وله من أخرى :

ما لى كذا كلُّ ما طلَّبتُه عَسِرٌ وقد أُخذتُ بحُبِّ المَطْلَبِ العَسِرِ ؟!

مالى أُجاذِبُ ذى الدُّنيا مُولِّيةً فكلُّ ثَوْبٍ عليها قُدَّ مِن دُبُرِ !

٥ ومنها :

يُعطِى الجَزيلَ مِن التَّنويلِ مُعتذِرًا ورُبَّ مُعطِى قَليلٍ غيرِ مُعتَذِرِ

أَتى الزمانُ على يأسٍ به لِبنى الدُّ نيا كبُشرَى بمولُودٍ على الكِبَرِ

إنِّى ومجدِكَ صَيَّرتُ الوَرَى نَهَرًا وقلتُ ماقالَه طالوتُ فى النَّهَرِ

فأنتَ عندىَ منهم غُرْفَةٌ بِيَدِى حَلَّتْ وحُرِّمَ باقى النَّهْرِ فى الزُّبُرِ

١٠ ومعنى البيتِ الرابعِ مِن هذه كقولِ أبى تَمّام ، ونَقَصَ فيه عن التَّمام :

بُشرَى الغَنِىِّ أبى البناتِ تَتابَعتْ بُشراؤه بالفارسِ المَوْلودِ

وذكرتُ بقوله : * فكلُّ ثَوْبٍ عليها قُدَّ مِن دُبُرِ * قولَ القائل :

قَميصُ يُوسفَ لمّا قُدَّ مِن دُبُرٍ كانتْ بَرَاءتُه فيها مِنَ الكَذِبِ

وفى قَميصِكَ لمّا قُدَّ مِن دُبُرٍ مِمّا يَدلُّ على الفَحْشاءِ والرِّيَبِ

١٥ وفى الحَسَنِ بنِ وَهْبٍ يقول القائل :

إذا لقيتَ بنى وَهْبٍ بمنزلةٍ لم تَدْرِ أيُّهما الأُنثَى مِنَ الذَّكَرِ

مُؤدَّبُونَ على الفَحْشاءِ من صِغَرٍ مُدرَّبُونَ على النُّكْراءِ فى الكِبَرِ

يُحنَّكونَ ولم تُقطَعْ سَرائرُهم بينَ الحواضنِ والدّاياتِ بالكَمَرِ

قَميصُ أُنثاهُمُ يَنشَقُّ مِن قُبُلٍ وقُمُصُ ذُكرانِهم تَنقَدُّ مِن دُبُرِ

٩١|

سائر مقطوعاتٍ له فى أوصافٍ شتى

قال :

لعلَّ الله يَفتكُّ المُعنَّى الأسيرَ فيغتدِى وهو الطَّليقُ
وإنْ أرجُو التخلصَ مِن عظيمٍ فقد يَنجُو من اللَّجَجِ الغَريقُ
لقد أنفذتُ من جَلَدى دُروعًا زَرَيْنَ على الذى نَسجتْ سَلُوقُ ٥
وصبرًا لو تَجسَّمَ لى مِجَنًّا كفانى ما رمَتْه المنجَنيقُ
وأفقدُ ما طلبتُ فلم أجِدْه(١) رفيقٌ فى صَحابتِه رَفيقُ
فأصبحَ وهو للعَنْقاءِ ثانٍ وثاوٍ حيثُ فرّختْ الأَنُوقُ
صَحِبتُ بهذه الدنيا أُناسًا إذا غَدروا فغدرُهم(٢) وَثيقُ
ولم أصحبْهمُ ودًّا ولكنْ كما جمعَ العدوَّينِ الطريقُ ١٠

لعلّه ذهبَ فى هذا إلى قول أبى الطيِّب :

ومِنْ نَكَدِ الدُّنيا على الحُرِّ أنْ يَرَى عدُوًّا له ما مِنْ صَداقتِه بُدُّ

وقال :

بعيشِكَ نادِ أيامى وقُلْ هل لديكِ إلى مَرَدٍّ من سَبيلِ ؟
أراكِ كما يَرَى المُحتاجُ مالاً وقد مَلَكَتْ عليه يدُ البَخيلِ ١٥
أراحِلَةٌ وما أبقيتِ مِنّى سِوَى لحظٍ يُترجِمُ عن قَتيلِ ؟
وقد عاقبتُ بالعَبَراتِ عَيْنى بلا ذنبٍ وما ذَنْبُ الرّسُولِ ؟
وجدتُ الناسَ كلّهمُ طُلولاً فلم أُطِلِ الوقوفَ على الطُّلُولِ
وتَسمعُ منهمُ مالا تَراهُ كسامعِ ضَرْبةِ السيفِ الصَّقيلِ

(١) فى الأصل : أحد لى رفيق . (٢) فى الأصل : عذروا . . فعذرهم .

فمَنْ بِسواكَ باعَكَ فاغْنَ عنه   كمَا استغنى علىٌّ عن عَقِيلِ

عقيل أخو علىّ بن أبى طالب كان وُلِدَ معه توْأمًا ، ولذلك قال : زُوحِمْتُ حتى فى الرَّحِمِ . ولمّا كان يومُ صِفِّين هَربَ إلى معاويةَ وفارقَ أخاه عليًّا .

وقوله : « أراكِ كما يَرَى المحتاجُ مالاً » البيت ، أراه تَواردَ فيه مع لِدَتِه

٥ وابنِ بَلْدَتِه أبى علىّ بنِ رَشيق حيثُ يقول :

والصبحُ قد مَطَلَ الليلُ العُيونَ بهِ   كأنّه حاجةٌ فى يَدِ ضَنِّينِ

وقال ابنُ شرف :

وما بُلوغُ الأمانى فى مَواعِدها   إلاّ كأشعَبَ يَرجُو وَعْدَ عُرْقُوبِ

وقد يُخالِفُ مكتوبُ القضاءِ يَدِى   فكيفَ يَقضِى [بأمرٍ] غيرِ مَكتوبِ ؟

١٠ وقال :

سَلْ عن رِضايَ عن الزمانِ فإنّه   كرِضَى الفرزدقِ عن بنى يَربوعِ

للهِ حالٌ قد تَنقَّلَ عهدُها   بخلافِ نَقْلِ الدهرِ حالَ صَريعِ

دارتْ درارىُّ الخُطوبِ قَواصِدًا   حتى نظرنَ إلىّ مِن تَرْبِيعِ

كان صَرِيعُ الغَوانى خامِلاً فولّاه بنو سَهْلٍ جُرجان فشَرُفَ .

١٥ وقال :

أهلَ الصفاءِ نأيتمْ بعد قُربِكمُ   فما انتفعْتُ بعيشٍ بعدكم صافِ

وقد قصدتُ نَدَى مَن لا يُوافقنى   فكانَ سَهمِىَ عنه الطائشَ الهافى

أردتَ عَمْراً وشاء اللهُ خارِجةً   أما كَفَى الدهرَ من خُلفِى و إخلافى ؟!

وقال :

٢٠ يقولونَ سادَ الأرذَلُونَ بعصرِنا   وصارَ لهم قَدْرٌ وخَيلٌ سَوابِقُ

فقلتُ لهم وَلَّى الزمانُ ولم تزَلْ   تُفرزِنُ فى أُخرَى البيوتِ البيادِقُ

وقال : قالوا تَصاهلَت الحَمــيرُ فقلت إذْ عُدِمَ السَّوابِقْ
خَلَتِ البيوتُ مِن الرِّخا خِ ففرزَنتْ فيها البَيادِقْ

وقال :

شَـكوتُ حُزْنى و بَثِّى إلى القَريبِ المُجيبِ
فـكانَ عُقبایَ عُقبَى نَبِيِّـــهِ يَعقُوبِ ٥

وقال :

لكَ مَنزِلٌ كمُلَتْ سِتارتُه لنا لِلّهْوِ لـكنْ تحتَ ذاكَ حَديثُ
غَنَّى الذبابُ وظَلَّ يزمُرُ حولَه فيه البعوضُ ويَرقُص البُرغُوثُ

وهذا كقول السُّميسر :

ضاقَتْ بلِمنسيةُ بى وذَادَ عنِّى غُموضِى ١٠
رَقْصُ البَراغيثِ فيها على غِنـاءِ البَعُوضِ

ما أخرجتُه مِن مَرَاثيـهِ لأهلِ القَيْروان بلدِه

قال من قصيدة وصفَ فيها إذلالَ أهلِ سُوسَة جاليةَ القيروان ، وهى طويلة قطفتُ عيونَها :

آهِ للقَـــيروانِ أنَّةَ شَجْوٍ عن فؤادٍ بجاحِمِ الحُزْنِ يَصْلَى ١٥
حينَ عادَتْ بهِ الدِّيارُ قُبوراً بَلْ أقولُ الدِّيارُ منهنَّ أخلَى
ثم لا شَمْعَةٌ سوَى أنجُمٍ تَخــطُو على أُفْقِها نَواعِسَ كَسْلَى
بعد زُهْرِ الشِّماعِ تُوقَدُ وَقْدًا ومِتـــانِ الذُّبالِ تُفْتَلُ فَتْلا
والوجُوهِ الحِسانِ أشرقَ منهنَّ (م) ويَفضُـلنَهنَّ مَعْنًى وشَـكْلا
لو رأيتَ الذينَ كان لهم سَهْـــلُكَ وَعْرًا قد صَيَّروا الوَعْرَ سَهْلا ٢٠

ومنها :

بَعْدَ يومٍ كأنما حُشِرَ الخَلْـ ... ـقُ حُفاةً بهِ عَوارِىَ رَجْلَى

ولهم زَحْمَةٌ هنالك تَحكِى ... زَحْمَةَ الحشرِ والصحائفُ تُتْلَى

وعَجِيجٌ وضَجَّةٌ كضجيجِ الـ ... ـخَلْقِ يَبكُونَ والسرائرُ تُبْلَى

٥ ۹۲ | مِن أيامَى وراءهن[1] يَتامَى ... مُلئوا حَسْرَةً وشَجْوًا وثُكْلا

وثَكالَى أرامِلاً حاملاتٍ ... طِفْلةً تَحمِلُ الرَّضاعَ وطِفْلا

وحِصَانٍ كأنَّها الشمسُ حُسْنًا ... كَفَّنَتْها الأطمارُ نَجْلَاءَ كَحْلا

فاتَ كُرسيَّها الجلاءُ فأَضْحَتْ ... فى ثِيابِ الجلاءِ للناسِ تُجْلَى

جارَ فيهم زمانُهم وأُولو الأمْـ ... ـرِ ففَرُّوا يَرْجونَ فى الأرْضِ عَدْلا

١٠ تَرَكُوا الربعَ والأثاثَ[2] وما يَثْـ ... ـقُلُ لا حامِلٌ من الناسِ ثِقْلا

لَبِسُوا الباليات مِنْ خَشِنِ الصُّو ... فِ وعادَ[3] النَّبِيهُ فى الناسِ غُفْلا

نادباتٍ ، عَفراءُ تُسْعِدُ سُعْدَى ... وسُعادٌ تُجِيبُ بالنَّوْحِ جُمْلا

لَيْسَ منهنَّ مَن يُوَدِّعُ جارًا ... لا وَلا حُرْمَةٌ تُشَيِّع أَهْلا

كلُّهنَّ اعتَدَى الفِراقُ عليه ... فاقتحمنَ الجلاءَ حَفْلاً فحَفْلا

١٥ فإذا القفْرُ ضَمَّهُمْ فوقَ[4] الدَّهـ ... ـرُ لهُمْ غيرَ ذلك النَّبْلِ نَبْلا

مِن ثَعابِينَ حامِلِينَ نُيوبًا[5] ... عُصْلاً : ذابلاً ونَبْلاً ونَصْلا

وشَياطِينَ رامحِينَ يُلاقو ... نَ بجُونِ الفَلا مَساكينَ عُزْلا

فتَرى للظُّهورِ[6] تُعتَلُ عَتْلا ... وتُشَقُّ البطونُ تُغسَلُ غَسْلا

---

(١) فى الأصل : وراءهم . (٢) فى الأصل : والإناث .

(٣) رسم الشطر فى الأصل : لتعدوا البنية فى الناس عقلا . (٥) فى الأصل : ليوثا

(٤) فى الأصل « فرق » . (٦) فى الأصل : فترى الظهور .

فإذا مَطمَعٌ أصابوه فى أحشاء[1] قَوْمٍ عَمُّوا بذلك كُلّاً
فإذا نَجَّت المقاديرُ منهم رَاحِلًا بالخلاصِ يَحْمِلُ رَحْلا
لَقِىَ الهُونَ فى المذلّةِ أنَّى كانَ مِن سائرِ البلادِ وَحَلّا
لَيسَ يلقَى إلا امرأً مُسْتَطيلاً طالباً عندَهُ حُقُوداً وذَحْلا
فترَى أشرفَ البريَّةِ نفْساً ناكِسًا رَأْسَهُ يُلاطِفُ نَذْلا ٥
فهمُ كلَّما نبَتْ بهمُ أرْضٌ مَطَايا الفِراقِ خَيْلًا ورَجْلا
مُزِّقُوا فى البلادِ شَرْقاً وغَرْبًا يَسْكُبُونَ الدُّموعَ هَطْلًا ووَبْلا
لا يُلاقى النسيبُ منهم نَسِيبًا يَتَعَزَّى بِهِ ولا الخِلُّ خِلّاً
ليتَ شِعْرى هلْ عَوْدةٌ لِى فى الغَيْبِ إلى ما أطالَ شَجْوِىَ أمْ لا ! ؟

قوله « حين عادَتْ به الدِّيارُ قبورًا » يشبه من وجهٍ قولَ أبى تمام : ١٠

وما القفْرُ بالبيدِ القَواءِ بل التى نَبَتْ بى وفيها ساكنُوها هى القفْرُ

وأخذَهُ بعضُ أهلِ عصرى وزاد فقال :

ثاوٍ بحِمْصَ كأنَّما هى قَبْرُه لو لم يُقَاسِ بها صُرُوفَ زَمَانِه

وقوله « ثم لا شَمْعَةٌ سوى أنجم » يَنظرُ إلى قولِ محمدِ بن هانىء الأندلسىّ :

وباتَ لنا ساقٍ يَقُومُ على الدُّجَى بشمعةِ صُبْحٍ لا تُقَطُّ ولا تُطْفَا ١٥

ويُرْوَى « بشمعةِ ليلٍ » ، وإنما أخذَه من قولِ أبى الحسنِ سُليمانَ بن حسنِ النّصيبى :

وإنْ يَكُ لَيلُنا فيه نَهاراً فشمعةُ بَدْرِه ليستْ تُقَطُّ

وربما تَوَارَدَ مَعَه لأنه كان مُعاصِرَه ، إلاّ أنّ ابنَ هانىء أقدمُ موتاً .

---

(١) رسم الكلمة فى الأصل : أحشاق .

حكى أبو عليٍ فى رسالة « قُرَاضة الذَّهب » أنه مات سنةَ اثنتَيْنِ وستِّين وثلاثمائة .

وقال ابنُ شرَف من قصيدةٍ وصَفَ ما كان من صِيانةِ الحَرِيم فى أوطانها ، ثم ما صارتْ إليه من الانكشافِ فى الحِلِّ والتَّرْحال ، ورُكُوبِ ظُهورِ

٥ الخُطوبِ والأهوال ، يقول فيها :

بعدَ خُطوبٍ خَطَبَتْ مُهجَتى ... وكانَ وَشْكُ البَيْنِ إمهارَها

ذا كَبِدٍ أفلاذُها حَوْلَها ... قَسَّمَت الغُرْبةُ أعشارَها

أطافِلُ ما سَمِعتْ بالفَلا ... قطُّ فعايَنَت الفَلا دارَها

ولا رَأَتْ أبصارُها شاطِئًا ... ثم جلَتْ باللُّجِّ أبصارَها

١٠ وكانَتِ الأستارُ آفاقَهَا ... فعادَت الآفاقُ أستارَها

ولم تكنْ تعلو سَرِيرًا عَلَا ... إلَّا إذا وافقَ مِقْدارَها

ثم عَلَتْ كلَّ عَثُورِ الخُطَا ... ترْمِى بها الأرضَ وأحجارَها

ولمْ تكنْ تَلْحَظُها مُقْلَةٌ ... لو كَحَّلَتْ بالشَّمسِ أشفارَها

فأصبحَتْ لا تتَّقِى لَحْظَةً ... إلَّا بأنْ تَجْمَعَ أطمارَها

١٥ قوله « وكانت الأستارُ آفاقَها » مِن الكلام الفَصيح ، والقَلْبِ المَليح . ويُشْبِه مَنْحاه ، وإن لم يكُنْ فى مَعناه ، قولَ الأوَّل :

فَرَدَّ شُعُورَهُنَّ السُّودَ بِيضًا ... ورَدَّ وُجوهَهنَّ البِيضَ سُودا

وكقولِ الآخر :

نَديمَتى جاريةٌ ساقِيَهْ ... ونُزْهَتى ساقِيَةٌ جارِيَهْ

وله من أُخرى :

كأنِّى وَأُفْرَاخِى إذا الليـلُ جَنَّنَا ... وباتَ الـكَرَى يَجْفوجُفونًا ويَطرُقُ

حمائمُ أَضْلَلْنَ الوُكُورَ فضَمَّها ... تَجَانُسها حتى تَرَاءَى المُفـرِّقُ

إذا أفزَعَتهم نَبوةٌ زاحمُوا لها ... ضُلوعىَ حتى وُدُّهم لو تُفتَّقُ

ويَصغُرُ جسمى عَن جَميع احتضانهمْ ... فيثبُتُ ذا فيهِ وذا عنهُ يَزهَقُ ٥

كأنَّهم لم يَسْكنُوا ظِلَّ نِعمةٍ ... لها بَهْجَةٌ مِلْءَ العيونِ ورَونَقُ

إلى أنْ غدَوْا قِنْ[1] الفَيافى فتارةً ... تُباعُ وفى بعضِ الأَحايينِ تُعتَقُ

وطورًا على مَوْجِ البِحَارِ كأنَّنا ... قَذًى قد وَثِقنا أننا ليسَ نَغرَقُ

ونحْنُ نفوسٌ تِسْعةٌ ليسَ بيننا ... وبَينَ الرَّدَى إلاَّ عُويدٌ مُلفَّقُ ٩٣|

نَظمَ هذا مِن قولِ الفَيلسوفِ وقد ركبَ سَفينةً فقالَ الملاَّح : كَمْ غِلَظُ ١٠
لوحِ سَفينتك ؟ قال : إصبَعان . قال : فإنما بيننا وبينَ الموتِ إصبعان !

وقوله « إذا أفزَعتهم نَبوةٌ » البَيْت ... بَناهُ على قولِ امرئِ القَيْسِ ، إلاَّ أنَّ الوجْدَ لَذعهُ لَذْعَةً أنطقَتْه بالحال ، وقوَّلَتْه السِّحْرَ الحلال ، فعلَّمَتْه كيفَ يُفتِّتُ الأكباد ، ويَفُتُّ فى الأعضاد ، وهو قولُه :

إذا أخذَتْها هِزَّةُ الرَّوْعِ أَمسَكَتْ ... بمَنْكِبِ مِقْدامٍ عَلَى الهوْلِ أَرْوَعا[2] ١٥

وقال من أُخرى :

يا قَيْرَوَانُ وَدِدتُ أنِّىَ طائرٌ ... فأراكِ رُؤيةَ باحثٍ مُتأَمِّلِ

آهًا وأيَّةُ آهةٍ تَشْفِى جَوَى ... قلبٍ بنيرانِ الصَّبابةِ مُصْطَلى

أبدَتْ مَفاتيحُ الخُطوبِ عَجائبًا ... كانت كوَامِنَ تحتَ غَيبٍ مُقْفَلِ

---

(١) رسم الكلمة فى الأصل : فنى . (٢) العقد الثمين ص ١٤٠ .

زَعَموا ابنَ آوى فيكَ يَعْوِى والصَّدَى ... بِذُراكَ يَصرُخُ كالحزينِ المُثْكَلِ
يا بيدَ رُوطَةَ[1] والشوارعُ حولها ... مَعمورةٌ أبداً تغصُّ وتَمْتَلِى
يا أَرْبُعى فى القُطْبِ مِنها كيفَ لى ... بمعادِ يومٍ فيكِ لى ومِنَ أينَ لِى ؟ !
يالَوْ شَهِدتِ، إذا رأيتُكِ فى الكرى، ... كيفَ ارتجاعُ صِبَاىَ بعدَ تَكهُّلِ
٥ لا كثرةُ الإحسانِ تُنسِى حسرةً ... هيهاتَ تذهبُ عِلَّةٌ بتَعلُّلِ !
وإذا تجدَّدَ لى أخٌ ومُنادِمٌ ... جدَّدْتُ ذِكْرَ إخاءِ خِلٍّ أوَّلِ
« لو كنتُ أعلمُ أنَّ آخرَ عهدِهم ... يومُ الرحيلِ فعلتُ ما لم أفعلِ »

وهذا البيتُ لجرير؛ وإنما تضمَّنه، وبعده قولُ جرير:

لو كنتُ أُحذَرُ وَشْكَ بينٍ عاجلٍ ... لقَنِعتُ أو لسألتُ ما لم يُسألِ

١٠ وقولُه « وإذا تجدَّدَ لى أخٌ ومُنادِمٌ » من قولِ أبى تمام :

نقِّلْ فُؤادَكَ حيثُ شِئتَ من الهوى ... ما القلبُ إلا للحبيبِ الأوَّلِ

وقالَ أبو الحسنِ الرَّضىّ :

ما ساعَدَتْنى الليالى بعدَ بَيْنِكُمُ ... إلا ذكرتُ ليالينا بذى سَلَمِ

وقالَ ابن شرفٍ من قصيدةٍ :

١٥ كأنَّ الديارَ الخالياتِ عرائسٌ ... كواسِدُ قد أزرتْ بهنَّ الضرائرُ
وتُنكِرُ بُقْياها الأسرَّةُ حسَّرًا ... عَواطِلَ لا تُفشى لهنَّ السَّرائرُ
إذا أقبلَ الليلُ البهيمُ تمكَّنتْ ... بها وَحشةٌ منها القلوبُ نوافرُ
ولا سُرُجٌ إلا النُّجومُ وربَّما ... تَغطَّتْ فسدَّتْ جانبيْها الدَّياجرُ
يَمُرُّ عليها المورُ يَسْحَبُ لُحفَهُ ... ولا كانسٌ إلا الرِّياحُ الغدائرُ
٢٠ ويمتدُّ عمرُ الصوتِ فيها وربَّما ... تجودُ مِراراً بالكلامِ المقابرُ

(١) كذا بالأصل، وروطة من أعمال سرقسطه، ولعلها «روحة» قرية من قرى القيروان .

فلو نَطَقَتْ ما كانَ أَكْثَرُ نُطْقِها سِوَى قولِها أينَ الخليطُ المُعاشِرُ ؟

أَلا قمرٌ إلّا المُقنَّعُ فى الدُّجى فأَيْنَ اللَّواتى لَيلُهُنَّ المَعاجِرُ ؟

أَلا مَنزلٌ فيهِ أَنيسٌ مُخالِطٌ أَلا مَنزلٌ فيه أَنيسٌ مُجاوِرُ ؟!

تُرَى سَيِّئاتُ القَيْروانِ تَعاظَمَتْ فَجَلَّتْ عن الغُفرانِ واللهُ غافِرُ ؟!

تُراها أُصيبتْ بالكبائرِ وحدَها أَلم تكُ قِدْمًا فى البلادِ الكبائرُ ؟! ٥

ضَجِرَ أبو عبدِ اللهِ — عفا اللهُ عنه ! ، وفيها يقول :

تَرَحَّلَ عَنها قاطِنوها فلا تَرى سِوَى سائرٍ أو قاطِنٍ وهو سائرُ

تَكَشَّفَتِ الأستارُ عَنهم وربَّما أُقيمتْ سُتورٌ دُونَهم وسَتائرُ

إذا جاذَبَتْ أَستارَها تَبتغى بها لأَقدامِها سِترًا تَبدتْ غدائرُ

تَبيتُ على فُرْشِ الحَصَى وغِطاؤها دَوارِسُ أَسْمالٍ زَوارٍ حَقائرُ ١٠

فيا ليتَ شِعْرَ القَيْروانِ مَواطِنى أَعائدةٌ فيها الليالى القَصائرُ ؟!

ويا رَوْحَتِى بالقَيْروانِ وبُكرَتى أَراجِعةٌ رَوْحاتُها والبواكِرُ ؟!

كأَنْ لم تكُن أَيامُنا فيكِ طَلْقةً وأَوجُه أيامِ السُّرورِ سَوافِرُ

كأَنْ لم يكن كلٌّ ولا كانَ بعضُه سيَمضِى بِهِ عصرٌ ويَمضِى المُعاصِرُ

قوله « كأنَّ الدِّيارَ الخاليات » ينظرُ من وَجهٍ إلى قولِ أبى تمام : ١٥

وكذاكَ لم تُفرط كآبةُ عاطِلٍ حتّى يُجاوِرَها الزَّمانُ بحالى

وقال ابنُ شرفٍ من أُخْرى :

سَقَى القصرَ فالميدانَ أَخلافُ مُزنةٍ وراحَتْ على الدوحاءِ منها أفاويقُ

عَلَى أنَّه مَرْمَىً(١) نَبتْ عنه أَسهُمى فلا حَدَّ لِى فى الأُفْقِ منه ولا فُوقُ

أُناديهِ والبحرُ المحيطُ مُجاوِبى ودُونى خَليجٌ منه أفيَحُ مَخروقُ ٢٠

---

(١) فى الأصل : مرعى .

وقُرطبةٌ ضمّتْ إليهـــا جَوانحى ... كما ضَمَّ مِن عفراءَ عُروَةَ تعنيقُ
نزَلنا بها(١) لا نبتغِي السُّوق عندَها ... فما كانَ بُدٌّ أنْ أُقيمتْ لنا سوقُ
وأحيا ابنُ يَحيى ميّتاتِ خواطرى ... وفَسّحَ آمالى وكانَ بها ضِيقُ
أبا حسَنٍ أحسنتَ بدءًا وعَوْدةً ... وللغُصْنِ إثمارٌ إذا كان توريقُ
٥ فلم يُرَ بؤسٌ إذْ وَليتَ أمورَها ... ولا كَسَدَتْ سُوقٌ إذْ(٢) التفّتِ السُّوقُ
وكم لقِيَتْ حربَ الأزارقِ منهمُ ... وكم زُرِقَتْ فى جانبيها المزاريقُ

قالَ ابنُ بسّام : وكثيراً ما يذكرُ ابنُ شرفٍ فى شِعرِه أحياءَ الأعرابِ التى أخرجَتْهم من القيرَوان كبنى هِلالٍ وقرّةَ وزُغبةَ وهم الذين تولوْا حربَ بلدهِ فى التاريخِ المتقدّم الذكر . فمن ذلك قصيدةٌ أوّلها :

٩٤

١٠ جُسُومٌ على حُكمِ العُيونِ صِحاحُ ... وفى طَىِّ أحناءِ الضُلوعِ جِراحُ

يقولُ فيها :

إذا كانَ للأحبابِ رُسْلٌ فرُسْلُنا ... بُرُوقٌ إلى أحبابِنا ورِياحُ
ومِن دونِ تلك الرُّسْلِ أخضرُ زاخرٌ ... أُجاجٌ ومَهجورُ الفِجاجِ فِياحُ
وللسهمِ دون القيْروانِ تَسهُّمٌ(٣) ... وما شَوْكُهُ إلّا ظُبًى ورِماحُ
١٥ وقُرّةُ قد قرّتْ هُناكَ عيُونُها ... وزُغبةُ رِيشَتْ زُغْبُها ورِياحُ
كأنْ لم يكنْ لى أمسِ فى عَرَصاتِها ... من العيشِ جِدٌّ طيِّبٌ ومُزاحُ
يُخيِّلُها زَوْرُ الكَرى لِىَ فى الدُّجى ... فأرغبُ فى ألّا يَلوحَ صَباحُ
كُسِيتُ قِناعَ الشَّيبِ قبلَ أوانِهِ ... وجِسمى عليه للشبابِ وِشاحُ
ويا رُبَّ وَجهٍ فيه للعَيْنِ مَنزَهٌ ... أُمانِعُ عَيْنِى منـــه وهو مُباحُ
٢٠ وأهجرُه وهوَ اقتراحى من الورَى ... وقد تُهجَرُ الأمواهُ وهى قَراحُ

(١) فى الأصل : نزلنا لا نبتغى (٢) فى الأصل : إلا (٣) كذا فى الأصل

وهذا مِصْراعُ بيتِ المعرّى :

* والعَذْبُ يُهجَرُ للإفراطِ فى الخصَرِ *

وقوله :

* يُحَيِّيها زَوْرُ الكَرَى *

ألمّ فيه ابنُ شرف بقولِ العبّاس بنِ الأحنف : ٥

حتى أقولَ إذا استيقَظتُ مِن أسَفٍ ... يا ليتنى كنتُ دَهْرى راقِدًا أبدا

ولهُ مِن أُخرى يَمدحُ الأمينَ ابن السّقاء :

فيا أخوىَّ من أسَدٍ وسَعْدٍ ... أحىٌّ حىُّ زُغْبَةَ أمْ دفينُ

فلا اشتملتْ مساكنُها بِشَمْلٍ ... ولا هـذا القَرارُ به سُكونُ

ولا سَرَتِ الرِّياحُ على رِياحٍ ... لَوَاقِحَ مُزْنةٍ أنَّى تَكونُ ١٠

فقدْ دارتْ علينا مِن رَحاها ... طَحُونٌ كلَّ ما لاقتْ زَبُونُ

فلا وطَنٌ لنا إلاَّ المَطَايا ... وإلاَّ الماءُ طَوْرًا والسَّفِينُ

لعلّكَ أيُّها البرقُ اليَمانى ... إذا كَشَّفتَ عَن خَبَرٍ تُبِينُ

أفى وُكُناتِها عِقبانُ قَوْمٍ ... كَعَهْدِى أمْ خلتْ مِنها الوُكونُ

وبينَ قِبابِ صَبْرةَ والمُصَلَّى ... نُهًى ومَهًى وآسادٌ وعِينٌ ١٥

وأجبالٌ تمورُ بهـا المَذاكى ... وأقمارٌ تَمِيسُ بها الغُصونُ

وقُرطُبَـــةٌ أعِيدَتْ قَيْرَوانًا ... لنا لمّا دَهَتْ تلكَ الفُتُونُ

وكيفَ يَضيعُ مِثْلى فى مَكانٍ ... يكونُ بهِ أبو الحسن الأمِينُ

أيامِنُ أنْ تكونَ النونُ راءً ... وقد وجَبتْ له راءٌ ونُونُ

انتهَى ما أخرجتهُ من أخبارِ ابنِ شَرَف ، ونَتلو ذلكَ بطَرَفٍ من أخبارِ ٢٠

ابن السّقاء مُدبّر الدّولة الجهوريّة بقرطبة ، ونُشير إلى مَقتله ، ونُلمع بذكر أوّله ، وكيف ارتقى من الحضيض ، إلى ذروة الجاه العريض ، حتى زاحم نجومَ الأفلاك ، وملأ صدورَ الأملاك ، وسارتْ عنه فى السِّياسة أخبار ، تحت أضواء الأسحار ، وعطّرتْ أنفاسَ الأزهار .

---

٥ جملةٌ من أخبار ابن السقاء القُرطبيّ ، مُدبِّر المُلْك الجهْوَرىّ

قالَ ابنُ حيّان : كانَ أبو الحسنِ إبراهيمُ بنُ محمدِ بنِ يحيَى المعروفُ بابنِ السّقاء قد كابدَ من شَظَفِ المعيشةِ فى فَتاءِ سِنِّه ما لا شىء فوقَه ، إذْ كان يُعالِجُ السّقطَ بسُويقةِ ابنِ أبى سُفيان فى قُرطبة ببضاعة نَزْرَة . وأعلَى ما انتقلَ إليه عندَ إكداءِ تلكَ الحِرفةِ الاستخراجُ فى جِهَةِ الأحباس ، وإرثُه[1] عَن والدِه ١٠ مُحمّدٍ السقّاء . وبأسبابها خدمَ القُضاةَ وتمرّنَ معَ الفقهاء ، وهو يَقتاتُ مَعيشتَه مُياوَمةً ، ويأوِى ليلَه إلى بَيتٍ فى دُوَيرةِ والدِه محمدٍ بجُوفىِّ المسجدِ الجامِع ، يُحاضِرُ فيه جماعةً إخوةً لا يَجدُ بينَهم إلى مَدِّ ساقِه سَبيلاً . وما هو إلاّ أنْ حَملَ الأمانةَ على كاهلِه ، فوضَعَها أسفلَ رِجْله . وتذكّرَ عضّ الكِلاب لعَصاه ، فتحوّلَ جُرَذًا للسّرقِ والخِيانة ، وابتَنَى القُصورَ المنيعة ، واقتَنى الضِياعَ ١٥ المُغلّة ، إلى أملاكٍ لا تُحصَى كثيرة .

قالَ ابنُ بَسّام : وقد رأيتُ ابنَ حيّان مَدحَ ابنَ السّقاء فى غيرِ ما موضعٍ مِن كتابه ، فقالَ فيه فى فَصل :

وصارَ مِن المَناجحِ للدّولةِ الجهوريّةِ أن استعانَ فيها الوزيرُ الرئيسُ أبو الوليدِ جَهْوَرٌ على أمرِه بالأمينِ أبى الحسنِ إبراهيمَ بنِ محمد ، مُتولّى النّظر

---

(١) لعلها بغير واو ، أو لعلها بإرثه .

فى المسجدِ الجامعِ عَلَى قديم الأيّام ، خادمه الكافى المُنقطع إليه ، ونَصيحه[١] المُتهالكِ فى طاعتهِ . فتفرّسَ فيه فِراسةَ مِثْلِه ، فقلّدَه القيامَ بأعباء دَولته ، فأصابَ نَقافًا يَخذِم[٢] ، ونفذَ فيما يُريدُ عنه كالسّنانِ اللّهْذم ، لجَودةِ استقلالِه ، ورَجاحةِ وَزْنه .

٥ ثم ذَكرَه بعدَ مَقْتلِه فقالَ : وهذه عَصْفةٌ مِن عَصفاتِ الدّهرِ الخَؤون ، الذى هُو لمنْ أصغَى إليه أنصحُ الواعظين . قَصفَتْ مِن هـذا الرّجلِ الظالم — كانَ — لنفسِه ، الغاشِّ لمُصْطَنِعه ، سَرْحةً نوّارةً أطالَ الباطلُ مَرْعَاها ٩٥| مِن غِراسٍ أودِعَ خَضْراء دِمْنـةٍ . فمَوّهُ على أهلِ وَقتهِ بلِيانةٍ كانت فيه سُوقيّةٍ ، وخَلابةٍ[٣] جبليّةٍ ، عَضَدَها جَدٌّ صاعِدٌ رقّاه من الحَضيضِ إلى ١٠ الشّهى ، وحَرسَته إلى مُدّةٍ اجتذَبَتْه عندَ توفّيها أعراقُه اللئيمة . فتولّى ذَميمًا لسُوءِ أفعالِه ، فلا سماؤه بَكتْ عليه ولا أرضُه . وقد كُنتُ كتبتُ من وصْفِ ظاهرِ محاسنهِ أوانَ اعتلاقه بقَهرمةِ أميرِنا محمد بنِ جَهْوَر ، وعددتُ من حِسان خِصاله ما لم يَبعُدْ عن الصدْقِ عنه ، لأخذنا بظاهرِ ما تَموّهَ فى العُيونِ وقتَ بِنائِه لنفسِه ، وتَنفيقِه لِـكسادِه ، من طَأةِ الخُلق ، وحُسْنِ الاحتمالِ ، ولينِ ١٥ الحِجاب ، وخِفّةِ المُواطأة[٤] ، وجَوْدةِ الوَساطة ، معرضِينَ فيه عن ذِكرِ ما لم يكن لنا النفثُ عنـه ممّا فى باطنِه من نَذالةِ الخِيم ، ونَطَفِ الصُّحبةِ ، وتُهمةِ الخَلوة . وإذا به مُتخلّقٌ ليسمو إلى مُرادٍ أنالَه المِقدارُ إيّاه ، فتنةً من الله . فلم يَلبثْ أن أدركَه عِرقُ السُّوء ، واجتذبَه إلى نَصْرِ طِباعِه ، فاستَحالَ وتغيّرَ ، وعَتا واستَـكبَرَ ، وخانَ وغَدَر ، فاستَخفَّ المظالم ، واستهانَ الـكبائر ، واطّرَح

(١) فى الأصل : وتصبحه التهالك .
(٢) فى الأصل : « يحدث » ، ولعل الصواب ما أثبتناه .
(٣) رسم الـكلمة فى الأصل : خلانة . (٤) فى الأصل : الموطأة .

الفُروض ، واحتقر الحُقوق ، وأغرى[(١)] بذوى الهيئات ، وحَملةِ المروّات ، فأذالَ صَوْنَهم ، وأغرى غاشيتَه من سِفْلةِ الناسِ وأوغادِهم بهم ، فأضرعَ[(٢)] خدودَهم ، وحطَّ أقدارَهم ، وأشعرَ الأعِزَّةَ الذِّلّة ، وألصقَ أنوفَها بالرَّغام ، وأصمتَها عن الكلام . فارتفع الأمرُ بالمعروف جُملةً ، ووسِعَ أهلَ السلامةِ الدُّخولُ تحتَ التَّقيَّة . فصرنا ممن أخذَ بذلك فى ذِكْرِه ، فيما كتبْنا له مِن ظاهرِ أخبارِه مُدَّةَ سَتْرِ اللهِ عليه ، إلى أنْ ارتفعتْ بزوالِ سُلطانِه ، وأمانِ عُدوانِه ، ففارَقنا الحَزْمُ[(٣)] فى ذِكْره ، ولَزِمَنا العُذْرُ عنه بالنَّقضِ لما أسلفناهُ مِن تقريظِه .

قالَ ابنُ حيّان : ولمّا[(٤)] رآه ولدُ ابنِ جَهْور آخذًا بخُطَطِ المُلْكِ أجمعِها ، ومَراتبِ الرئاسةِ بكُلّيَّتِها[(٥)] ، وتركَهم أعطالاً ، وبسَطَ يدَه إلى مالِ الخَراجِ واحتوى عليه ، يأخُذه كيفَ شاء ، ويُنفِقهُ فيما يُريد ، واصطنَع الرِّجال ، واتخذَ الأصحابَ والغِلْمان ، فخضَعتْ له الرِّقاب ، وسَمَت إليه الآمال ، فتوَقَّلَ ذِروةَ الإمارةِ حالاً حالاً ، حتّى ثَنى الجندَ والرعيَّةَ لنفسِه ، وصدَّهم عَن لقاءِ أميرِهم ابنِ جَهْور . ولم يَستحى مِن اللهِ ولا مِن عبادِه فى خَوْنِ أمانتِه ، ولا تستَّرَ عن الإعلانِ بغُلولِ وَديعتِه ، وقد تولّى أمرَ السُّلطانِ وهو فقيرٌ فلم يَستترْ فى الاكتسابِ ، بل جاهَرَ فى التحامُلِ على الجيرةِ والإكراهِ للمستضعَفينَ ممن يُصاقِبُه مِن ذَوى خُطَّةٍ أو سُهْمَةٍ . له فى كلِّ ذلك أمورٌ لا تُحصَى كثرةً . ثم خَطَّطَ لأوّلِ ترقّيهِ فى الرئاسةِ بأن اتخذَ لنفسه جُندَ سَوْء ، مالَ به طَبعُه الرَّذلُ إلى الاستظهارِ بهم على أقادمِ الجُندِ بقُرطبةَ ممن مَرَنَ على الاستقامة ، فتخيَّرَ هو مِن أراذلِ الطبقاتِ ومُصاصِ شِرارِ الناس ، وانتقاهُمْ من أصنافِ الدَّعَرةِ والدائرةِ والأساودِ

---

(١) فى الأصل : واغترى (٢) فى الأصل : فأصرع .

(٣) كذا ولعلها « الحذر » . (٤) لم يذكر جواب لمّا فى الجمل الآتية .

(٥) رسم الكلمة فى الأصل : بكلتيها .

والرقَّاصَة ، نحل[١] مِن كلّ طَبقةٍ مَرفوضةٍ ما بعثَ على الناسِ منهم ذِئاباً عادية ، وأعدَّهم ليوم الكريهة فلم يُغنوا عنه شيئًا لمَّا حاق بهِ قَضاؤه . وكانَ قد اقفرَ دارَ الخِدمَة بقُرطبةَ ونقَلَها إلى داره ، فجعلَتْ المواكبُ تزدحِمُ على بابه ، ولم يوفِّقه اللهُ لاختيارِ حاجبٍ لَبيبٍ يعلو[٢] جماعةَ حجَّابِه ، فيحمِلُ له وُجوهَ الناسِ ويرتِّبُ قُعودَهم بدِهليزه فيُطمِعُهم بخُروجه أو يعتذِرُ إليهم عنه بما يُؤيِّسُهم منه ، فيذهبونَ لسَبيلِهم مُعافَينَ من سُوءِ غِلمانه . وما كانوا يَلقَونَه إلاَّ [فى] فَصيلٍ فيه أقدامُ[٣] الرجال لسُوءِ أدبِ حَجَبَتِهِ فى حَملِهم على الناسِ بعُنفِ الردِّ . ولربَّما دقُّوا الأُنوفَ ونتَفوا الشَّواربَ غيرَ مُميِّزِينَ لطبقةِ الناس ، فحقَدوا عليهِ إلى أشتاتٍ مِن المساوِئِ نظَمها ، وأنواعٍ مِن المخازى جمَعها . وأُلقِيَ له على قُلوبِ الناسِ رَهبةٌ مع أضغانٍ[٤] شيَّبوا بها أصبغَةَ مَساوِيه ، والأقدارُ تدفَعُ عنه ، إلى أنْ حاقَتْ به فكبَا لفيه . ولم يزل يرتعُ[٥] فى مَراتعِ الباطل ، ويَلبِسُ على الناسِ أمرَهم ، وصدَّهُم عن أميرِهم ، وأخذَ اللهُ بسَمعِهم وبَصرِهم ، وتمثَّلَ لهم الجسَدَ المُلقَى على كُرسىِّ سُليمان ، فحارَتْ ألبابُهم فيه ، وتاهَتْ مِنه ، مِن وَزيرٍ فى قُعودِ أمير ، وقاضٍ فى مِسلاخِ جُندىٍّ ، وفقيهٍ على دِينٍ يُحيي بالقولِ ويَقتلُ بالفعل . فسُبحانَ من سَوَّاه من ألأمِ[٦] طينةٍ فأمهلَه مُدَّةً . مِن رَجلٍ عَهِرِ الخَلوةِ لزُهدِه فى النساء وكلَفِه بالغِلمان . واتَّخذَ دارًا آخرَ مُدَّته للخَلوةِ بهم ، فكانَ لا يخدِمه فيها ولا يَحُفُّ بهِ غيرُ خاصَّةِ غِلمانه ، ولا يأذَنُ لأحدٍ من طَبقاتِ الناس بالدُّخول إليهِ فيها . فأكثرَ الناسُ القولَ فى هذهِ الدارِ وسمَّوْها « دار اللذَّة » لأنه كانَ

(١) فى الأصل : نحل . (٢) فى الأصل : يغلوا .

(٣) رسم العبارة فى الأصل : إلا فصيل فيه أقدام .

(٤) فى الأصل : اضطغان شيبوا ، والعبارة مبهمة . (٥) فى الأصل : يرجع .

(٦) رسم الكلمة فى الأصل : ألم .

يجيئُها في أكثرِ النَّهارِ عندَ فراغِه من أحكامِه فيقضي بها راحتَه . فإذا جاء
الليلُ عادَ إلى دارِ سُكناه التي فيها أهلُه . ومِن تمامِ العَجَبِ في شأنِه أنه لم
يَكشفْه ولا نبشَ صَدَاه إلاَّ تلكَ الطائفةُ من بِطانتِه التي اختارَهُم لنفسِه مِن
أراذِلِ الطبقات ، وذلكَ مَعهودٌ في أمثالِهم . فالصَّنيعةُ لا تزكو إلاَّ عندَ ذي
٥ حَسَبٍ أو دِين .

قالَ ابنُ حيَّان : فلما قطعَ أموالَ الناسِ جُملةً عَن بَني جَهْور ، وأخلَى أبوابَهم
مِن جَميعِ الطبقَات ، ولم يَدَعْ لابنِ جَهورٍ مِن سُلطانِه غيرَ التوقيعِ وحدَه ،
وتقدَّمَ إلى جميعِ أصحابِه وحُجَّابِه أن يُدعَى بالسُّلطان . فكانَ إذا ركبَ إلى دارِ
أميرِه ابنِ جَهْور سألَ سائل : أينَ يكونُ السُّلطان ؟ قال حُجَّابُه : في دارِ الوزير .
١٠ فيجيئون بمعكوسٍ مِنَ القولِ يَمجُّه السَّمع ، دانَ لهُ النَّاسُ بذلكَ عَنوةً وخاطبوه
بالتَّمويلِ دعاءً ومُكاتبة ، إلاَّ قليلاً تمسَّكوا بالمُروءةِ فاكتسبوا لديه مقتًا[1] .
فظلَّ يزدادُ معَ الأيَّامِ استكبارًا ، ويُبطِنُ تدبيرًا ، ويُسيءُ تفطيرا[2] . أُخبرتُ
أنه قالَ [له] يومًا بعضُ بِطانتِه عندَما رآه يرتكبُ مِنَ الفواحش : خَفِّضْ عليك !
فقالَ له : وما عَلينا ؟ ! واللهِ ما بها كَلبٌ يَنبحُ فيُجتمعُ إليه ! وما علمَ الخائنُ
١٥ الشقيُّ أنَّ هناكَ شِبْلَ أسدٍ جهوريٍّ قد لَبدَ لبطشٍ به وهو عبدُ الملكِ الأصغرُ
مِن إخوتِه ، لم يَستشِرْ في الفَتكِ به غيرَ نفسِه . فلمَّا كانَ في يومِ السبتِ لسبعٍ
بَقينَ لرمضانَ سنةَ خمسٍ وخمسين أعدَّ له رَجَّالةً في فَصيلِ أبيه ، وأقامَ هو
يَنتظرُه ، وأرسلَ عنه رَسولاً كانَ أبوه يُوجِّهه عَنه . فلمَّا وصلَ إلى بابِ ابنِ
جَهور ومعَه مِن أصحابِه الناشئينَ معه نزْرٌ يَسير ، وأرادَ النزولَ على حَجرٍ
٢٠ لاصِقٍ بالباب ، وإذا بعبدِ الملكِ قد قامَ عليه بخَنجَرٍ أعدَّه له فضربَه ثمَّ خرجَ

(١) رسم الكلمة في الأصل : معنى . (٢) كذا في الأصل ولعلها تفكيرا .

عليه الرجّالةُ المُعدُّونَ له وابتدَروه كالصُّقُورةِ بالسُّيوفِ وحزُّوا رأسَه . ورَكبَ مِن حينِه عبدُ الملكِ وجعلَ رأسَه عَلى رُمحِه وطِيفَ به البلدُ كُلُّه حتَّى انتهى إلى دارِه « دارِ اللذَّةِ » ورَمَى رأسَه للعامَّةِ ، فعاثَتْ فيه وكسَروا أنيابَه ونتَفوا لِحْيتَه فأصبحَ شأنُه عَجَبا . واحتوَى عبدُ الملكِ عَلى تلكَ الدارِ وحازَها بما فيها ، وعَلى أصاغِرِ غلمانِه . واجتازَ عَلى السِّجنِ وأطلقَ مَن فيه . وسمِعَ أبوه مُحمدُ بنُ جَهورٍ خَبرَ الواقعةِ فخرَجَ دَهِشا ، ورَآه مُجدِّلاً فارتاعَ وتلهَّفَ وانتهرَ ابنَه وهو يُحاوِلُ تَطويفَ الرأسِ ولم يَقِف عَلى أبيه . وأمرَ ابنُ جَهورٍ بسَترِ جَسدِه فى دِهليزِ الإصْطبل . وتقدَّمَ بإصلاحِ أبوابِ المدينةِ ، ورَكِبَ إلى المسجدِ الجامعِ وقد دخلَ الناسُ فى السِّلاحِ وجاشوا جَيْشًا عَظيما ، وأبْدَوْا بقَتلِ ابنِ السقَّاءِ سُرورًا عَظيماً ، وأعلنُوا بالشَّماتِ به و إقداحِ[1] القولِ فيه .

وقعَدَ ابنُ جَهورٍ بالمسجِدِ الجامِعِ عَلى كُرسىِّ المُصحَفِ ، وبادرَ المجىءَ إليه لأوَّلِ الهَيْشةِ[2] الوزيرُ الزَّمِنُ ، بقيةُ وُزراءِ الفِتنةِ ، أبو إسحاقَ بنُ حمام عَدوُّ ابنِ السقَّاء كأنما أُنشِطَ من عِقال . وقُتلَ ذلكَ اليومَ مِن حاشِيَتِه نَحوٌ مِن عِشرينَ رَجُلاً . واعتصمَ أخوه بمنارِ المسجدِ الجامعِ فنَجا . وانطلقَتْ أيدى الناسُ عَلى [أتباعِه][3] فنُهِبَتْ دُورُهم . ثم أمرَ ابنُ جهورٍ بِسَوْقِ رأسِه وضمِّ إلى جَسدِه ، ووُرِىَ فى أُخدودٍ خُدَّ له ببابِ مَسجدِ ابنِ السقَّاءِ فى أطمارِه ، وهِيلَ عليه التُّرابُ هيْلاً . وسُلِبَتْ كُسْوةُ المسجدِ وثُريَّاه ، وعُطِّلَتْ فيه الصَّلاة ، فصارَ ثاوِيًا[4] للثاوى .

---

(١) لعلها إفداح أو إقذاع . (٢) فى الأصل الهبشة .
(٣) بياض فى الأصل بقدر كلمة ولعلها فى معنى ما أثبتناه .
(٤) كذا فى الأصل ، ولعلها مثوى للثاوى .

فصلٌ فى ذِكر الأديبِ الأستاذِ أبى الحسنِ علىّ بن عبد الغنى السكفيفِ المعروفِ بالُحصْرىّ واجتلابِ جُمْلةٍ من نَظْمِه و نَثرِه

وأبو الحسنِ هذا ممّنْ لَحِقتُه أيضاً بِعُمْرى ، وأنشدَنى شِعْرَهُ غيرُ واحدٍ
٥ من أهلِ عصرى . وكان بحرَ بَرَاعة ، ورأسَ صِناعة ، وزَعِيمَ جماعة . طرأَ على
جزيرةِ الأندلسِ مُنْتَصفَ المايةِ الخامسةِ من الهجرة بعدَ خرابِ وطنه بالقَيْروان ،
والأدبُ يومئذٍ بأُفْقِنا نافقُ السُّوق ، مَعمورُ الطريق . فتهادَتْه مُلوكُ طَوائفِها
تَهادِىَ الرياضِ النَّسيم ، وتَنافسوا فيه تَنافُسَ الدِّيارِ فى الأُنْسِ المُقيم ، على أنه
٩٧ كانَ فيما بلغنى ضَيِّقَ العَطَن ، مشهورَ اللَّسَن . يتلفّتُ إلى الهِجاء تَلَفُّتَ
١٠ الظمآنِ إلى الماء . ولكنه طَوِىَ على عُرِّه ، واحتُمِلَ[١] بين زَمانته
و بُعْدِ قُطرِه .

ولمّا خُلِعَ مُلوكُ الطوائفِ بأُفْقِنا حسبَ ما شرحتُ فيما تقدَّمَ من هذا
المجموعِ وأوضحتُ . وأخوَتْ تلك النجوم ، وطُمِستْ من الشِّعْرِ الرُّسُوم ، اشتملتْ
عليه مدينةُ طَنْجة ، وقد ضاقَ ذَرْعه ، وتَرَاجعَ طَبْعُه . وله على ذلك سَجْع ،
١٥ يَمجُّ أكثرَه السَّمْع ، لم يَسْمَحْ نَقْدِى أنْ أكتبَه ، ولا راقَنى أن أرْوِيَه[٢] ،
وما أراه يَسْلُك[٣] إلّا سبيلَ المعرّى فيما انتحاه ، وكانَ هو وإيّاه كما وصفَ
العباسُ بن الأحنف :

هى الشمسُ مَسْكَنُها فى السماءِ فعزِّ الفؤادَ عَزاءً جَميـلا

(١) فى الأصل : واحتفل . (٢) فى الأصل : ولا رأيتنى أن أدريه .
(٣) فى الأصل : وما أراه إن يسلك .

فلنْ تَستطيعَ إليها الصُّعودَ ولنْ تَستطيعَ إليكَ النُّزولا

أو كما قال ابنُ الرُّومى :

دَعُوا الأسدَ [تربضُ] فى غابِها[1] ولا تدخلوا بين أنيابِها

وهيهاتَ فى قُدْرَةِ العَمَى ، أنْ يَجمع بين الأرضِ والسما ، ولا بتقارُبِ الصِّفات ، تَقْتَرنُ مَنازلُ الموصوفات . ٥

أ كلُّ أبى ذُؤَيْبٍ مِن هُذَيْلٍ وكلُّ أبى دُؤَادٍ من إيادِ ؟ !

جُمْلة ما أخرجتُهُ مِن نَثرِ الحُصْرى المكفوف

فصل له من رقعة : السلامُ عليكَ أيُّها القَلْبُ الثانى ، والبعيدُ الدَّانى . الرَّاقِى فى سماءِ المَعالى ، الواقى مِنْ داءِ الليالى . أوَّلُ مَن عَددْت ، وأفضلُ مَن أعْددْت . ومَن لا زالَ النَّسيمُ فى البُكَرِ والعَشيَّات ، يُهْدِى إليه طيِّبَ التَّحيَّات . ومَنْ جُعِلْتُ وِقاه ، ولا عَدِمْتُ لِقَاه ، فإذا كان الكريمُ سَالما ، كان الزمانُ مُسَالما . ١٠

وله من أُخرى : وصَل كِتابُك أبْهَى مِن الحَلْى والحُلَل ، وأشهَى مِن القَبُول والقُبَل . وشىٌ مرقوم ، ودُرٌّ مَنْظُوم ، وأنفاسٌ عِراقيّة ، ومِيَاهٌ دِجْليّة لا زُعاقيّة . ١٥

فلو أنِّى استطعتُ من ارتياحٍ لَطِرْتُ ببعض أجنحةِ الرِّياحِ

وكنتُ أطيرُ لولا قَصُّ رِيشى وكيف يَطِيرُ مَقصوصُ الجناحِ

كِتابٌ كأخلاقِكَ لولا سَوادُه ، الهُدْبُ حُروفُه والحَدَقُ مِدادُه . فاستقبلتُ منه قِبْلَةَ الحُسْن ، وقَبَّلتُه تَقبيلَ الرُّكْن ، وقلتُ لِصَحْبى : اقرأوه

---

(١) رسم الشطر فى الأصل : دعوا الأسود فى غابها ، ولم نعثر على البيت فى ديوانه .

علىَّ . فلمَّا نَظَروه عَجِبُوا من خَطِّه ، وتعَجَّبْتُ أنا مِنْ لَفظِه وضَبْطِه . فتَنزَّهُوا بالنَّاظِر ، ونَزَّهونى بالسمعِ والخوَاطِر . فـكنتُ الأظْفَر ، وكان حَظِّى الأوْفَر ، إذْ بَصُرتُ بمـا لم يَبْصُروا به ، مِن فُنونِ العِلمِ وضُروبِه .

قولهُ : « فتَنزَّهُوا بالنواظر ، وتَنزَّهْتُ بالسَّمْع والخواطِر » معنًى مُتداولٌ ٥ منقول ، وكأنّه مَحلولٌ من قول الرَّضىِّ حيثُ يقول :

فاتَنى أنْ أرَى الدِّيارَ بعينى فلعلى أرَى الدِّيار بسَـمْعى

وله فصل من أُخرى : والعِلم مِنهاج ، وسِراجٌ وَهّاج ، ما صَدِىَ مَنْ سَقاهُ صَوْبَ صَفائه ، ولا عَرِىَ مَن كَساهُ ثَوْبَ عَرائه[1] . ولا حافَ عن الحقِّ لسانُ مَن يَرْويه ، ولا خافَ مِن الخَلْقِ جَنانُ مَن يَحْويه . هو الجوهرُ ١٠ استخرجَتْه[2] أفكارُ الليالى مِن بُحورِها ، فالتقطَتْه أبكارُ المعالى لِنُحورِها . وجَمْعُ العلوم كمال ، والأدَبُ منها جَمال ، هو لسانُ النبىِّ العَرَبى ، صَلّى اللهُ عليه . فَقيهٌ يَلحَن ، حِمارٌ يَطْحَن ، وكاتِبٌ غيرُ أديب ، أشبَهُ الحيوانِ بذِيب ، وشاعِرٌ غيرُ مُعرِب ، أشبَه مِن بانٍ بِمُخرِّب . رُبَّ وزيرٍ يُعْجِبُ الناسَ وهو صامِت ، فإذا نَطَقَ فـكلٌّ حاسِدٍ به شامِتْ .

١٥ وله مِن رُقعةٍ طويلةٍ : خاطَبَ بها أبا الحُسَيْن بن الطَّرَاة ، وجرَت بينهما هِناتٌ ، قال فى أولها :

يَمُوتُ مَن فى البلادِ طُرًّا مِن طَيِّبٍ كان أو خَبيثِ
فمُسْتَرِيحٌ ومُسْـــــتَراحٌ منه كذا جَاء فى الحديثِ

ما حياتى بينَ الحَيَّـات ، وثَباتى فى الجميع أو الثُّبـات ، وقد حانَتْ وفاةُ

(١) كذا فى الأصل ولعلها (غنائه) أو ما يشبهها .
(٢) فى الأصل : استمزجته أبكار .

الوَفاء ، وخانَتْ صِفاتُ الصـفاء ، وأرداني الزمانُ بأردانه ، وأعياني بتقلبِ أعيانه ؟ الجاهِلُ هو الحاظِى ، والعالِمُ مَبخوسُ الأحاظِى[1] ، والغاوِى مَقبُولُ الدّعاوِى . وما أبعدَ الخَيْرَ مِن العَيْر ، والـكَيْسَ مِنَ التَيْس ، والفَضْلَ مِن الفَسْل ! إذا كانَ الجاهُ للجاهِل ، والباسُ على الباسِل ، والمُنافِقُ هو النافِق ، وصَوّحت المَرَاعى ، وقلّ المُساعِدُ والمُراعى ، فيا دهرُ ما أَسْهاك ، ويا مَوْتُ ما أشهاك ، ٥ المَنيّةُ هى الأُمنيّة . فالبَرُّ بائِر ، والحُرُّ حائِر ، بينَ أَخْوَنِ[2] إخوان ، وأجورِ جيران ، إنْ وصَلَهم صَرمُوه ، أو سألَهم حَرمُوه . وإنْ أجاب بالصّواب ، قالوا أخطأ فى الجواب .

وممّا أضحكنى مِلء فِيّ ، وأطاشَنى وليسَ الطيشُ فِيّ ، هـذا المُتنَحوِى ٩٨| المُتنَخوِيّ . سَقَطَ إلى دانية ، وطَمِعَ فى الأجادل ، وإنْ كانَ أضعَفَ من ١٠ العَنادِل ، فعادَ ذَمِرا ، وإن كان زَمِرا ، وبَعثَ رسُولَه لى يَقول : كيف تكتف نقرى ؟ فقلتُ : إنْ كانَ الجُنونُ داءً فالـكَيُّ يُـبْرِى . ونَظمتُ قصيدةً سمّيتُها سهْمَ الشّهْم ، وضَمّنتُها مسائِلَ لا تَخفَى على أُولى الفَهْم . فما بَلغتْه حتى دَمغتْه ، وألقاها كأنّها حيّةٌ لدَغتْه .

وفى فَصْلٍ منها : وأمّا زعْمُه أنى لم أدرِ اسمَ سيبويه فمن مُضحِكاتِ الدهر ، ١٥ أما كفاه خطَؤه فى الآياتِ والأبياتِ حتى تعرّض لعِرْضى غُرورا : « إنْ هذا إلاّ إفكٌ افتَراه وأعانَه عليه قَوَمٌ آخرون » ، فقد جاءوا ظُلْماً وزُورا . أنا الذى سبقتُ الشُّعراء ، وفَضحتُ فى المحافلِ الوُزَراء . فلوْ لاذَ بسُورِ حِلْمى لَحميتُه ، ولو عاذَ بنُورِ عِلْمى لَهديتُه . أيّها المُموّهُ بجهلِه ، والمدّعى العلمَ وليس مِن أهلِه ،

---

(١) فى الأصل : الأماظى . (٢) فى الأصل : أخوين .

سَكِرْتَ فصَحْوكَ لا يحرِمُك . اعترِفْ بذَنْبِك ، قبلَ صرعِك على جَنْبِك ، فيدحَضَ حِجاجُك ، وتَطمِسَ مَحاجُّك ، إلامَ تَلجأُ فتاوِى ، إذا نفدَتْ فيك الفتاوى ؟! وكأنى بمن ضمّكَ قد ضامَك ، وبمن لَمّكَ قد لامَك ، وبمن حلاّك ، قد خلاّك ! الحقائقُ واضحة ، والمخارِقُ فاضحة . تَشَبَّه بالحَصِىّ أما يُدرَى الفحلُ مِن الخصِىّ !! مَثَلُ العالِمِ والجاهل ، مثلُ الناهقِ والصاهل .

وليسَ يَصِحُّ فى الأفهامِ شىءٌ   إذا احتاجَ النهارُ إلى دليلِ

وزعمَ هذا الأهوجُ الأعوجُ أنه لم يعرِفْ رَسْمِى ، ولا سَمِع باسمِى ، كأنّما وُلِدَ بالأمس ، أو بُعثَ مِن الرّمْس ، أو عَمِى عن الشمس ، لو عَلِمَ قَدْرَ نفسِه لم يَجهلْ العَلَم ، ولو أرادَ السلامةَ لألقى السّلَم .

وفى فصل منها : يا مَهْمُوس ، أنا الطاء ، وأنتَ الهَواء ، فلستَ من طِباقى ، كم بينَ هَمْسِكَ وإطباقى ! لو زُرتَ نُقرانَ[1] ونجْرانَ ، لألفيتَ ذِكْرى قد علا ، وشِعْرى قد غلا . ما أعيانى[2] فى غَيْب ، إلّا ذُو عَيْبٍ وخِيم ، مع لؤمٍ مَعْلُوم . ولولا بَدْؤك بالنَجْه ، لما كَببتُك على الوَجْه . وكنتَ فيما تَظنُّ نُورًا فكسفتُك ، ومستورًا فكشفتُك . وما استوعبتُ خطاك ولا استقصيتُه ، ولو رمتُ عددَه ما أحصيتُه . وهل شِعْرُك إلّا كنَحْوِك ؟! وما أبردَ الهواءَ من نحوِك ، ألستَ المُنشِد فى الحاجبِ أبى حَكَم :

أبا حَكَمٍ فُتَّ الملوكَ جلالةً   فكلُّهم فأسَ المخافةِ عالِكُ

لو زِدْتَ الياءَ فى فاسِك ، لكانَ أشبَه بأنفاسِك ؟

وله من أخرى إلى الأديب غانم بمالقَه : أبَى صَرْفُ القضاء ، وشَبيهُ لسانِك فى المَضاء ، ونَظيرُ صدرِك ويدَيْك ، فى سَعَةِ المعروفِ والعُلوم لديك ،

(١) فى الأصل : نقدان .   (٢) رسم الكلمة فى الأصل : ما أعمانى .

أن أكونَ مِن زُوّارك ، فأقبِسَ من أنوارِك ، وأقطِفَ من أنوارِك يا لُباب أُولى الألباب ، يا سلسبيلَ أبناءِ السبيل .

فارَقتنى وأنا والشوقُ إلفانِ فاسألْ رَسولَك عنى كيفَ ألفانى
قبّلتُ كُتْبَكَ مِن فرطِ الهوَى قُبَلاً أقلُّهن إذا عدّدتَ ألفانِ

ولما شُقتنى بغُرَرِك الأثيره ، ورُقْتَنى بدُرَرِك النَّثيره ، ذممتُ عبدَ الحميد ، ومحمدَ بنَ العَميد ، وأنشدتُ :

لقد فاتَ فى نثْرِه غانمٌ بديعَ الزمانِ وقابُوسَهُ
ورَوّى الظِّماء بماء النعيمِ فلا عيشَ إلّا وقى بُوسَه

وكنتُ — أبقاكَ الله مَنهلاً عذبًا لأوِدّائك ، ومُنْصُلاً عَضْبًا على أعدائك — صَنَعْتُ قصيداً يُحيي الطَّرَب ، إذ كانَ فيه تِسعةٌ وتُسعون بَيْتًا ، وكنتُ كتبتُه ، فلم أَجِدْهُ إذْ طَلبتُه ، وفكّرتُ الآنَ فيه ، فلم أحفَظْ غيرَ قوافيه ، وهذين البيتين :

تحيّتى وسلامى على الأديبِ البَليغِ
المُرْتَدِى بالمعالى والحِلمِ قبلَ البُلوغِ

وأنا ربُّ القريضِ الجيِّد ، لأنى أقولُ فى الأديب السيِّد .

مِن طِينِ طُوبَى خُلِقْتَ فَذًّا فأنتَ فى ذا الوَرَى غَريبُ
بُدِّلَتْ النونُ فيكَ باءً فالناسُ طِينٌ وأنتَ طِيبُ

وله من أخرى إلى أبى الفضلِ ابنِ حَسْدَاى اليَهُودى[1] شاكيًا بصِهْرِه ابن عبّاس : سَيِّدِى الذى خُتِمَتْ عليه المِنَحْ ، فَخُتِمَتْ به المِدَح . حَفِظَ اللهُ عُلاكَ حِفْظَ سمائه ، وأعاذكَ من العَيْنِ بأسمائه . بحُسْنِ أوْصافِك ، احكمْ

(١) وقعت لفظة « اليهودى » فى الأصل بعد (ابن عباس) بدلا من (ابن حسداى).

٩٩| بإنصافك . أترضى لِصهرك المُشْرِف ، بأخلاق البخيلِ المُسْرِف ؟ قصدتُ بالرِّهان للسَّلَف ، فعدتُ بالدِّهَانِ والصَّلَف . وسألتُ في الزَّمان ، فأُعطيتُ عَطاء الزَّمَان ، وأنا شاعرُ الزمانِ فأحطّ ، فما رفعَ أو حطّ ، ولا بدّ أنْ أنشُدَه لأُرشدَه :

أيُّها المُشْرِفُ حاشا … لأُولى الرأيِ الخطاء

٥ لا تقُلْ ما بيَدِى ما … لٌ ولا عِنـدى عطَاء

بيْتُ أموالِكَ بحـرٌ … ما على البحرِ غِطَاء

أحمَدٌ غــيرُ علِيٍّ … حينَ يَشتَدُّ الوِصَاء

هَل هما في الهمْسِ والإطبــاقِ إلّا ها وطـــاء

وكذاكَ الخَيْلُ مِنهـــنّ سِرَاعٌ و بِطَـــاء

١٠ وصَديقُك إن لم يأتِ فابْسُط عُذْرَه بهذه الأبيات :

عِرْفانُ عرْفِك شاقنى … فلو استطعتُ لساقنى

ما بالُ صِهْرِك صدَّنى … وإلى سَناكَ أناخنى[1]

وأنا الرَّحيقُ سُقِيتَه … فاسألْهُ كيفَ أراقنى

ولقد حلَوتُ وليتنى … أمرَرْتُ لمّا ذاقنى

١٥ قد كنتُ رَحْبَ الصَّدْرِ حتّى غاظَـــنى فأذاقنى

هو عقّنى وبَرزَتنى … هو عن لقائكَ عاقنى

إنّى أخفُّ على [الوزيــرِ] ولو ثقُلْتُ لطاقَنى

نَفسِى فِداؤُكَ يا أبا الفضـ … ـلِ الذى قد رَاقنى

أحبَبْتُه وأحبّـــنى … فاشْتقتُه واشتاقَنى

٢٠ من سالَ عنكَ أجبتُه … ما فُقْتُهُ بلَ فاقَنِى

(١) فى الأصل : أناقنى .

ما أخرجتُه من شِعْره فى أوصافٍ شتّى

النّسيبُ وما يتشبّبُ به :

أعبدُ ريّانَ بماء النّعيمْ ... ألبسَنِى السُّقْمَ بلحظٍ سقيمْ
قد خطَّ بالمِسْكِ على خدِّهِ ... ما الحُسْنُ إلّا لأديمِى أديمْ
يا عاذِلًا يَحْسَبُنى[1] مِثْلَه ... لاتحْسَبِ السّالمَ مثْلَ السَّليم ٥

وقال :

وهبتُ قُوَايَ للحدَقِ الضعافِ ... وإن كانتْ بسفكِ دمى تُكافِى
فكانَ الضّعفُ قوّتَها علينا ... وهل ذا الطبعُ إلّا فى السُّلَافِ !
شُغِلنا عن مُساعدةِ اللواحى ... بشاغِلَةِ الحجيجِ عن الطَّوافِ
خضبتُ الشيبَ أخْدَعُها فقالت ... تَشبَّهتِ الحمامةُ بالغُدافِ ١٠
فقلتُ صدقْتِ لِمْ أنكرتِ منى ... وأنتِ عَفيفةٌ نبْتَ[2] العفافِ ؟
فقالتْ بيننا فى الشيْبِ خُلْفٌ ... ويُفتِينا بمسألةِ الخلافِ
ولمّا أينعتْ رُمّانتاها ... ونادَى الوَصْلُ حَىَّ على القِطَافِ
تأذّتْ فيهما بفَمِى فقالتْ ... شمائلُ عاشِقٍ وفَعالُ جافِ

قوله : « تَشبّهتِ الحمامةُ بالغدافِ » كقول القائل : ١٥

يا أيُّها الرجلُ المُسوِّدُ شَعْرَهُ ... كيما يُعَدَّ بهِ من الشُّبّانِ
أقصِرْ فلو سوّدْتَ كلَّ حمامةٍ ... بَيْضاءَ ما عُدَّتْ من الغِربانِ

وما أملحَ قولَ أبى بكرٍ الخالدِيّ :

ما كانَ ينفعُه لدَىَّ شبَابُه ... فعلامَ يُجْهِدُ نفسَهُ بخِضَابِه !؟

(١) فى الأصل : يحسبى . (٢) رسم الكلمة فى الأصل : سبت .

وقال الحُصْرى :

مَن لى بظــبيٍ جَناه معسولُ ... دَمى بِدَمْعى عليــهِ مَغسُولُ

أقرأُ فى خَدِّهِ كِتابَ هَوًى ... أنَّ دمَ العاشِــقِينَ مَطلولُ

حُسَامُ عينيــكَ من فُتُورِهما ... كأنَّه مُغمَــدٌ ومَسلُولُ

٥ اغمدْ وسُــلَّ ليسَ لى وَزَرٌ ... أنا على الحالتَــيْنِ مَقْتُولُ

وقال :

رُدِّى حُشاشةَ عاشِقٍ مهجورِ ... بينَ المَلُومِ عليكِ والمَعــذُورِ

للؤلؤِ المنظومِ فى فَمكِ انبرَتْ ... عَــبَراتُه كاللؤلؤِ المَنثُورِ

ذَكرَ الفِراقَ فماتَ إلاَّ شوقَه ... وأُولُو الهوَى مَوْتَى بغيرِ قبُورِ

١٠ ودَّعتُ مَن أَهوَى بلِ استودَعتُها ... قَلْبى وسِرَّ مَدامِعى وزَفيرِى

فبكتْ بنَرجِستَينِ خِفتُ عليهما ... نفسى فلم أَلثِمْ بغيرِ ضَمِيرِى

قالت : أتَرحَلُ والأحِبَّــةُ هٰهُنا ... قلتُ : القضاءُ كما علمتِ ضَرورِى

قالتْ: متى الرُّجْعَى فقلتُ: إذاانتهى ... (١مَقدورُ ربٍّ ، مُقدِّرِ المَقْدُورِ١)

وعَسَى مُفرِّقنا سيَجمَعُ بيننا ... إنَّ العَسِيرَ عليــه غيرُ عَسِيرِ

١٥ ولئنْ أَبَى مَن تعلمينَ فرُبَّما ... حدثَتْ أمورٌ لانتقاضِ أُمُورِ

لا تجْزعِى مِن نَكْبةِ الدُّنيا وإنْ ... ساءتْ فرُبَّ مَساءةٍ لسُرورِ

وله فى غلام كان يُسَمَّى هارون :

يا غزالاً فَتَنَ النا ... سَ بعينَيْهِ فتُونا

أنتَ هارُوتُ ولـكنْ ... صَحَّفــوا تاءَكَ نُونا

٢٠ وقال مما ذَهبَ به مَذْهبَ أبى الفتح البُستى صاحبِ الطريقةِ الأنيقةِ فى تَجنيسِ القَوافى :

(١ — ١) فى الأصل : مقدور من يقدر للمقدور .

أصبحتُ مَفْتُونًا بكمْ مُدْنَفًا وإنمـا بُرْئِى لمَى فَاتِنى

يا أملحَ الناسِ وحَقِّ الهَوَى لو كانَ لى الحُكْمُ لما فاتَنِى

وقال : رابَه عِلّتى[1] ضَنًى فأتانى عائدًا فى يَدِه [لى] ياسَمينُ ١٠٠

فتفاءلْتُ أنّه قد تهدَّى لهُزالى فقالَ لى يا سَمِينُ

وقال : رُبَّ ظَبْىٍ هويتُـه يَنْتَمِى للهـوازنَهْ ٥

قُلْتُ ما أثقلَ الهَوَى قالَ ما للهوَى زِنَهْ

وقال : إنْ كتمتُ الهَوَى فقَدْ صارَ سِرّى علانِيَـهْ

لسَـقامٍ أذابنى وشُحوبٍ عَلانِيَـهْ

وقال :

فَـكّرتُ فى خَلقِ الوَرَى فاستَوى عندى عبيدٌ وسـلاطِينٌ ١٠

أصلُ الفَرِيقَيْنِ — ومِن أجلِ ذا قَلْبِى عن[2] الهمِّ سَلا — طِينُ

وكانَ سألَ بعضَ المُلوكِ أن يكسوَه ومَطَله ثم أعطاه قمحًا مُسوِّسًا ، فقالَ فيه :

يُرِيدُ سِياسَةً مَن لا يُسَمَّى وطَبعٌ فيـهِ يأبَى أن يَسُوسا

سألتُ كُسًى فمنَّانِى بقَمْحٍ وأعطانى مكانَ القمحِ سُوسَا

وقال أوّلَ جَوازِه إلى الأندَلُس : ١٥

فى كلِّ أرضٍ مَوْطِنٌ يُعرَفُ فيـه جاهُنا

وإنمـا ألجأنا إلى هُنـا إلهُنا

وقال : يا منَ تكحّلَ طَرفُها بالسِّحْرِ لا بالإثمِدِ

نَفْسى كما عذّبتِها وقتلتِها بالإثمِ دِى

وأنشدَ يومًا بيتَ المعرّى :

ياقُوتَ يا قُوتَ رُوحِى رُوحِى براح براح ٢٠

---

(١) فى الأصل : على . (٢) فى الأصل : على .

وفيه سِتُّ كلماتٍ مُتجانِساتٍ على قِصَرِ عَرُوضِه .
وكُلِّف تَذييلَه فقال :

أوفاكِ أوفاكِ رِقّى رِقّى بِطاح بِطاح[1]

فقيل له لو ذيَّلتَه ببيتٍ فيه ياءُ النداءِ كما فى بيتِ أبى العلاء ، فقال :

٥ يازَوْرُ يازَوْرُ فيها فيها نُواحِى نُواحِى

وقد قلتُ فيما تَقدَّمَ من تلخيصِ التَّعريفِ بخبرِ الحُصْرى إنه اتَّبعَ المعرِّىَّ فى سُلوكِ هذه المسالك ، فضَلَّ عنها هُنالك . على أنه لا يَتفق لأحدٍ لضيقِ هذا الباب ، أكثرُ من الوَزْنِ والإعراب .

وله فى المديح :

١٠ قال :

ظَمِئْتُ ومُنْهَلُّ المدامِعِ مَنْهلى ... ولا حَوْمَ لى إلاَّ على وِرْدِ حَوْمَلِ
على سَلْسَلٍ مِن ذى غُروب[2] وإن غدَتْ ... رمالُ الفَيافى كالرِّواء[2] المُسلسَلِ
فيا نُعْمُ وافاكِ النَّعيمُ فأنعِمى ... ويا جُمْلُ وَالاكِ الجمالُ فأجْملِى
حَلفتُ لربّاتِ الخُدودِ بما جَنَى ... فَمُ الصبِّ من وَرْدِ الخُدودِ المُقبَّلِ
١٥ وما صَامَ مِن خَصْرٍ لهنّ مُخفَّفٍ ... وأفطَرَ مِن رِدْفٍ لهنّ مُثقَّلِ
وما وَرَّدَتْ مِن أدمُعى بمُورَّدٍ ... وما خَلخلَتْ مِن أضلُعى بمُخلخَلِ
وما شاقَنى مِن شَقِّ جيبٍ ومَدْمعٍ ... أسيلٍ على خَدٍّ أسيلٍ بمأسَلِ
لأنتنَّ أشفَى للسليمِ مِن الرُّقَى ... وأطيبُ للظمآنِ مِن كلِّ سَلسَلِ
وإنْ يكُ دَهْرى ضَمَّنى ثم ضامَنى ... فإنَّ عليًّا خيرُ مَوْلًى ومَوْئلِ
٢٠ هُمامٌ إذا [ما] هَمَّ بالأمرِ فامتطَى ... عزيمتَه ناءتْ برَضْوَى ويَذبُلِ

(١) هذه الأبيات الثلاثة المجنسة غير واضحة المعنى ولم نعثر عليها فى مظانها الأخرى
(٢ — ٢) رسمها فى الأصل : وإن عوت معالى القوافى كالراده .

وقال من أخرى :

على العُدْوَةِ القُصْوَى وإن عَفَتِ الدارُ سلامُ غَريبٍ لا يؤوبُ فيزدَارُ
وحُقَّ بُكاءُ العَيْنِ والقَلْبُ مُسْعِدٌ لمن باتَ مِثْلِى لا حَبيبٌ ولا جارُ
أُعادَى على فَضْلى واستَصحِبُ العِدَى ولى حَسَناتٌ عندهم هى أوزارُ
مَديحى هِجاءٌ وابتسامى تَجهُّمٌ وشَكْوَاىَ كُفْرٌ واعترافِى إنكارُ ٥
ولم أرَ مِثْلِى فاضِلاً يَنْقصونه بَلَى قلَّما يَخْلو مِن القَرْضِ دِينارُ
عزيزٌ علينا أن نُقيمَ بذِلَّةٍ فليتَ حشايانا الوطيئةَ أكوارُ
شَفَى اللهُ داءَ القَيْرَوانَيْنِ بعدَنا فقد مَرِضَتْ للقَيْرَوانَيْنِ أبصارُ
وكيفَ غِناءُ الطيْرِ فى غيرِ أيْكِها وقد بَعُدَتْ عنها فِراخٌ وأوكارُ ؟!
وإنّى لأَوْلَى بالبُكاءِ لأنَّها تَطيرُ إذا اشتاقَتْ ومَا أنا طَيَّارُ ١٠
ألا يابُرُوقاً لُحْنَ من نحوِ صَبْرَةٍ وليسَ لها إلاّ دُمُوعِىَ أمطارُ
عسَى فيكِ من ماءِ الحبيباتِ شَرْبةٌ ولو مِثْلَ ما يُوعِى من الماءِ مِنْقارُ

ومنها يعتذرُ ممّا كان قُرِفَ به :

أُصيبَ قَصيدٌ فيه كُفْرٌ فنِيطَ بى وكم شاعرٍ قِيلتْ على فيهِ أشعارُ
ومن كلِّ كَفٍّ قد رُميتُ بصَخرةٍ وفى راحتى لو أمكنَ الرأْىُ أحجارُ ١٥

وله من أُخرَى فى المُعْتَمِد :

أعنِ الإغريضِ أم البَرَدِ ضَحِكَ المتعجِّبُ مِن جَلَدِى !

يقول فيها :

يا هاروتىَّ الطَّرْفِ تُرَى [كم لكَ] نَفثاتٌ فى العُقَدِ
قطعتَ الأُسْدَ بلا أسَلٍ عَبثًا وقتَلْتَ بلا قَوَدِ ٢٠

رَشَأٌ يَصْطَادُ الأُسْدَ وكَمْ ... رَامَتْه الأُسْدُ فلم تَصِدِ
وَاهًا لجديدٍ منك وَهِي ... وشباب بانَ فلم يَعُدِ
رُضْتُ الأيامَ جَوامحَها ... وكففتُ الُّلدَّ عن الَّلدَدِ
وبَلَوْتُ الناسَ فلستُ أَرَى ... كبنى عبّادٍ مِن أحدِ
٥ القومُ بحارٌ مَسْجورا ... تٌ(١) مَحْفُوفاتٌ بالزَّبَدِ
لم يعدِمْ وارِدُها دُرَرَ الْ ... آدابِ ولا دُرَرَ الصَّفَدِ
أبنى عبَّادٍ ما حَسُنَتْ ... إلّا بكمُ الدُّنيا فقد (١٠١)
نَقَدَ الكُرَماءَ الدهرُ معى ... فتخَيَّرَكم فى المُنْتَقَدِ
وقضَى لكُمُ بالفضلِ على ... مَن فى أدنَى أو فى البُعُدِ
١٠ دانَتْ بغدادُ لقُرْطُبَةٍ ... وَخَلائفُهَا لِلمُعْتَمِدِ
سَمِعُوا برشَادِ فَتًى لَخْمٍ ... فنفَوْا هُرونَ عن الرَّشَدِ
قرأوا شِعْرَ اللَّخمِىِّ فلم ... يَرْضَ المُعتَزُّ عن الولدِ
يا فَرْعَ المُنْذِرِ والنُّعما ... نِ بلغتَ النَّجْمَ فَطُلْ وزِدِ
طُفِئَتْ أنوارُ أُمَيَّةَ فى ... قَصْرِ الخُلفاءِ فقلتَ قدِ
١٥ نافَسْتَ بقصرِهمُ إرَمًا ... فكأَنَّ أُمَيَّةَ لم تَشِدِ
مُرْ وافتتحْ باقىَ أندَلسٍ ... ما فى صَبَبٍ أو فى صَعَدِ
عبدُ الرحمنِ ولِى خمسينَ ... وأنتَ تَزِيدُ على العَدَدِ
لو أنَّ الأرضَ بلا جَبَلٍ ... وعليها حِلمُكَ لم تَمِدِ
بَشّارٌ أَمَّكَ مُمْتَدِحًا ... فأْنَسْ بغرائبه الشُّرُدِ
٢٠ يَكبو عَبُّودٌ فى خَبَبٍ ... فالعَيْرُ وَرَاءَ المُنْجَرِدِ

---

(١) فى الأصل : مسجورات الجود .

ولعلّ بلادَكَ لى وَطَنٌ فأَحُطَّ الرَّحْلَ عن الأُجُدِ

وأقابِلَ منكَ سَنَى قمرٍ لو قابلَه الأعمَى لَهُدِى

ولهُ من أُخرى : وهى من أعلاجُجَجِه ، وأجلَى سُرجِه ، أنشدَها أحمدَ ابنَ سُلَيمانَ بن هُودٍ المتلقِّبَ كان من الألقابِ السُّلطانيَّةِ بالمقتدرِ حينَ غلبَ علىَّ بن مُجاهِدٍ على دانِيَة : ٥

كذا تفتضُّ أبكارَ البلادِ ولا مَهْرٌ سوى البيضِ الحِدادِ

هدَيتَ العَسكَرَ الجرّارَ ليْلًا فأَهدَيتَ الظُّباةَ إلى الهوادِى

مَلأْت بهِ الفضاءَ فضاءَ ليلٌ محتْ فيه الظُّبا شكلَ السَّوادِ

وما أقبلتَ إلّا بعدَ ما قَد سَقَيتَ الثَّغْرَ من ثُغَرِ الأعادِى

وكانَ مَرَامُ دانيةٍ عزيزاً فهانَ على المُسَوَّمَةِ الجيادِ ١٠

فآثرتَ العَوالى فى المعالى وآثرتَ الصَّلادِمَ فى الصِّلادِ

كأنَ سُيوفَكَ الأقدارُ تَجْرى بما شاءَ الإلهُ على العِبادِ

ومِثلُكَ مَن جَنَى ثمرَ الأمانى وآتى حقَّه يومَ الحَصَادِ

تَشاغَلتِ الملوكُ بمن دَهاها وشُغلُكَ فى جهاتكَ بالجهادِ

بناكَ اللهُ للاسلامِ حِصْناً وعلّمكَ التجلُّدَ للجِلادِ ١٥

وتَنهضُ والثقيلُ عليكَ خِفٌّ وتَنظرُ والخَفىُّ إليكَ بادِ

وكيفَ يُنافسونكَ فى المعالى وأنتَ سَبقتَهم سَبْقَ الجَوادِ ؟

فَتحتَ مَعاقِلاً لو أبصَروها لقالوا أنتَ لُقمانُ [بنُ] عادِ

وفى سَرَقسطةٍ لكَ دارُ مُلكٍ زَرَيتَ بها على ذاتِ العِمادِ

ورأْيكَ فى الإدارةِ لو رآه مُعاويةٌ لأُغنِىَ عن زيادِ ٢٠

لقدْ أربتْ[(١)] سُيوفُكَ يومَ سُلَّتْ على قُسِّ بنِ ساعِدةَ الإيادِى

---

(١) فى الأصل : رايت .

ذكرُ الخبرِ عن دانية
وكيفَ تغلَّبَ عليها يومئذٍ المقتدر

قالَ ابنُ بسَّام : قد قدَّمتُ فى أوَّلِ القسمِ الثالثِ من هذا المجموع ذِكرَ مُجاهدٍ العامرىِّ المُنتزى كان ، وقته ، على دانِيَة ، وشَرْحَ الأسبابِ التى أنشأَتْ سَحابه ، وربَّضت [١] على دانيةَ وِهادَه وهِضابَه .

وغَلبت الرومُ فى بعضِ أيَّامِ سُلطانه على جزيرة سَرْدانية ، التى كانت من فُتوحه قبلُ ، ففلَّتْ شَباتَه ، ونَهنهَتْ شَذاتَه . وأسرَتْ ابنَه عليًّا هذا ، فنَشأَ عِلجاً مُتجهِّماً ، وأعْجَماً طِمْطِما ، إلى أن افتكَّهُ أحدُ آلِ حمَّاد أمراء بنى مَناد ، فأسدَى البَيْضاءَ فيه ، وخَلَع على عِطفَيْه بُرديه . فلمَّا خَفقَ عَلَمُه ، وتمكَّنَ فى مَقامِ أبيه قَدَمُه ، ألقَى السلَمَ ، وأغمدَ السيفَ وشامَ القلَمَ . هِمَّتُه كانت فى خَراجٍ يجبيه ، لا فى مَعقلٍ يجتَبيه ، وهمُّه المتجرُ يُنميه ، لا المَفخرُ يحميه . أصبُّ خَلقِ اللهِ بلبُوس ومَطعَم ، وأصباه إلى دِينارٍ ودِرهَم . حتّى ولاَّه البرُّ حلْىَ عُقدِه ، ورَماه البحرُ بأفلاذِ كَبِدِه ؛ ورُزقَ عِدَّةَ بناتٍ أحسنَ من الشُّموس ، وأفتنَ من الطَّواويس . فتبارَى مُلوكُ الطوائفِ بأفقِنا فى نِكاحِهنَّ ، وتنافسوا فى غُدوِّهنَّ إليهم ورَواحِهنَّ . واغتنمَ هو ذلكَ مِنهم ، وأذكاهنَّ عليهم عُيونا ، وبناهنَّ بينَه و بينهم دُروباً وحُصونا ، مُعتقِداً أنَّ الصِّهرَ رَحِمٌ لا تُجفَى ، وطريقٌ إلى رَعْىِ الذّممِ لا تَخفَى . فقلَّ مَلِكٌ منهم إلاَّ وقد عَلِقَ له به حَبل ، واتَّصلَ بينَه و بينَه نَسْل . فسَما إليه منهم ابنُ هُودٍ المذكورُ سنةَ سبعٍ وستينَ يُريه أنَّ الناسَ مَأكولٌ وآكِل ، وأنَّ القياسَ أكثرُه باطِل . من رَجلٍ لا يَستظلُّ

---

(١) فى الأصل : ورضت .

١٠٢ إلاّ أعلامَه ، ولا يرضى إلاّ أحكامَه ، ولا يستشيرُ إلاّ حُسامَه ، فجرَّ إليه الهِضابَ كتائب ، وملأ عليه الشِّعابَ مُرْداً حَباحِب[1] وَجُرْداً نَجائب .

أخبرنى غيرُ واحدٍ أنه لم يَبْقَ ملكٌ من مُلوكِ أُفقِنا سمِعَ بمَخرَجِ ابنِ هُود يومئذٍ إلاّ توقَّعَه وتوقّاه ، وظنَّ أنه لا يُرِيدُ سواه . وإنَّما كانَ يُرِيدُه ، زَعموا ، على قِلاعٍ كانت تتَّصِلُ ببلدِه ، ليَضمَّها إلى أميرِ طَرطوشة وقتَه ، ٥ من ولَدِه . فلمْ يَرُعْ ابنَ مُجاهدٍ إلاّ مَجرى الجيادِ بحيثُ يَرَى ويَسمع ، ولا نَبَّهَه إلاّ مَجرُّ الصِّعاد ، بحيثُ لا يُعطِى ولا يَمنع . فاستُطِيرَ فَرَقا ، وقامَ وقَعَدَ تبلُّداً ونَزَقا . وحينَ عَلِمَ المُراد ، وفَهِمَ الجَلِيَّةَ أو كاد ، أعطى فَضْلَ القِياد ، وكتبَ إلى عُمّالِه بإخلاءِ تلكَ البِلاد .

١٠ فلمّا أخذَ ابنُ هودٍ فى إيابه ، وخَلا ابنُ مُجاهدٍ بطوائفِه وأحزابِه ، عنَّفوه بما فعل ، وزَيَّنوا له الغدرَ به وقد رَحَل . وأُتِيَ ابنُ هودٍ ، وقد سارَ غيرَ بَعيد ، بكُتُبٍ طيَّرها ابنُ مُجاهدٍ إلى عُمّالِ تلكَ المعاقل ، يأمرُهم بالتحصُّنِ والاحتيال ، ويَحضُّهم على الجِدِّ فى القِتال . فكرَّ المقتدِر ، ولم يَرُعْ أهلَ دانيةَ إلاّ اتِّصالُ الخَيْل ، وقد انصبَّتْ عليها انصبابَ السَّيلِ بالليل . وضَرَبَ أبنيَته بحيثُ ١٥ يُسمَعُ الحِوار ، ويُحمَدُ الجِوار ، فاستولَى الجزَع ، وضاقَ المتَّسَع . وأخرجَ إليه لحينِه ابنَه الذى كانَ قد سمّاه مُعِزَّ الدَّولة ، ورَشَّحه لجرِّ أذيالِها ، وعلَّمه مُمايلةَ ظِلالِها . فجاءَ إلى ابنِ هُودٍ مُدِلاًّ بقديمِ صِهرِه ، عاثِراً فى إدبارِ أمرِه وانقطاعِ ذِكْرِه ، من رجلٍ قليلِ الطَّبْع ، ثقيلِ السَّمْع ، ضيِّقِ الذَّرْع ، قد غُذِى بالتَّرفِ واللِّين ، « ونَشأ فى الحِلْيةِ وهو فى الخِصامِ غيرُ مُبين » . فطفِقَ ابنُ هُودٍ يَقرعُ له ٢٠ عَصا الوَعيد ، ويَرمى به مُضِلّاتِ البِيد . وهو يَقول : أىْ عمِّ ، تبلغُ رِضاكَ !

---

(١) فى الأصل : أحاجب .

ومتى اختلفنا عليكَ أو خالفناك؟ فقالَ له ابنُ هُودٍ فيما قال: واللهِ لا أُرِيمُ العَرْصةَ حتَّى يَسهُلَ مَرامُها، ويُخلَّى فى يدىَّ زِمامُها، يعنى تلكَ المعاقِلَ. فقالَ له مُعزُّ الدولةِ الجبانُ الجاهلُ، وظنَّه يُرِيدُ دانيةَ: أىْ عمّ! وأينَ تَنقلُنا، وإلى مَن تَكِلُنا؟ ولم يَفطِنْ ابنُ هُودٍ لما قصَد، وكانَ إلى جَنْبِه وزيرُه ابنُ أحمد، فغمزَ يدَه وقالَ له: غِرَّةٌ فاهتَبِلْها، وعَثْرةٌ فلا تُقِلْها، قد ألقَى الرجلُ بيدِه، وخلَّى بينَك وبينَ بَلَدِه. فعمِلَ ابنُ هودٍ على ذلك، وأخذَ فى إحكامِ ما هُنالك، فما متعَ النهارُ إلاَّ وأشرقَتْ أياتُها، واهتزَّتْ فى يُمْنَى يدَيْه قَناتُها. ورجَعَ بابنِ مُجاهدٍ غَنيمةً بارِدَة، وأُمنِيةً على الأيَّامِ شارِدَة. تَعالى مَن لا يَروعُه الزَّمان، ولا يُغيِّرُ سُلطانَه الحَدَثان!

مَقطوعاتٌ للحُصْرىِّ فى أوصافٍ شتَّى

قال:

كَم منْ خَليلٍ كانَ عندىَ شُهدَةً ... حتَّى بَلوتُ المرَّ من أخلاقِهِ
كالمِلْحِ يُحسَبُ سُكَّرًا فى لَونِه ... أو حجمِه ويحول[1] عندَ مَذاقِهِ

وقال:

نَصبتُ الفخَّ ثمَّ قَعدتُ عَنه ... بَعيدًا كَىْ أرَى فيه فَلاحا
إذا قِرْدِى مُقيمٌ عندَ رَأسى ... يَقولُ لمُقبلاتِ الطَّيرِ حَاحا

واجتازَ على قومٍ فسَمِعهم يَقدَحون فيه وفى ابنِ خَلَصةَ فقصدَه وأنشدَه:

يا أديبًا ملَّكتْنى ... فى يَدَيْهِ المَكرُماتُ
ليتَ قَوماً دَأْبُهم فىَّ (م) وفيكَ المَكْرُ ماتوا

وقال:

خَضبَتْ يَدَيْها لونَ فاحِمِها فما ... نَقصَ البياضُ مَلاحةً بَلْ زادا

(١) فى الأصل: يحل

ما بالُ شَيْبِى تُنكِرينَ[1] خِضابَه ... وأراكِ صابغةَ البياضِ سَوادا
قالت[2] نَجِيعُكَ فى يدَىَّ وإنَّما ... بَدَّلتُه أسفًا عليكَ حِدادا

ومن أحسنِ ما قيلَ فى التَّطاريفِ السُّود قولُ ابنِ المعتزّ :

وكفٍّ كأنَّ الشمسَ مدَّتْ بَنانَها ... إلى الليلِ تجلوه فقبَّلَها الليلُ

وله أيضًا فى التطاريفِ الحُمْر : ٥

أشارَتْ بأطرافٍ رِطابٍ كأنَّها ... أنابيبُ دُرٍّ قُمِّعتْ بعَقيق

ما أخرجتُه من مَراثيه مع ما يَتشبَّثُ بها

قالَ يَرثى أباه وقد ودَّعَ قبرَه وقتَ جَوازِه إلى الأندلس :

أبِى نَيِّرُ الأيامِ بعدكَ أظلما ... وبُنيانُ مَجدِى يومَ مِتَّ تَهدَّما
وجِسمِى الذى أبلاه فَقدُكَ إنْ أكنْ ... رَحلتُ بهِ فالقلبُ عندكَ خَيَّما ١٠
سَقَى اللهُ عَيناً مَنْ تَعمَّدَ وَقفةً ... بقَبرِكَ فاستَسقَى له وتَرحَّما
وقالَ سلامٌ والثَّوابُ جَزاءُ مَن ... ألمَّ على قبرِ الغَريبِ فسَلَّما

وأخَذَ مِن تُرابِه فقال :

رَحلتُ وهاهُنا مَثْوى الحبيبِ ... فمن يَبكيكَ يا قَبرَ الغَريبِ ؟ |١٠٣
سأحمِلُ مِن تُرابِكَ فى رِحالى ... لَكَىْ أغنَى بهِ عنْ كلِّ طيبِ ١٥

وقالَ مِن مَرثيةٍ له فى المُقتدرِ بنِ هُود :

نَعُدُّ حُصونًا كلَّ دِرْعٍ ومِغفَرٍ[3] ... وتَعدو المنايا فى عَرينِ الغَضَنفَرِ
وإحدَى بَناتِ الدَّهرِ تَنسِفُ أُحْدَه ... وتَهدِمُ بالتَّدميرِ بُنيانَ تَدْمُرِ
نَبا نابُ عادٍ وهْو كالليثِ عادِيًا ... وماتَتْ مُنَى كِسرَى الملوكِ وقَيصرِ

(١) فى الأصل : تنكرون . (٢) فى الأصل : قال .
(٣) فى الأصل : ذرع ومقفر .

وما دَرأَتْ(١) عن تُبَّعٍ تُبَّعٌ له صُروفَ الرَّدَى الجارى على كلِّ قَسْوَرِ
أصَمٌّ وأَصمَى ثُغْرةَ الثَّغْرِ حادثٌ تُحدِّثُنا عنه الثِّقاتُ فنَمْتَرى
هو البحرُ فى ذا الخطبِ أعطاكَ دُرَّه(٢) فقُلْ للسانِ انْظِمْ وللدمعِ فانْثُرِ
(٣أجِدَّكَ بَزَّ الدهرُ شُهْبَ بُزاتِه٣) وعزٌّ مُعِزَّ الدولةِ بنَ المظفَّرِ
٥ أعزَّ مَن اقتادَ الخَميسَ إلى الوَغَى وأكرمَ مَن يُدعَى له فوقَ مِنبرِ
تلثّم حياءً يا زمانَ من العُلا مَضيتَ بمعروفٍ وجئتَ بمُنكَرِ
مَضيتَ فما للأرضِ بعدَكَ لم تَمِدْ وما لسماءِ المجدِ لم تتفطَّرِ ؟!
بعثتُ بها مَشقوقةَ الجَيْبِ ثاكِلاً وإنْ فَتَقتْ رِيحَ العَزاءِ بعَنبرِ

وله مِن أُخرى :

١٠ فاجأتْنا والمنونُ مُنتظَرَه مِن جامعِ الطيِّباتِ مُختصَرَه(٤)
أصمَّ سَمعى حَديثُ حادثةٍ فلَّ السُّيوفَ الذكورَ من ذكرَه
مُتوَّجٌ من جُذامَ ماتَ له ثلاثةٌ فليعِشْ له عَشَرَه
ثلاثةٌ لا خِلافَ أنَّهمُ خيرٌ من الفرقدَيْنِ والزُّهَرَه
ما نفعَ المُشترِى ولا زُحَلاً(٥) ضوءٌ بلِ اللهُ مُنفِذٌ قدرَه

١٥ ومنها ، وهو من طَريفِ الاستطرادِ للاستجْداء ، وطلبِ الحِباء ، وكان الحُصْرىّ مَشْحوذَ المُدْية ، فى أبواب الكُدْية :

بَيَّضَ كلٌّ وَلا بَياضُ مَعى إلّا بَياضَ المَشيبِ والبَشَرَه
فغِبْتُ عَن مجالسِ العَزاءِ على رَغْمِى(٦) وإن كان مِقْوَلى حضَرَه
يا أهلَ هُودٍ إذا الوَرَى حُسِبوا مِن صَدَفِ البحرِ كنتمُ دُرَرَه

---

(١) رسم الكلمة فى الأصل : دارت . (٢) فى الأصل : رده .
(٣ — ٣) فى الأصل : أجدك بن الدهر شهب بذاته . (٤) كذا بالأصل .
(٥) فى الأصل : زحل . (٦) فى الأصل : زهمى .

يا كُرَماءَ الزّمانِ لستُ أرَى حُجولَهُ غيرَ مُ ولا غُرَرَه

ومن قبيح استجداءِ الحُصْرِيِّ مافَعَلَهُ بالمُعتمدِ بن عبَّاد ، تصدّى له فى طريقه بالعُدْوَةِ على حالهِ مِن[1] اعتقاله ، ولَمْ يلقَهُ باكيًا عَلَى خَلْعه من مُلْكه ، ولا تأدَّبَ مَعهُ فى وَصْف ما انتثَر منْ سِلْكه ، بل بأشعارٍ قَدِيمةٍ له ، صَدْرُها فى الرَّبابِ وفَرْتَنَى ، وعَجُزُها فى طَلَبِ اللُّهَى[2] . وعلى تلك الحال ، وما يُناجى بالَ المُعتمدِ من البَلْبال ، قاسمَهُ فيما كانَ بيده ممّا كان بهِ زُوِّدَ حسْبَ ما وصفتُ لهُ فى أخباره مِن هذا المجموع .

وله مِن أُخرَى فى المُقتدرِ بن هُود :

نُفرِّطُ فى العُمُرِ[3] الذّاهبِ وَنغترُّ بالأملِ الكاذبِ

يقول فيها :

تنزّهَ عن تَبِعَاتِ المُلوكِ فَخَفَّ على المَلَكِ الكاتبِ

فقَدْنا الربيعَ أبا جعفرٍ فلا دَرَّ خِلْفٌ على حالبِ

لبِستُ البياضَ ولولا الخِلافُ لسوّدْتُ ثَوْبى كالرّاهبِ

ومنها :

نقدْتَ القريضَ على ربِّه وفَصْلَ الخِطابِ على الخاطبِ

بَديعُكَ أزْرَى بعبدِ الحميدِ وبابنِ العَميدِ وبالصاحبِ

ففَضْلُكَ مَنْ لى بإحصائه وفى بعضهِ عِلّةُ الحاسبِ

وله فى مَوْتِ المُعْتَضِدِ وولاية المُعْتَمد :

ماتَ عبّادٌ ولكنْ بَقِيَ الفرْعُ الكريمُ

(١) فى الأصل : على . (٢) فى الأصل : النهى .
(٣) فى الأصل : القمر .

فكأنَّ المَيْتَ حيٌّ غيرَ أنَّ الضادَ ميمُ

وماتَ للحُصْرىِّ ابنٌ بلغَ مِن جَزَعِه عليه النِّهاية ، وتَجاوزَ فى ذلك الغاية ، وصَنعَ فيه مراثِىَ على حُروفِ المُعْجم ، منها :

عرضَتْ لهُ تُفّاحــةً نَفّاحةً بعضُ الإماءِ فــرَدَّ بالإِيماءِ

٥ ولو استطاعَ القولَ قال مُشافِهاً تُفّاحُ جنّاتِ الخُـلُودِ شِفائى

فُزْ مُطمئنَّ القَلْبِ لا مُستوفِزاً طلَّقْتَ دارَ مَشـــقّةٍ وشَقاءِ

عبدَ الغَــنِىِّ لكَ المَسرّةُ غائبًا ولِىَ المَسرّةُ مَصْبحِى ومَسائى

لمّا غدَوْا[(١)] بكَ جائزِينَ كأنَّمَا يَمْشُونَ فى ظُــلَمٍ لِدَفْنِ ضِياءِ

وقال فيه :

١٠ لَسْتُ[(٢)] أنسَى مَقامَهُ ومَقامى وكِلانا مثلُ القَضيبِ قَضيبا

أنفُهُ ينــثُرُ العَقيقَ وعَيْنِى تَنْـثُرُ الدَّمْعَ بالعَقيقِ مَشوبا

وقال فيه :

ذَوَى[(٣)] ريحانِىَ الأرِجُ وضاقَ بِخِـلِّىَ الفَـرَجُ

ذَبيحٌ طُلَّ مِنْــهُ دَمٌ ولم يُقْطَعْ لَهُ وَدَجُ

١٥ رأيتُ دماءَهُ ودِمَا ءَ عَيْنِى كيفَ تَمتزِجُ

تَرَفَّق يا سَـــقامُ به أبعْدَ المُسْتَوَى عِوَجُ ؟

صَدَعْتَ بما أُمِرْتَ وَما عليكَ معَ القضا حَرَجُ

فأينَ غِــرارُ مِقْوَلِه وَأيْنَ حِجاهُ والحُجَجُ ؟

شَأَى ابنَ الأرْبعينَ وما انــتَهتْ عَشْرًا بِهِ الحِجَــجُ

(١) فى الأصل : غدونا. (٢) فى الأصل : أمسيت .

(٣) فى الأصل : دوا .

عُرُوقُ النّـاسِ كلّهمُ إِلَى عِرْقِ الثّرَى تَشِـجُ
بَنُو الدُّنيـا كأنّهمُ لِقِـلّةِ هَمّهِمْ هَمَجُ
وهلْ هىَ غيرُ دَارِ أذًى إذا دخلوا بهـا خَرجوا
تأمَّلْ كيفَ تأكُلهمْ وهُمْ وَلَدٌ[1] لهـا نتجُ

وقال له : ٥

عَلَى تعْمِيرِ نُوحٍ مَاتَ نوحٌ فنائحـةٌ لأمرٍ ما تنوحُ
وكيفَ الصّبْرُ أمْ كيفَ التّعزّى ومِن عِزْنينِه[2] وَلَدِى ذَبيحُ

وقال فيه :

أنا فَـرْدٌ بلا خليـلٍ وَلا ابنٍ ولا أخِ
أنا كالأورقِ اشتكى بُعْدَ وَكرٍ وأفْرُخِ ١٠
أنا كالزّرْعِ والعِدَا كالجـرادِ المُسرَّخِ
قُرّةُ[3] العـيْنِ دُونَهُ برْزَخٌ أىُّ بَرْزَخِ
صاحبَ الصُّورِ آنفاً حضرَ الموتُ فانفُخِ
علّنِى مِنـه أشْتفِى بالنّسـيمِ المضمّخِ
كلُّ عُمْـرٍ مُؤقّتٌ فى كِتابٍ مُؤرَّخِ ١٥

وقال :

تَناثَرتْ مِنْ مَدامعى دُرَرٌ أثْرَى بها ، وافتقرْتُ ، مَن لقَطا
إنَّ ديارًا حلَلْتها لفَـلا وإنَّ سِرْباً بَكَى مَعِى لقَطا

وقال فيه :

بِنفْسِىَ نجْمٌ أظلَمَ الأفْقُ إذ هوَى وكادَ يُعزّينى به القمَـرانِ ٢٠

(١) فى الأصل : ولدها . (٢) فى الأصل : غربيته .
(٣) فى الأصل : عين .

أَحِينَ شَأَى مِنْ فَضْلِه كلَّ سابقٍ وغَنَّى شآمٌ باسمِهِ ويَمَانِ
وهزَّ قناةَ القصْدِ للطَّعْنِ فى العِدَا وراشَ جناحَ العزِّ للطَّيَرانِ
رَمَتْه فأَصْمَتْهُ السِّهامُ وإنّه لَفِى زَرَدٍ من دَعْوتى وكِنَانِ

وفيه يقول :

٥ عبدُ الغنىِّ بُنيِّ كَلاهُ بالحِفْظِ ربُّهْ
يَقولُ قلبىَ كُلُّهْ واشْرَبهُ مما أُحِبُّهْ

وله من قصيدةٍ يَندُبُ وطنَه بالقيْرَوان ، ويتذكَّرُ من كانَ هُنالكَ مِن الإخوان .

مَوْتُ الكِرامِ حياةٌ فى مواطِنِهمْ فإنْ [هم] اغتربوا ماتوا وما ماتُوا
١٠ يا أهلَ ودِّىَ لا واللهِ ما انتكثَتْ عندى عُهودٌ ولا ضاقتْ مَوَدَّاتٌ
لَئِنْ بعُدْتُمْ وحالَ البَحْرُ دُونَكُمُ لَبَيْنَ أرواحِنا فى النَّوم زَوْرَاتُ
ما نِمْتُ إلّا لِكى ألْقَى خيالَكُمُ وأينَ من نازحِ الأوطانِ نَوْمَاتُ؟
إذا اعتللنا تعللْنا بذِكرِكُمُ لو أحسنَتْ بُرْءَ عِلّاتٍ تعِلّاتُ
ماذا على الرِّيحِ لَوْ أَهْدَتْ تحيّتَها إليكمُ مِثْلَ ما تُهْدَى التحيّاتُ ؟
١٥ أصبحتُ فى غُرْبتى لولا مُكاتمتى بَكَتْنىَ الأرضُ فيها والسَّمواتُ
كأنّنى لم أذُقْ بالقيْرَاوَنِ جَنًى ولم أقلْ ها لأحْبابى ولا هَاتُوا
ولم تَشُقْنِى الخُدُودُ الحُمْرُ فى يَقَقٍ ولا العُيونُ المِراضُ البابليّاتُ
أبعدَ أيامِنا البِيضِ التى سَلَفَتْ تَرُوقُنى غَدَوَاتٌ أو عَشِيّاتُ ؟
أَمُرُّ بالبَحْرِ مُرْتاحاً إلى بَلَدٍ تَمُوتُ نَفْسى وفيها منه حاجاتُ
٢٠ وأسألُ السُّفْنَ عن أخبارِه طَمَعًا وأنْثَنِى وبقلبى منه لَوْعَاتُ

هل من رِسالةِ حِبٍّ أستعينُ بها … على سَقامى فقد تَشفِى الرّسالاتُ؟
ألا سَقَى اللهُ أرضَ القَيروان حَياً … كأنه عَبَراتى المُستهلاّتُ
فإنَّهــــا لِدَةُ الجنّاتِ تُرْبتُها … مِسْكيّةٌ وحَصاها جَوهرِياتُ
إلاّ تكنْ فى رُباها رَوضةٌ أُنُفٌ … فإنّما(١) أوجهُ الأحبابِ رَوْضاتُ
أو لا يَكنْ نَهَرٌ عذبٌ يَسيلُ بهـا … فإنَّ أنهارَها أيدٍ(٢) كريماتُ ٥
أرضٌ أُرِيضَةُ أقطارٍ مُبارَكةٍ … للهِ فيهــــا بَراهينٌ وآياتُ
لا يَشمتَنّ بها الأعداءُ إنْ رُزِئتْ … إنَّ الكُسوفَ له فى الشَّمسِ أوقاتُ
ولم يَزَلْ قابضُ الدُّنيا وباسِطُها … فيما يَشاءُ له مَحْــوٌ وإثباتُ
هَل مَطْمعٌ أنْ تُرَدَّ(٣) القيروانُ لنا … وصَبْرَةٌ والمعــــلى فالحنيَّاتُ ؟
ما إنْ سَجا الليلُ إلاّ زادَنى شَجَناً … فأتبعَتْ زَفَراتى فيــه أنّاتُ ١٠
ولا تَنفّستُ أُنْفاً(٤) فى الرِّياضِ ضُحًى … إلاّ بَدَتْ حَسَراتى المُستكِنّاتُ
هذا ولم تَشجُ قلبى للرِّبابِ رُبًى … ولا تقصَّتْه من لُبْنَى لُباناتُ
وكمْ دُعِيتُ لبُستانٍ فجدّدَ لى … وَجداً وإنْ كانَ فى مَعناهُ سَلْواتُ
ولو تَرانى إذا غنَّتْ بَلابلُه … أشكو البَلابلَ لو تُغنى الشَّكِيّاتُ
إنّى لأظمأُ والأنهـــارُ جاريةٌ … حَوْلى وأضْحَى ودُونَ الشّمسِ دَوْحاتُ ١٥
وما أرَى الموتَ إلا باسِطاً يدَه … مِن قَبلِ أنْ يُمكِنَ المأسورَ إفلاتُ

ومنها فى المدح :

أبلِغْ أحبّتَنا الباكِينَ من جهتى … أنّى حمَتْنى أُسودٌ حِميَريّاتُ
منَ الضّراغِمِ إلاّ أن غابَهُمُ … بيضٌ حِدادٌ وحُمْرٌ سَمْهريّاتُ
فمن يَكنْ فيه بينَ اثنينِ مُختلَفٌ … فذا الذى اتفقَتْ فيه البريّاتُ ٢٠

---

(١) فى الأصل : فإنها .
(٢) فى الأصل : أبدا .
(٣) فى الأصل : ترى أرض القيراوان .
(٤) كذا فى الأصل : ولعلها : شوقا .

ومن شِعْرِه مما خاطبَ بِه الفقيهَ
القاضى أبا المُطرِّفِ الشَّعبيَّ بمالقةَ من جُملةِ قَصيدة :

سَرَيتُ وخَلّيتُ الهَوَى لكَ صاحبى ... فهذا الهَوَى يُصبى وهذا السُّرَى يُنْضِى[1]
فثوبُكَ متى سُلَّ يا أسَدَ الشَّرى ... وطَرفكِ عنّى يا مَهاةَ النّقى غُضّى
١٠٥|٥ تَفكرْتُ فى الدُّنيا وفى غُربَتى بهـا ... فضاقتْ علىَّ الأرضُ فى الطُّولِ والعَرْضِ
لقد شَعَبَ الشَّعبىُّ قَلْباً صَدَعْته ... كما تَصدَعُ المظلومةَ الخيلُ بالرَّكضِ
نَهُوضٌ لإمرٍ أمَرَّتْه خَـوارِجٌ ... نَهوضٌ بأعباءِ العُلا أيّما نَهْضِ
جَلَى عَـدلُه إظلامَ كلِّ ظُلامةٍ ... وحاطَ قَناةَ الدينِ حِفظًا من الخَفضِ
كففتَ أكُفَّ الظُّلمِ عن كلِّ مُسلمٍ ... عَرضْنَ[2] لمالٍ منه أو دمٍ أو عِرضِ
١٠ تَنِمُّ برَيّا جَنَّـةِ الخُلدِ رَيَّةٌ ... لمن[3] قَطفَ الأزهارَ من رَوضِكَ الغَضِّ
كأنّكَ منهـا مالكٌ وهى طيبةٌ ... فما جَمْعُ أهلِ العلمِ عنكَ بمُنفَضٍّ
وإنْ أنشدتُ فى دارِ حُكمِكَ مِدْحتى ... لقد جُليتْ بِكرًا على خيرِ مُفتَضٍّ
لثَمتُ حَصى مَغناكَ لمّا وطِئْتُه ... وقُلتُ اللآلى كيفَ تُظلَمُ بالرَّضِّ
غَدَا عِيسَنا بالبيدِ شَدْوُ حُداتِنا ... بذِكركَ فاستغنتْ عن الماءِ والحَمْضِ

١٥ وقَدِمَ من الشَّرقِ[4] فأنزلَه فى دارِه وأكرمَه ، فقالَ فيه من جُملةِ قَصيدة :

أمَولًى شَرُفتُ به أم صَديقُ ... يُواصِلُنى حينَ يَجفو الشَّقيقُ
تملَّكنى ومُنَى مِلكُه[5] ... فحسبُ معاليهِ أنّا رَقيقُ

(١) رسم البيت فى الأصل :
سريت وخليت السرى لصاحبق ... فهذا الهوى يصبى وهذا الهوى يبضى
ولعل الصواب ما أثبتناه . (٢) فى الأصل : عرض . (٣) فى الأصل : لئن .
(٤) فى الأصل : الشوق . (٥) فى الأصل : ملك .

سَقَانى وأخلاقه جَنَّةٌ فمنها الرِّياضُ ومنها الرَّحِيقُ
حَلَتْ وأُحِلَّتْ[1] كريقِ الحبيبِ فطابَ الصَّبوحُ بها والغَبوقُ
وزادَ على الزادِ ما قاتَنِى زماناً و إنْ طالَ ذاكَ الطَّريقُ

وخرجَ تَميمٌ عن مالَقَةَ معزولاً فقالَ :

أهواكُمْ جَدَّ مازِحُهُ والحِمَى لم يَدْنُ نازِحُهُ ؟ ٥
مارَسَتْ منّى العِدا رَجُلا أسْمَعَ الصمّاءَ صائِحُهُ
إنْ زَجَرتُ[2] الطيرَ فى سَفَرى عن يَمينى مَرَّ سانِحُهُ
عَجِبتْ أسماءُ من جَلَدى يومَ أصمَى القلبَ جارِحُهُ

ومنها :

لا يَضِقْ مَن[3] صَدرُه حَرِجٌ شَيخُنا الشَّعبىُّ شارِحُهُ ١٠
إنَّما أخلاقُهُ زَهَرٌ عَطَّرَ الآفاقَ فائِحُهُ
إنَّما أقلامُهُ أَسَلٌ هابَها فى الجوِّ رامِحُهُ
قبلَ الشَّعبىُّ حينَ دَعا فكبا باللّيثِ سابِحُهُ[4]
بتَميمٍ حينَ حانَ بهِ الحَيْنُ وانقادَتْ جَوامِحُهُ
ضَعُفتْ منه القُوَى فقدَتْ مِن قَواريرٍ قَوارِحُه ١٥
وانجلَتْ عن حُسْنِ مالَقَةٍ بفَقيهِها قَبائِحُهُ
وصَفا البحرانِ من كَدَرٍ فارتَوَى بالماءِ مائِحُهُ
ذِكرُه غَنَّى الزمانُ به وأنا فيهِ أُطارِحُهُ

(١) فى الأصل : حلت وحلت .
(٢) فى الأصل : إن زجى الطير .
(٣) فى الأصل : فى صدره حرجا
(٤) فى الأصل : سانحه .

وله من أخرى يمدحُ القاضىَ أبا مَرْوانَ بنَ حسُّون :

سَهْلُ الأباطحِ من عُـلاكَ يَفاعُ والنَّجمُ أنتَ وكفُّكَ المِرباعُ

بَلْ أنتَ شمسٌ لا تزالُ ولم يزَلْ فى سائرِ الآفاقِ [منكَ] شُعاعُ

مَن يختلفْ كلُّ الوَرَى فى حُبِّهِ فأبو المطرِّفِ حبُّـه إجماعُ

٥ شَهِدَتْ عُقولُ العالمينَ بفضله فسَواءٌ الأعْـداءُ والأشياعُ

مِصباحُ مالقَةٍ أرادَ خُمودَه قَوْمٌ ليرتفِعوا وهم أوْضاعُ

فالعامُ لم يَكمُلْ لعزْلتِه بهـا حتَّى عَلَتْ يدُه وطالَ الباعُ

أُنظُرْ إليهِ[(١)] [اليومَ] كيفَ أصابَهُ صَرْفُ الزَّمانِ وليسَ عَنه دِفاعُ

لولا إساءَتُه إليكَ وظُلمُه لغَـدا وأنتَ له يَدٌ وذِراعُ

١٠ بينَ ابنِ حسُّونٍ وشَعْبِيِّ الهُدَى مِن ثَدْيِ خالِصَةِ الإخاءِ رَضاعُ

ياما[(٢)] أجَلَّهما وأشْبَهَ ذا بِذا حَسُنَتْ وُجوهٌ منهما وطِباعُ

ما أحْسنَ الدُّنيا بحُسنِهما الذى تَلتـــذُّه الأبصارُ والأسماعُ

خُلِقَا لنصْرِ الدِّينِ والـكَرَمِ الذى تَخضَرُّ منه بَسيطةٌ وتِلاعُ

كمهنَّدينِ مُجرَّدينِ بريَّةٍ تَنبو الظُّبا وكِلاهما قَطَّاعُ

١٥ وله فيهما مِن أُخرَى أوَّلُها :

بريَّةَ [ريَّا] رَوْضَـةٍ ورياضِ بهـا عَلَما عِلْمٍ وأعدَلُ قاضِ

مَعاليهما فوقَ النُّجومِ مُنيفَةٌ ورأيُهما فى المَشرفيَّةِ ماضِ

سَئِمتُ حَياتى والمقامَ بطَنْجةٍ كأنَّ بلادَ اللهِ غيرُ عِراضِ

سَيُورِقُ عُودى إنْ سَكنتُ بريَّةٍ ويَسودُّ من فَوْدَىَّ[(٣)] كلُّ بَياضِ

٢٠ لدَى قمرَيْها إنَّ فى غُرَّتَيهما هِدايةَ عُميانٍ وبُرْءَ مِراضِ

---

(١) لعل الضمير هنا يعود على تميم المذكور فى الصفحة السابقة .

(٢) فى الأصل : فما . (٣) رسم الـكلمة فى الأصل : فؤادى .

أريَّةُ مَرْعاى المَريعُ وأيْنُقى وأنتِ ابنةٌ[1] فى عِصْمةِ ابنِ عياضِ

وقالَ :

يا عجبًا للشُّيوفِ استوَى كَليلُها اليومَ وماضِيها

وقد رأيتُ العَـدْلَ فى بَلْدةٍ فقيهُها الشَّعبىُّ قاضِيهـا

أحكامُه بالحقِّ مَرضِـيَّةٌ واللهُ بعدَ الخَلْقِ راضِيها ٥

لو شُوورَتْ فيـهِ بنو هاشمٍ لقدَّمَتْهُ عن تَراضِيها

كمْ حُجةٍ أوضَحَ ، كمْ حاجةٍ قضَى لنا قبلَ تقاضِيهـا

ذِكرُ الأديبِ أبى الحسنِ عبدِ الـكريمِ بنِ فَضَّالٍ القَيروانىّ

واشتهرَتْ معرفتُه بأُفقِنا بالحُلْوانىّ ١٠٦|

وسِياقةُ جُملةٍ من شِعْره ١٠

وله كلامٌ فى النَّسيبِ رائقٌ ، ومتأخرٌ سابقٌ ، ومَديحُه أيضًا عليه طَلاوة ، وبالجُملةِ ففى ألفاظِ الحُلوانىِّ حَلاوَة . ومن خطِّه نقلتُ جُملةَ ما ههنا له أخرجتُ .

النَّسيبُ وما يُناسبُه

قال :

ولمَّا تنادَوْا للرَّحيلِ وقُرِّبتْ كِرامُ المَطايا والرِّكابُ تَسيرُ ١٥

جَعلتُ على قلبى يَدَىَّ مُبادِرًا فقالوا مُحِبٌّ للعِناقِ يُشيرُ

فقلتُ ومَنْ لى بالعِناقِ وإنَّمـا تداركتُ قلبى حينَ كادَ يَطيرُ

---

(١) فى الأصل : أنبه فى عنة . ولعل الصواب ما أثبتناه .

وقال الحُلْوانىّ :

قالوا التحى فامحتْ بالشَّعْرِ بهجتُهُ فقلتُ لولا الدُّجى لم يَحسُنِ القمرُ

مَن كانَ مُنتظِرًا للصَّبرِ عنهُ بهِ فإنّنى لغرامى كنتُ أنتظِرُ

خَطَّتْ يدُ الحُسْنِ منهُ فوقَ وَجْنَتِهِ هٰذى مَحاسِنُ يا أهلَ الهوى أُخَرُ

٥ ومَعنى هذا البيتِ يتطرَّفُ قولَ ابنِ شَرَف .

سُبحانَ مَن أعطاكَ حُسْنًا ثانيًا وبثالثٍ مِن حُسْنِ فِعلِكَ عَزَّزا

وقال الحُلْوانىّ :

لى حَبيبٌ إذا شَكوتُ إليهِ فى الهوَى سامَنى عذابًا شَدِيدا

لستُ أدعو عليه بالشَّعْرِ [غَيْظًا] خِيفةً أن يَكونَ حُسْنًا جَدِيدا

١٠ غيرَ أنّى أدعو بقلبٍ قَرِيحٍ أن أراه مِثْلِى مُحِبًّا عَمِيدا

كأنَّه عكسَ قولَ البُحترىّ :

أُعِيذُكِ أنْ تُمْنَىْ بشَكوَى صَبابةٍ وإنْ أكسَبَتْنامنكِ عَطفًا(١) على الصَّبِّ

ويَحزُنُنى أنْ تَعرِفى الحُبَّ بالجَوَى وإن نفعَتْنا فيكِ مَعرفَةُ الحُبِّ

وقالَ :

١٥ رُبَّ خَيّاطٍ فُتِنْتُ بهِ فِتنةً أفنتْ قُوَى جَلَدِى

لاعِبٌ بالخَيْطِ يَفْتِلُه أتُراهُ ظَنَّهُ جَسَدِى

ليتَ أنّى كنتُه فأرَى بينَ ذاكَ الوَرْدِ والبَرَدِ

فعلَتْ بالثَّوبِ إبْرَتُهُ فِعْلَ سَهْمِ الشَّوقِ فى خَلَدِى(٢)

وجرَى المِقْراضُ فى يَدِهِ جَرْىَ عَينَيْهِ على كَبِدِى

---

(١) فى الأصل : كسبتنا منك عطف . والتصحيح عن ديوانه ص ٢٠٢ ج ١ طبعة بيروت سنة ١٩١١ . (٢) فى الأصل : جلد .

وذكرتُ بذكره الخيّاطَ قولَ أبى محمدٍ عبدِ الله بن القابِلَة السَّبْتِىّ فى غُلامٍ وَسيمٍ رآه يرفو فى السوقِ ثوباً :

يا رافِيًا قَطْعَ كلّ ثوبٍ ويا رَشًا حُبُّهُ اعتقادى
عَسى بكفّ الوِصالِ تَرْفو ما قَطَّعَ [الهَجْرُ] من فؤادى

وهذا من اللفظِ الطيّار الخفيفِ الرُّوح . ومن الكلامِ الفجّ الثّقيل ، ٥
قولُ عبدِ الجليل :

بِسُوق الخِياطةِ مُسْتَمرَدٌ تَوَدُّ لمَنْ نا كَه ألْفَ خيْرِ
وأشهدُ أنَّ الفتى صانِعٌ لطَوْقِ مِجانٍ على عُنْقِ أيْرِ

وما أحلَى لفظَ الحُلْوانىّ هذا فى غلامٍ وَسيمٍ أرادَ النُّهوضُ إلى الحَجّ :

يا طالِبَ الحجِّ وهو ذو صِغَرٍ عَجِلتَ فاسْتأنِهِ إلى الكِبَرِ ١٠
إنْ كنتَ تبْغِى مَثوبةً فعَسَى تَحْمِلُ لى قُبْلَةً إلى الحجَرِ
وإن رَميتَ الجِمَارَ فارْمِ به كلَّ فؤادٍ عليكَ لم يَطِرِ
فقالَ دَعْنى وزَمْزمًا فعسَى أغْسِلُ من مُقلتِى دمَ البَشَرِ

وعلى ذكرِ قولِه « تحْمِلُ لى قُبلَةً إلى الحجَرِ » . قال الحسَنُ لغُلامٍ رآه بالمكتَبِ ، فأشارَ لتقبيلِ يدِه ، فقبّلَه: ١٥

ظَفِرْتُ بقُبلةٍ منهُ على عَيْنَىْ مُعلِّمِه
أشرتُ بها إلى يدِه فوصَّلَها إلى فَمِه

وقالَ الحُلْوانىّ :

تعرّضتُ مَن شَفّنى هَجْرُه ببَدْءِ سَلامٍ عليه سَفاها
وقُلتُ عَساهُ يَرُدُّ السَّلامَ فتبْلغُ نَفْسِىَ منه مُناها ٢٠
فجاد علىَّ بتقبيلةٍ وقد كانَ أعرضَ عنّى وتاها

فكنتُ كموسى أتى للضياء ليقبِسَ نارًا فناجى الإلٰها

وقال :

يا صاحِ خُذْها نَصيحةً لَبِكَهْ بالوُدِّ إن كنتُ فاتِكَ الفتكَهْ

اسفِكْ دَمَ المُرْدِ إن وجدتَهُمُ فليسَ يلقَى العذابَ مَن سفكَهْ

٥ واترُكْ هَواهم إذا هُمُ تركوا قد يَترُكُ الحِبَّ حُبُّ مَن تركَهْ

وقُلْ لمن خانَ فى محبَّتِه لى هِمَّةٌ عن هَواكَ مُمتسِكَهْ

كانَ بفَرْطِ الغَرامِ يَملِكُنى فأصبحَ الدهرُ عازِلاً مَلِكَهْ

وكانَ سِترٌ عليه من مُلَحٍ لولا نَباتٌ بخدِّهِ هتكَهْ[1]

واللهِ لا صادَنى له شَرَكٌ فمذْ بَدا الشَّعْرُ قطَّعَ الشرَكَهْ

١٠ أفلتُّ مِن بعدِ نَتْفِهِ ذَنَبى ولستُ طَيْرًا يعودُ للشرَكَهْ

وذِكرُه نَتْفَ ذَنَبِه من اللفظِ الرثِّ ، والمُستَهجَنِ الغَثِّ .

١٠٧ وكانَ أبو محمَّدٍ المَهْدَوىُّ المعروفُ بابنِ الطلاَّء أحَدُ الشُّعراء الطارئينَ على الأندلسِ كثيرًا ما يأتى بالاستعارةِ التى تُضحِكُ كقولِه :

لَحِى جراياتىَ[2] مَنْتوفَةٌ ومرَّ دَهرٌ وهْىَ لم تُنتَفِ

١٥ وقد ألمعتُ بلُمَعٍ من هذا البابِ ، فى أخبارِ ابنِ شمَّاخٍ من هذا الكِتاب .

وقالَ الحلوانىُّ :

قد حَلَّ فى سُوقِكَ الكَسادُ مُذْ لاحَ فى خدِّكَ السوادُ

كأنَّما الشَّعرُ فيه زَرعٌ والنَّتْفُ منه له حَصادُ

وقال :

٢٠ صَدَّ فما يُصغِى لشاكٍ إليهْ وراحَ والألبابُ فى راحتَيْهْ

---

(١) فى الأصل : فتكه . (٢) فى الأصل : حراياتى .

مُفوَّقٌ[1] السهمِ إذا ما رَمَى ... رَمَى ولا قوسَ سِوى حاجبَيْه
يَوَدُّ سيفُ الهنـدِ لو أنه ... تَعلَّمَ الفتْكةَ مِن ناظِرَيْه
ذُو وَفْرةٍ زادَ بها هَيْبــةً ... وقد يُهابُ الليثُ فى لِبدتَيْه
عنـدى له من خُدَعى رُقْيَةٌ ... لو أنَّها مَرَّتْ على مِسْمعَيْه
لا يَدَّعى السُّــقمَ بألحاظِهِ ... فمُهجتى أسقمُ من مُقْلتَيْه ٥
اُنظرْ لحاليْهِ فقـد أقسَما ... أنْ ليسَ يَنجو أحدٌ من يدَيه
اُنظرْ لحاليْهِ[2] فقد أقسَما ... بسيفِ عينَيْهِ على وَجنتَيْـه
رَيْحــانَةٌ تَمنعُ من شَمِّها ... وغيرُها[3] تُنفَضُ فى مِدْرَعَيْه[4]
تاهَ بوجــهٍ كادَ من رِقَّةٍ ... يَقطُرُ ماءُ الحُسْنِ من صَفْحتَيْه
رَقيبُه مِن فَرطِ ظنٍّ بهِ ... لشخصِــه ألزَمُ مِن حافظَيْه[5] ١٠

وقال :

يا حامِلَ السِّكِّينِ فى وَسْطِه ... ليسَ بهــذا تُعرَفُ العِينُ
هل يَحمِلُ السكِّينَ مَنْ لحظُه ... فى مُهَجِ العشَّاقِ سكِّينُ ؟!

وقال :

رُضابُ ثَغْرِكَ يُضْنينى ويَشْفينى ... وسِحرُ عَيْنيكَ يُغوينى ويُغرينى ١٥
وفى تَثنِّيكَ مَعنًى لا يَقومُ بهِ ... مافى الغُصونِ من الإرهافِ واللينِ

وهذا كقول أبى الفرَجِ الوَأْواء :

مِن أينَ للبدرِ حُسْنُ صُورتِه ... وقَدُّهُ للقضيبِ مِن أينِ ؟[6]

وما أحسنَ قولَ بعضِ أهلِ عصرِنا :

---

(١) فى الأصل : مفرق . (٢) فى الأصل : لحاليه .
(٣) فى الأصل : وغيره . (٤) فى الأصل : مذرعيه .
(٥) فى الأصل : ألذم من خافضيه .
(٦) راجع ديوانه (نشر كراتشقوفسكى — ليدن سنه ١٩١٣) ص ١٨ .

ما قَدْرُ نعمانَ إذا ما مَشَى ... وما عَسَى تبلغُه عالِجُ ؟

وفى هذه القَصيدةِ يَقولُ الحلوانىّ :

إذا وصَفتُكَ باللحظِ الفتُورِ فمَن ... قَدَّ القُلوبَ بأطرافِ السَّكاكينِ ؟
وإنْ نعتُّكَ بالغُصْنِ الرطيبِ فما ... فى الغصْنِ ما فيكَ مِن كلِّ الأفانينِ
٥ جِسمٌ من الماءِ لكنْ قلبُه حَجَرٌ ... استغفِرُ اللهَ لمْ يُخلقْ مِن الطِّينِ
وما سَمِعنا بغُصنٍ مُثمِرٍ قَمَراً ... تَجمَّعَتْ فيهِ أشتاتُ الرَّياحينِ
الوَرْدُ والآسُ والنِّسْرينُ مُجتمع[1] ... فيهِ وفيهِ بُنَيّاتُ الزَّراجينِ
لم يَرْضَ عنّى فؤادى مِن ضَنانتِه ... حتَّى مَسَحتُ بهِ فى كفِّ ضِنّينِ
فى حُبِّ مَنْ لو رآنى مِتُّ مِن عَطَشٍ ... والنِّيلُ فى يَدِه ما كانَ يَسقينى
١٠ طَمِعتُ فيه وغرّتنى لواحظُه ... إن المطامعَ أسبابُ الشياطينِ
قُلْ لابنِ عشرٍ وخَمسٍ ها مِن أينَ جرتْ ... سِهامُ عَينَيْكَ فى قَلْبِ ابنِ سَبْعِينِ ؟
ما حُجَّتى عندَ مَن فى الحبِّ يَعذُلُنى ... وآيتى[2] فى نُبوّاتِ المجانينِ
إنْ كنتَ فى الحبِّ سُلطاناً على كبِدى ... فخَفْ عُقُوبَةَ سُلْطانِ السَّلاطينِ
أو كانَ عندكَ للمِسكينِ مَرْحمةٌ ... فإنَّ عبدكَ مِسكينُ المَساكينِ

١٥ وأراه عارضَ بهذه قصيدةَ ابنِ رَشيق ، فضَلَّ عن الطَّريق . هذا وقد قلتُ إنَّ له فى النَّسيب ، أوفرَ نَصيب . فأمّا إذا وصفَ أو مَدحَ ، فقلما رأيتُه فى ذلك نجحَ ولا أفلَح .

ما أخرجتُه مِن قصائدِه المطوَّلة فى المديح وما يَتشبّثُ بِه مِن الأَوْصاف

قالَ يَمدحُ الشيخَ صاحبَ الخمسِ أبا عبدِ الله محمدَ بنَ إبراهيمَ الكِنانىَّ
٢٠ الشامى بصقِلِّيةَ من قَصيدةٍ يَقولُ فيها :

---

(١) فى الأصل : مجمعا . (٢) فى الأصل : وآية الله ، ولعلها ما أثبتناه .

شَدُّوا الحدُوجَ وزَرُّوها على قَمَرٍ ... فى الُحسْنِ تَنجابُ عن أنوارِه الظُّلَمُ
دُرَّانِ مِن فَمِهِ شَفًّا مُحدِّثِهِ ... للنَّثْرِ والنَّظْمِ مَسْموعٌ ومُلتَثَمُ
فليتَ شِعْرى لِمَن أَنْهِى ظُلامتَه ... وغيرُ مُنْتَصِفٍ مَنْ خَصْمُهُ الحَكَمُ
قد قلتُ لو قَبِلَ الوَعْظَ المُبِينَ له ... خَفِ المُهَيمِنَ فينا إنَّنا نَسَمُ
فقالَ مَن ضَرَّجَتْ خَدَّىَّ نَظرتُه ... فإنَّ سَيفَ جُفُونى منه يَنتقِمُ ٥

ومنها :

للهِ مَنْزِلَةٌ بالقَيْرَوَانِ محَا ... أيَّامَها البَيْنُ لا الأيَّامُ والقِدَمُ
شقَقْتُ جَيْبَ شَبَابى بعدَ فُرْقتِها ... حُزْنًا عليها ولا شَيْبٌ ولا هَرَمُ
إنْ فرَّقَ الدهرُ عنها شملَنا فلَنا ... بصاحِبِ الخَمسِ إبراهيمَ مُعتَصَمُ

١٠ وله فيه من أُخرى :

ليتَ شِعْرى ولَيْتَ حَرْفُ تَمَنٍّ ... ربَّمَا عَلَّلَ الفُؤادَ السَّقِيما
كيفَ يا قَيروانُ حالُكَ لمّا ... نَثَرَ البينُ سِلكَكِ المنظوما
كنتِ أُمَّ البلادِ شَرْقًا وغَرْبًا ... فمحا الدهرُ وَشْيَكِ المَرْقوما
نحنُ أبناؤها ولكنْ غَنِينا ... بعدَ إنْ لم نُطِقْ بها أنْ نُقِيما
دِمَنٌ كانت البُرُوجَ وكنَّا ... أقْمُرًا فى قِبابِها ونجوما ١٥

ومنها :

وأنا قد أَخَذتُ إنْ عَبِثَ الدهـ ... ـرُ ذِماماً من ابنِ[1] إبراهيما

وقالَ من أُخرى :

نَطَقَتْ بسِرِّ ضَميرِه عَبَراتُهُ ... وبَدَتْ بنارِ فُؤادِه زَفَراتُهُ
بأبى وأمِّى بَدرُ تِمٍّ تحتَه ... غُصنٌ كثُرْنَ لشِقْوتى ثمرَاتُه ٢٠
يَمْشى فيَعثُرُ فى ذُيولِ شَبابِه ... مَشْىَ النَّزيفِ وخَمرةٌ رَشفاتُهُ

(١) فى الأصل : من عند .

ومنها :

ولَربَّ باكيةٍ رأتْ فى لِمَّتى بعض[1] المَشيبِ تألّقتْ ضَحكاتُهُ
[قالتْ] : أغُصنُكَ قد عَلاهُ كما أرى زَهَرُ الرياضِ وما بدَتْ ورقاتُهُ
فأجبتُها : قارعْتُ فى جَنْبِ الهوَى صَرْفَ الزمانِ وهذهِ نَكباتُهُ

٥ ومن المديح :

شَيْخُ القَبيلةِ فِى الجزيرةِ والذى سَبقتْ ظُنونَ الحاسِدينَ أناتُهُ
ما تَفعلُ الأيّامُ غيرَ مُرادِه فكأنّما حَرَكاتُها أدواتُهُ
هذا الثَّناءُ عليكَ يَعبَقُ طِيبُهُ يابنَ الكِرامِ وحاسِدُوكَ رُواتُهُ

قولُه فى الشَّيبِ « صَرفُ الزمانِ وهذه نَكباتُه » كقولِ ابنِ المعتزِّ[2] :

١٠ قالتْ كبِرتَ وشِبتَ قلتُ لها هذا غُبارُ وَقائعِ الدَّهْرِ

وقالَ أحمدُ بنُ أبى طاهرٍ :

قالتْ غُبارٌ قد علا كَ فقلتُ بل غَيرُ الغُبارِ
هذا الذى نَقلَ المُلوكَ إلى القُبورِ مِنَ الدِّيارِ

وقال ابنُ لنكك ، فى مثلِ هذا المَسْلَك :

١٥ وتَعَجَّبَتْ لِلشَّيْبِ ، لا تَتَعجَّبى هذا غُبارُ وَقائعِ الأيامِ

وقولُه « حاسِدوك رُوَاتُه » كقول البُحتريّ :

ليُسايِرَنَّكَ رَكْبُ شِعْرٍ سائرٍ يَرْويهِ فيكَ لحُسْنِهِ الأعداءُ

وأخذَه من قول حبيب :

فإن أنا لم يَحْمَدْكَ عَنّى صاغِرًا عدوُّكَ فاعلَمْ أنّنى غيرُ حامِدِ

(١) فى الأصل : بعد . (٢) الديوان ج ٢ ص ١٣٧ .

وقال الحلوانىّ من أخرى :

وإذا أردتَ تَرَى فَضِيلَةَ صاحبٍ فانظُرْ بعَينِ البَحْثِ من نُدْمانُهُ

فالمرءُ مَطوىٌّ على عِـــــلاَّتِه طىَّ الـكتابِ وتحتَه عُنوانُهُ

وكذا دَلِيلُ الجُودِ فى ابنِ محمَّدٍ بادٍ بصَفْحِ جَبِينِه بُرهانُهُ

وتَرَى الليالىَ فاعِلاتٍ أمرَه حتَّى كأنَّ صُروفَها أعوانُهُ ٥

ومَعنَى البيتِ الأوّلِ من هذه كقولِ الآخر : « واعتبرِ الصاحِبَ بالصاحبِ »

وقولِ الآخر :

عنِ المرءِ لا تسألْ وسَلْ عن قَرينِه فكلُّ قَرينٍ بالمُقارَنِ مُقتدِ

ومَعنى البيتِ الأخيرِ لفظُ أبى الطيِّب :

وأراكَ دهرُك ما تُحاولُ فى العِدا [حتَّى[1]] كأنَّ صُروفَه أنصارُ ١٠

وقال :

هل بعدَ [حدِّ] الأربعينَ تصابى ذهبَ الشَّبابُ ولاتَ حينَ شَبابِ

هل يَنفعنَّكَ بعدَ شَيبِكَ فى الهَوَى تَوفيرُ مُـكتسَبٍ وحُسْنُ ثِيابِ ؟

هَيهاتَ ما فَخْرُ المهنَّدِ فى الوَغَى بحُلِىِّ غِمْدٍ فوقَه وقِرابِ !

وهذا كقولِ المعرِّى : ١٥

وإنْ[2] كانَ فى لُبْسِ الفَتى شَرَفٌ له فما السيفُ إلاَّ غِمدُه والحمائلُ

أنتَ الذى قَسَمَ الزَّمانَ لنفسِه قِسْمينِ بينَ رِياسةٍ ومَنابِ

أعطَى لمرتبَـةِ العَلاءِ نَهارَه منها وجُنْحَ الليلِ للمِحرابِ

(١) هذه الـكلمة ساقطة فى الأصل . انظر الديوان ج ١ ص ٣٠٦ .

(٢) فى الأصل « إذا » والتصحيح عن سقط الزند ج ١ ص ١١١ .

قامتْ على أُسِّ الفِخارِ عِمادُها وتزيّنتْ بتأدُّبِ الحُجّابِ
سهلتْ مَداخِلها لطالبِ حاجَةٍ فكأنّما بُنيتْ بلا أبوابِ

(١ ووجدتُ بخطِّه [وقد] مَدحَ هذا الشيخَ الكِنانىَّ رجلٌ من الأندلس بشعرٍ [أتهم ابن فضال] فيه وجرى فى مجلسه بصِقلّية١) ، [فقال يهجوه] :

٥ يا شاعرَ العَصْرِ قد كلّفتنى شَطَطا فاصرِفْ عِنانَكَ عنّا ، أو تأنَّ خُطا
حمّلتَنى ذَنبَ غيرى ظالِمًا وأنا قد كنتُ أُقسِطُ فى إنصافِ مَن قَسَطا
وما حَسدتُكَ فى شِعْرٍ أتيتَ بهِ ومَنْ يحاولُ لَمسًا للسُّهى سَقَطا
يا فارسَ الشّعرِ إنْ كلّتْ فوارسُه يومًا (٢وسابقُها إنْ أُعلِمتْ٢) مَرَطا
إنَّ ابنَ درّاجِكمْ لو قامَ مِن حَدَثٍ وصِحْتُ يومًا بهِ من خَلفِه ضَرَطا
١٠ وليسَ يحسُدُ طَبعى أبْجنيسُكم(٣) فكيفَ أنتَ ، لقد جشّمتَنى شَطَطا
فخُذْ « قِفا نَبْكِ » وانسُبْها لنفسِكَ ما فى الخَلْقِ مِن كاشفٍ بالبحثِ عنكَ غِطا
ولا تَظُنَّنَّ أنَّ الشِّعرَ مَكرُمَةٌ فالحُرُّ إنْ رامَ أنْ يَعلو بهِ هَبَطا

قلتُ أنا — صاحبَ الكِتاب — نَشَدتُكَ باللهِ يا أبا الحُسين(٤) إلاّ ما رَفَقتَ بأسيرَيْكَ ! فأنّهما شَيْخا العَشيرَة ، ولِسانا الجزيرَة ؛ فإنْ كانَ
١٥ ولا بُدَّ فالرّماديُّ ، فإنه كانَ أقلَّ طَيْشا ، وأودعَ عَيْشًا . وأمّا ابنُ درّاجٍ فمَنْخوبُ القَلب ، مُشتركُ اللبّ ، يَكفيكَ منه هَولُ الاتهامِ والإنجاد ، و بَيعُ الشِّعرِ فى سُوقِ الكَساد .

وقالَ من أخرى :

١٠٩| طرَقْتهمْ ببيضِ الهِندِ لَيْلاً فعادَ الليلُ عندَهمْ نَهارا

(١ — ١) العبارة مضطربة فى الأصل وما أثبتناه أقرب الاحتمالات لسياق الكلام

(٢ — ٢) فى الأصل : ومنابعها إن أعلمت . ولعلها ما أثبتناه .

(٣) كنية الرمادى الأعجمية « أبو جنيس » .

(٤) رسم الكلمة فى هذا الموضع : أبو الحسن .

أطرتَ فؤادَها فى الجوِّ ذُعْرًا   لبرقٍ فى يديكَ قد استطارا
بَنيْتَ الأرضَ فوقهمُ سماءً   وقد أجريْتَ مِن عَلَقٍ بحارا
فليسَ تَراكَ ألحاظُ الدَّرارِى   وأنتَ حشَوتَ أعيُنَها غُبارا

ومَعنَى هذا البيتِ والذى قبلَه كقولِ التِّهامىّ :

فدَحَوْا فُوَيقَ الأرضِ أرضًا من دَمٍ   ثم ابتنَوْا [دُونَ] السماءِ سماءًا   ٥

وقالَ من أخرَى فى الوزيرِ أبى بكرِ بنِ عبدِ العزيزِ ببَلَنسِيَة :

أغالبُ فيكَ الشَّكَّ أنِّى حالِمٌ   ومَن لم يذُقْ طَعمَ الكَرَى كيفَ يحلُمُ

ومن المدحِ :

وقمتُ بها بينَ السَّماطيْنِ مُنشِدًا   كما يَتغنَّى الشاربُ المترنِّمُ
بمدحِ امرِئٍ كلُّ امرِئٍ مِن عُفاتِهِ   يُخيَّرُ فيما عندَه ويُحكَّمُ   ١٠
كأنَّ الذى سوَّاهُ قالَ لكفِّهِ   عليكِ لهذا الخَلْقِ رِزقٌ مُقسَّمُ
لقد عَلِمَ المأمونُ(١) أنكَ صارمٌ   بيُمناهُ لا يَنبُو ولا يتثلَّمُ
يَقولونَ لى إنَّ الملوكَ كثيرةٌ   ورأيُكَ أمضَى فى البلادِ وأحزَمُ
فقُلتُ(٢) لهم ما كلُّ بَيْضاءَ شَحمَةٌ   ولا كلُّ مَصقولِ الصَّفيحةِ مِخْذَمُ

وله من أخرَى يَستعطِفُه لأمرٍ وقَع ، ولِكلامٍ عليه رُفِع :   ١٥

أتسمعُ فىَّ مَقالَ الوُشاةِ   وإنْ جئتُ بالعُذرِ لا تَسمعُ؟!
تَقشَّعَ غيمٌ بكفَّىَّ منكَ   وصَوَّحَ فى ساحَتِى مُمْرِعُ
فلولا اعْتلاقِى بحَبْلِ الرَّجاءِ   لما حمَلَتْ قلبِىَ الأضلُعُ
فإنْ كانَ قد ماتَ حظِّى لدَيْكَ   وحاشاكَ بل أنتَ لى أرفَعُ

(١) فى الأصل : المأموم .   (٢) فى الأصل : فقل .

فدَعْنِى أبيِّضْ بشَيْبى عليكَ فلُبْسُ المَشيبِ له أفجَعُ

وقد كرَّرَ الحلوانىُّ هذا المعنَى فى شِعْرٍ قد تَقدَّمَ إنشادُه .

وقالَ من أُخرى :

نَجْمٌ تَوَلَّدَ من شَمْسٍ ومن قَمَرٍ وأينَ مِن أبَوَيْهِ الشمسُ والقمرُ ؟

٥ شَمسُ العَفافِ و بدرُ المجدِ بينَهما تولَّدَ النُّورُ إلاَّ أنَّهُ بَشَرُ

وهذا كقولِ ابنِ عمّارٍ يُهَنِّئُ المعتمِدَ وقد وُلِدَ له مَولودان :

اِهنأْ بنَجلَيْكَ من أُنثَى ومن ذَكَرٍ لا تَعدَمُ الضَّوءَ بينَ الشَّمسِ والقَمَرِ

وهو من قَولِ ابنِ الرُّومىّ :

شَمْسٌ وبدرٌ وَلَدا كَوْكَبا أقسمتُ باللهِ لقد أنْجَبا

١٠ وقد تقدَّمَ إنشادُه .

ومن قَصيدةِ الحلوانىّ :

لا أقتضِيكَ مَواعِيدًا بدَأْتَ بها كما تَنَفَّسَ مِن أكمامِها الزَّهَرُ

ولا أَلومُكَ فى تأخيرِ عاجِلِها من بعدِ عِلْمى بما يَجرِى به القَدَرُ

أما تَرَى اللهَ وهو اللهُ مَوعِدُه مُؤخرٌ بنَعيمِ الخُلْدِ مُنتظَرُ ؟

١٥ وقال :

وما كنتُ أدرِى قبلَ لُؤْلُؤِ ثَغرِه بأنَّ اللآلى من نباتِ المباسِمِ

ومنها :

مَنادِيَّةٌ أنسابُهُ حِمْيرِيَّةٌ مُتوَّجةٌ بالمجدِ قبلَ العَمائمِ

فما انبسَطتْ إلاّ لجُودٍ أكُفُّهمْ ولا انقَبضَتْ إلّا لضَبْطِ القَوائمِ

٢٠ يجرُّونَ أطرافَ الرِّماحِ إلى الوَغَى كما جرَّتْ العِقبانُ سُودَ الأراقمِ

ومَعنى البيتِ منها كقولِ الآخر :

وما خُلقتْ كفَّاكَ إلّا لأربعٍ عَقائلَ لم تُخلَقْ لهنَّ يَدانِ

لتَقليبِ[1] هِنديٍّ وإعطاء نائلٍ وتَقبيلِ أفواهٍ وقَبْضِ عِنانِ

وقالَ الحلوانى :

يا نفسُ ويحكِ فى التغرُّبِ ذِلّةٌ فتَجرَّعى كأسَىْ أذًى وهَوانِ ٥

وإذا نَزلتَ بدارِ قومٍ دارِهِمْ فلهمْ عليكَ تعزُّزُ الأوطانِ

فالشَّمسُ أشرَفُ ماتكونُ بكبْشِها وسُقوطُها فى كِفَّةِ الميزانِ

وصدرُ هذا البيتِ الأخيرِ كقولِ الآخَر :

إذا غَدا مَلِكٌ باللهْوِ مُشتغِلاً فاحكُمْ على مُلْكِه بالوَيْلِ والحَرَبِ

أما تَرَى الشمسَ فى الميزانِ هابطَةً لما غَدا وهو بُرجُ اللهْوِ والطرَبِ ؟ ١٠

وزارَ بعضَ إخوانِه فحجبَهُ فخاطبَه برُقعةٍ يَقولُ فى فَصلٍ منها :

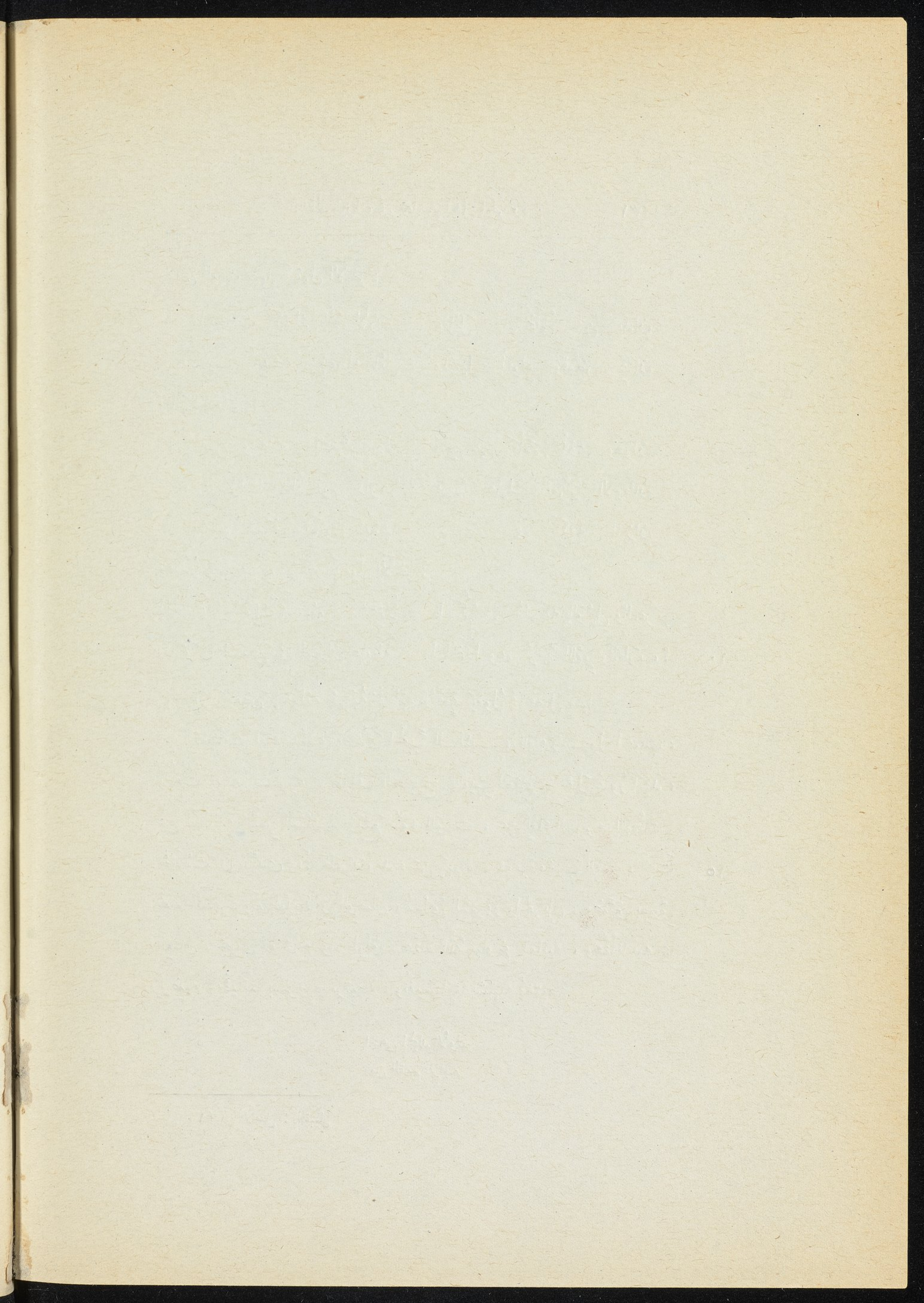
تَصدَّيتُ لقاءَ سيِّدى تصدِّىَ المحبِّ الكئيب ، للقاءِ رَسولِ الحبيب ، وطُفْتُ ببابِه الكريم ، طوافَ الحَجيجِ بالبيتِ العَظيم ، فحالَ عُثورُ الجَدِّ ، عن مُطالعةِ القَمرِ السَّعْد ، ومَنعَ سُوءُ البَخت ، عن لِقاءِ الكَرَمِ البَحْت . فحدَسْتُ أنَّ سيِّدى وقتَه ظفِرتْ يَداه بمن يَهواه ، فغابَ مَغيبَ القمر ، تحتَ ١٥ غَمامِ الظَّفَر ، وتَعاطيا بكأسِ الوِصال ، مُدامىَ السُّرورِ والجِريال ، وضَيَّقَ بضِيقِ العِناق ، مَجرَى الوِشاحِ والأطواق . هنَّأه اللهُ ببلوغِ أمانيه ، وهنَّأنا فيه بما يُرضِيه . فحياتُنا بسُرورِه مُرتبِطة ، ونفوسُنا بما يَشتهيه مُغتبِطة .

انتهى المجلد الأول

من القسم الرابع

---

(١) فى الأصل : لتقبيل .



فهرس

صفحة

أبو العلاء صاعد بن الحسن البغدادى ٢
فصول من نثره فى أوصاف شتى ٣
كتب إلى الوزير أبى جعفر بن الدُّبّ مستعطفاً ٣
له إلى مجاهد يصف ظهوره على خيران ٤
جملة أخبار جرت له مع المنصور بن أبى عامر ٦
المنصور يختبر صاعداً أول دخوله ٦
إغراق كتابه (النصوص) ٨
ابن العريف يفترى على صاعد ٩
صاعد يرتجل شعراً يصف فيه سقيفة أعدها المنصور لاختباره ... ٩
ابن بسام يتحدث عن نفسه وكتابه ١١
أبيات لصاعد فى الوصف ١٢
صاعد ومعارضة أبى نواس ١٣
أبو عبد الله بن شرف وابن رشيق ومعارضتهما المتنبى ١٤
صاعد ينتحل الشعر ١٥
بعض أخلاق صاعد ١٦
أبو مروان عبد الملك بن شهيد فى مجلس شراب عند المنصور ... ١٦
شعر لابن شهيد المذكور ١٨
صاعد يغنى للمنصور ١٩

صفحة

صاعد يختلق ألفاظا فى اللغة ويكذب ٢٠
إهداؤه إيلا المنصور ٢٢
البديهة والارتجال فى الشعر وأمثلة لذلك عند المشارقة والأندلسيين ٢٣
إيجاز الخبر عن أسر غرسية ٣٠
أبو مروان بن الجزيرى ومقتله ٣١
رسائل الجزيرى على ألسنة بنات المنصور ٣٢
الجزيرى يحرض طرفة على اسقاط عيسى بن سعيد القطاع والاستبداد
بالدولة ٣٤
رجع الى صاعد ٣٧
رسالة صاعد إلى على بن وداعة ٣٧
مقتل المغيرة بن الناصر بأمر المصحفى ٤٠
بين ابن أبى عامر والمصحفى ٤١
تلخيص التعريف بدولة ابن أبى عامر ٣٩
جهاد ابن أبى عامر ومحاربته النصارى ٤٤
نكبة أبى جعفر المصحفىّ وشعره فى السجن ٤٦
كبار الأحداث بالدولة العامرية ٥٢
المنصور يستخرج الأموال من قصر الخليفة ٥٢
وفاة المنصور ووصيته ٥٤
قيام عبد الملك بن المنصور بالدولة ٥٨
صفات عبد الملك وفضائله ٥٩
زاوى بن زيرى يدخل الأندلس فى عهد عبد الملك ٦١
الخليفة هشام وانشغاله وأهل القصر بالخرافات ٦٢
عبد الملك يحارب النصارى ٦٣

صفحة

أبو الفضل محمد بن عبد الواحد البغدادى الدارمى ٦٧
حياة أبى الفضل قبل دخوله الأندلس ٦٧
قصيدة الواسانى فى يوسف بن على الفلاحى ٦٩
جملة من أشعار أبى الفضل فى النسيب مع تعليقات المؤلف ٧٣
شعره فى سائر الأوصاف ٨٠
مقطوعات له فى الإخوانيات ٨٩
سليمان بن محمد الصقلى ٩٣
أبو الفتوح ثابت بن محمد الجرجانى ٩٦
عبد العزيز بن محمد السوسى ٩٨
وصف احتفال المأمون بن ذى النون بأعذار حفيده ٩٩
جملة من أخبار بنى ذى النون وذكر أولية أمرهم ١٠٩
شغف المأمون بن ذى النون ببناء القصور ١١٤
مصير القادر بن ذى النون ١١٦
مقتل الفقيه أبى بكر بن الحديدى ١١٨
فرار القادر بن ذى النون من طليطلة ودخول المتوكل ١٢٢
خروج المتوكل من طليطلة ورجوع ابن ذى النون إليها ١٢٥
سقوط طليطلة فى يد النصارى ١٢٧
أبو عبد الله محمد بن شرف ١٣٣
جملة من نثره ١٣٤
كتابه أبكار الأفكار ١٣٨
كتابه أعلام الكلام ١٤٠

صفحة

فصول من نثره فى أوصاف شتى ١٤٣
فصول له فى الذم ١٤٧
رقعته إلى المظفر بن الأفطس ورده عليه ١٥٢
مقامة لابن شرف فى ذكر الشعراء ١٥٤
مقامة له أخرى ١٦٥
شعر ابن شرف فى النسيب ١٦٨
شعره فى المديح ١٧٠
مقطوعات له فى أوصاف شتى ١٧٥
مراثيه فى بلدة القيروان ١٧٧
جملة من أخبار ابن السقاء القرطبى ١٨٦
أولية ابن السقاء كما رواها ابن حيان ١٨٧
استبداد ابن السقاء ١٨٨
مصرع ابن السقاء ١٩٠
أبو الحسن على بن عبد الغنى الكفيف المعروف بالحصرى ... ١٩٢
جملة من نثر الحصرى ١٩٣
رسالته إلى أبى الحسين بن الطراوة ١٩٤
رسالته إلى الأديب غانم بمالقة ١٩٦
له إلى ابن حسداى يشكو ابن عباس ١٩٧
شعره فى النسيب ١٩٩
شعره فى المديح ٢٠٢
قصيدته فى المقتدر بن هود ٢٠٥

المقتدر بن هود وتغلبه على دانية ٢٠٦
مقطوعات للحصرى ٢٠٨
شعره فى الرثاء ٢٠٩
مدائحه فى الشعبى ٢١٦
أبو الحسن عبد الكريم بن فضال القيروانى المعروف بالحلوانى ٢١٩
شعره فى النسيب ٢١٩
شعره فى المديح ٢٢٤

جدول الخطأ والصواب

صفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٩	١٥	أخضرُ	أخضرَ
٣٧	٢	ابن	بن
٤٢	٣	مدَّ	مذ
٤٣	٣	جعفر	وجعفر
٤٧	١٤	صرِفه	صَرْفه
٥٣	١٤	الملأ	الملأُ
٥٨	٦	أميه	أميَّة
٦٠	١٤	النزع	الترع
٦١	٦	ألفَىْ	ألفَىْ
٨١	١٣	نقاد	تقاد
٨٣	٤	فعاونيّ	فعاونيٍّ
١٠٥	٤	وائد	موائد
١٠٥	١٣	خليفةِ	خليفةَ
١٠٨	١	فدخلَوْا	فدخُلوا
١١٠ / ١١١	٢١ / ٧	فرْطهم	فرَطهم
١١٣	٢	الملقبُ	الملقبِ
١٢٠	٦	مالا	مالأ
١٢١	٣	بفتكةَ	بفتكةٍ
١٢٣	١٠	واشرأبِ	وأشرأبَّ
١٢٤	٥	أضلِّ	أضلَّ
١٢٥	٣	جملةَ	جملةٌ
١٢٥	٩	بطليوسيّ	بطليوسَ
١٢٥	١٧	ظَفره	ظفره
١٢٦	٥	الصِّغار	الصَّغار
١٢٦	٧	إعذار	إعزاز
١٢٧	٣	إليه	إليها أو إليهم
١٢٧	١٠	طلمطلة	طليطلة

صفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٢٧	١١	آداء	أداء
١٢٧	١٥	يقعِد	يقعُد
١٣٠	٩	خلَوا	خلوا
١٣١	٨	الأبقاء	الأبقاء
١٣٢	١	وتسعين	وسبعين
١٣٦	١٨	الطلِب	الطلَب
١٤٠	٦	صمصامَ	صمصامُ
١٤١	١١	السِّبق	السَّبق
١٥٠	٩	صفاء	صفاء
١٥٠	١٤	خدنَ	خدن
١٥١	٥	واوت	واوات
١٥٢	٦	الفُتاء	الفَتاء
١٥٢	١٤	نُسِيَّات	نُسَيَّات
١٦٨	١١	عِسى	عِيسَى
١٧١	١٠	وللسِّير	وللسَّيْد
١٧٢	٩	الخطابَ	الخطابِ
١٧٤	٩	غُرفة	غَرفة
١٩٤	١٥	الطراة	الطراوة
١٩٥	١٧	قوَم	قوْم
١٩٩	٣	أعبد ريانَ	أغيدُ ريانُ
٢٠٥	١٩	سرقَسطة	سرقُسطة
٢٠٨	١	أُريم	أريم
٢١٠	١٧	تقرأ (ولا بياضَ معي إلّا بياضُ)	
٢٢٢	١٨	الشِّعر	الشَّعر
٢٢٥	٢	محدثِه	محدثَه
٢٢٥	١٤	بعد إن	بعد أن
٢٢٩	١٣	الملوكُ	الملوكَ

